دار الشروق

سعيد الكفراوي

شفق ورجل عجوز وصبي

مختارات قصصية

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٨٢٦٦ /٢٠٠٨
ISBN .978-977-09-2379-8

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

سعيد
الكفراوي

شفق
ورجل عجوز
وصبي

مختارات قصصية

دار الشروق

المحتويات

سيدة على الدرج ٧
تلة الغجر ١٣
عريس وعروس ٢٧
قصاص الأثر ٣٧
الشرير والجبل ٥١
القط والعصفور ٦١
ضربة قمر ٧١
بيت للعابرين ٨٣
صورة ملونة للجدار ٩٣
رفة جفن ١٠٣
رائحة الليل ١١١
وردة الليل ١١٧
العُرَاة ١٢٧
لون الماء ١٣٥
جديلة لمريم ١٤١
شرف الدم ١٤٧
الملكوت ١٥٧

البنت التى واربت الباب للحلم ١٥٩
الأمهرى ١٦٥
زبيدة والوحش ١٧٣
كل تلك الفصول ١٨٧
الأرض البعيدة ١٩٧
الرحى ٢٠٩
مجرى العيون ٢١٣
ساعة فرجينيا الأخيرة ٢١٧
يوم بسبعين سنة ٢٢٥
عشب مبتل ٢٤١
الجمعة اليتيمة ٢٤٩
لا بورصا نوفا ٢٥٩
قمر معلق فوق الماء ٢٧١
سدرة المنتهى ٢٨٧
صيد الغزلان ٣٠٣
الجواد للصبى . . الجواد للموت ٣١١
شفق ورجل عجوز أيضًا ٣٢٥
القصص المختارة ٣٣٩
عن المؤلف ٣٤١

سيدة على الدرج

عندما كان نصفه خارج باب شقته قال «لعل النهار يكون اليوم أفضل»، وبحذر شديد أغلق الباب حتى لا يحدث صوتا.

على الدرج ضوء لمصابيح سقفيه تنطفئ ذاتيا، ونباتات ظل ليست مزهرة، وأسماء نحاسية على الأبواب لمالكين، إلا بابه هو، فعليه كتابة لكلمات قديمة تحت نقش من نحاس لامرأة تقف عارية عند مصب الماء.

يحاذر فى نزوله الدرج؛ حتى لا تشعر به الأرملة جارته، فتوقفه ككل يوم وتكلمه عن أحوالها.

فكر، إنه على مدى عامين وهو يرقبها تقف فى فتحة الباب ناعسة العينين تحدثه عن زوجها الراحل «لتتقدس روحه مع القديسين»، وعن وحدتها فى هذه الشقة الواسعة؛ حيث تطاردها الذكريات، وبُكاء زوجها الميت يتردد فى فراغ الشقة. قال «حكاية لن تنتهى» وبدأ يتوجس من معرفة زوجته لما هو فيه.

هبط الدرج على صوت موسيقى تأتى من إحدى الشقق (كأنه ـ «موتسارت» الطفل الإلهى يدور بالمعنى المكتمل عن النور، وعن مبيت الروح فى باحة منزل الريح).

ما إن هبطت قدمه على بسطة السلم العريضة، أمام باب شقتها، حتى انفتح وأطلت منه برأسها مبتسمة. كانت تقف فى فتحة الباب، وبالكاد سمع صوتها الشاحب يلقى عليه تحية الصباح. أخذ بالمفاجأة ورد بعجلة:

ـ صباح النور.

تقف بشعرها الطويل الأسود كليل، وبشرتها البيضاء الناصعة، تلف جسدها فى روب أسود من الدنتلا، وتحته قميص من نفس اللون يكبح ثدييها النافرين بحيوية منتصف العمر.

ـ أهلا مدام.

ـ أهلا بك.

تأكد لديه عندما لمح نظرة عينيها المجهدة أنها أمضت ليلتها فى مطاردة ماضيها، وأنها تعيش بقدر هائل من الجنون ذكريات زوجها الراحل.

أتى صوت البحر من بعيد، وهبت نسائم أكتوبر الباردة من نافذة السلم.

كان يتأمل شقتها المنورة: الصور على الجدران، والأثاث على الأرض بشكله الرصين. كل مرة يقف فيها يرى زوجها يطل عليه من فوق الجدار من خلال صورة ملونة، بجانبه صورة لأحد القديسين يعتمر مسوحا أسود، وبيده الصليب من فضة، تستقر فوق الصورتين سنبلات من قمح فى لون الذهب.

ـ عن إذنك مدام.

ـ لِمَ العجلة؟!

ثم سكتت لحظة، بعدها أكملت:

ـ لقد نسيت أن أخبرك أمس.

ـ خيرا.

ورأى القطة تتجه ناحيته، خارجة من تحت الطاولة، وتموء بصوت غير شبعان، تتمسح برجله التى نقلها بعيدا.

تأملته لحظة، نقلت فيها يدها من خارج الباب الأيمن ودفعت بثدييها فى حركة ظاهرة، وأخذت تستمع لصوت الموسيقى، قالت:

ـ لقد سافرنا معا سنوات طويلة.

ـ أعرف. أعرف مدام.

ـ لقد اعتاد أن يأخذنى كل عام إلى بلد.

ـ ....

ـ لقد شاهدت معه الدنيا.

تأكد لديه أنه كثيرا ما سمع تلك الحكايات. ما يضنيه أنه لا يعرف ما الذى تريده؟! وبدا له الأمر عبثيا لدرجة لا تصدق، وخاف أن ينتهى كل هذا إلى الجنون.

قال لها:

ـ الله يرحمه مدام. كان من الرجال الطيبين.

وتهيأ للانصراف، لكن صوتها جاءه:

ـ كما تعرف، فأنا برغم كل الظروف لا أزال عندى الذكريات.

ـ طبعا.

ـ هى ليست ككل الذكريات بالفعل.

ـ ضرورى.

ـ هى ذكريات مع رجل ميت، رجل لم يعد موجودا.

صمتت ونكست رأسها فرأى مفرق شعرها، وتأكد من أن نهاره سوف يطول، وخاف من صعود أحد الجيران، أو أن تفتح زوجته باب الشقة، حاول استدعاء صوت البحر لعله يأخذه إلى بعيد.

سمعها تقول:

ـ على فكرة، إن رجلا حى أفضل من كل الرجال الميتين.

أُخذَ، وانقبض قلبه، وشعر بلفحة الهواء الباردة تجفف عرقه، وتساءل:

ـ أفندم؟

ردت عليه.

ـ الوحدة صعبة، وأنا امرأة عندى بنتان فى عمر الشباب، وأنت كما تعرف.. نحن لا نتزوج بعد أن يموت أزواجنا، ما يضنينى كيف سأعبر ما تبقى لى من سنين؟!

شعر اليوم بأنها تتسلل إليه، تكشف غطاءها عن أمنية، وأنها تسير بمحاذاة سور مظلل فى اتجاهه. قال فى نفسه «كل الأمور غير متشابهة»، وشعر للحظة بافتقاده للأمان، وبدا الأمر كأنه يخصه، وانبثق بداخله ضوء من حنان.

ـ لكن يا مدام . . .

ـ لكن مـاذا؟ . . . هل تريدنى أن أدور فى الشـوارع؟! أنا سـيـدة محترمة وأنت سيد العارفين .

علا صخب الماء، ونفذ منه إلى حبة القلب .

كأنما الريح تشتهى لحس الصخور .

وكأنما السمك يخاف انقضاض الطائر الصياد .

ـ عامان وأنا أقاوم . . الأمر . . أقصد . . أنت جار طيب تقدِّر مثل ما أنا فيه . . يعنى . . أنت رجل . . و . . أقصد . . . يعنى .

ارتجف، وتنهد بغير ارتياح، غير أن الرجفة التى داهمته انزاحت، والشكوك التى أصابت عقله تبددت عندما رآها تبتسم، ورأى ذلك الحنان العميق يشع من عينيها، وأدرك كم هى امرأة وحيدة، وأنها تقاوم نفسها بعزة!

رجعت بظهرها داخل الشقة، وكان عليه أن يستعيد نفسه ليخطو خطوته الأولى إلى الداخل (حيث صورة الزوج، والقديس، وسنبلات القمح الذهبية) تاركا يده تسحبه منها، ناظرا من نافذة الشقة المفتوحة على البحر الذى اشتد الآن موجه .

تلة الغجر

جدى على العتبة .

وأنا مستلق على بطنى فوق الزغلولة التى أمتطيها عروسة .

رفعت رأسى وناديت :

ـ جدى .

يتلفع بعباءة جوخ زرقاء ، ويرمش بعينين كليلتين ناحيتى ، قلت «رجع من السوق» تحت التعريشة تجتر البهائم حالمة ، ويجرى الكلب عنتر لاعبا من جدار لجدار مع الجدى الصغير ، فيما تهب قبل المغارب نسمات باردة ، ويهلل مذياع القهوة بتكبيرة الفتح فى رمضان .

ـ جدى .

استندتُ لجذع النخلة المائلة ، واقتربتُ أنا ؛ لأكون بالقرب منه . زعق :

ـ سقيت البهائم ؟

ـ نعم يا جدى .

ـ خلطتْ العلفة برشة الفول .

ـ نعم يا جدى .

ـ رش الماء أمام الدار، واسق البرتقالتين والزيتونة، وأطلق سراح العجل الصغير.

ـ طيب يا جدى.

مدَّ يده وأزاح عن جبهتى شعرى.

ـ كم عمر الزغلولة يا جدى؟

ـ كثير، من عمر أجداد أجدادك.

ـ وأنت، كم عمرك يا جدى؟

ـ كثير.

ـ من أيام عرابى يعنى؟!

ـ وأنت من عرفك بعرابى؟!

ـ عندنا فى كتاب التاريخ.

ابتسم، وطبطب على ظهرى:

ـ ما شاء الله.

ثمة أحجار مركونة فى حضن السور، ونور للشفق يسيل فى السماء قبل مغرب رمضان.

تطلعتُ إلى وجهه، وتذكرت أن أبى كلما قسا علىَّ، ووبخنى بسبب إهمالى علومى؛ جريتُ نحو جدى لائذا بحضنه. وكنت أسمعه يشخط فى أبى، «خليك وراه لما تجيب أجله!» وكان يجلس ثم يأخذ رأسى ويضعه فى حجره، وأسمعه يسب أشخاصا مجهولين، وأراه

يشير بيده ناحية الظل المرسوم على الحائط فيما تهدهدنى رجله حتى أنام فلا يوقظنى حتى أصحو وحدى.

دس يده فى العباءة وأخرجه ملوحا به أمامى.

اندهشت لما رأيت الشمس الملوّنة تضوى خلفه، وهتفت وأنا أصفق بيدى:

ـ هيه.. هيه.. فانوس رمضان.. فانوس رمضان!.

تواثبت. وكلما مددت يدى لآخذه رفعه جدى أعلى منى، فقلت له:

ـ حفظك الله يا جدى.. هات الفانوس، ولا توجع قلبى.

انفجر ضاحكا وقال لى:

ـ بريال يا ابن الشياطين، خسارة فى والديك.. حافظ عليه مثل عيونك، وانبسط يا سيدى.

أزاح بيده حصى الأرض، ثم رفع العباءة الجوخ وفرشها فى مد الظل، ووضع العمامة على الفرع الناتئ بالتوتة، استلقى على العباءة ووضع ذراعه اليمنى على عينه، وبدت لى لحيته كالقطن المندوف.

قال لى:

ـ اسرح حيث أبوك وأعمامك، واعرف إن كانوا انتهوا من رى «مرزة» أم سيبيتون فى الغيط.

ـ حاضر.. حاضر يا جدى.

ـ قل لجدتك تبل التمر والعرقسوس ؛ ريقى اليوم ناشف .

ـ حالا يا جدى .

تسلل النوم من التوتة، وسها جدى وأغلق عينيه، لكنه ما زال يواصل الحديث :

ـ حاذر أن توقظنى قبل المغرب ؛ فأنا سوف أزور الغائبين .

عندما يتكلم بما لا أفهم يكون على عتبة النوم .

ـ نوّر الفانوس، وإياك والذهاب لتلة الغجر .

انتظم تنفسه وجعل صدره يرتفع ويهبط، يصدر عنه شخير خفيف .

قلت : «تلة الغجر . ما الذى ذكره بها؟! . . . ولماذا أذهب هناك؟! ومن الذى يدلنى على السكة حتى آخر العمار؟! هناك تنقطع الرجل، ويزوم الهواء بشجر الترب» .

ـ إياك وتلة الغجر ؛ يخطفون العيال، ويدقون على صدروهم الوشم، ويسمّونهم بغير أسمائهم .

بدأ يحلم ويخرف .

تركته وخرجت ألوّح بفانوسى الملون .

عند الباب قابلتنى أمى معصوبة الرأس، ولما رأت الفانوس قالت : «مبروك يا عبد المولى» فأخبرتها فرحا بأن جدى أحضره لى من المركز ؛ فابتسمت لى . قلت لها : «لماذا لما ينام جدى يتكلم عن الغجر؟»، قالت لى أمى : «إن الغجر عباد الله أيضا، ولا يخيفون»، وذكرتنى بجليلة وقالت لى : «وهل نسيت جليلة الغجرية يا عبد المولى؟» .

«جليلة، جليلة» . . رددّتُ الاسم، وتطلعت للشمس المصفرة، وأفعمت صدرى رائحة لبن محترق .

«جليلة الغجرية . آه»!

خطوط الوشم الثلاثة على الذقن والنقطة خضراء بجانب أنفها السرح، خال للحسن مثل الزبيبة لا يمحوه الموت نفسه . . الحلق الهلالى يهتز بهزة الرأس فيضوى، وعيون بكحل ربانى سارح فيها الغموض، وبريقها فى قلب أمى وخالاتى سر من الأسرار .

«نضرب الرمل، ونشوف الودع، زين نبيّن» .

«تعالى يا جليلة» .

وعلى أرض الزقاق، وتحت التوتة الذكر تفرش المنديل، وعليه حبات الرمل الناعم، العين الكحيلة، فى العيون . مأسورات القرويات بسحرها الخفى . . تخطط الأصابع سكك العمر، وتأتى بخطوط الخلائق . . طرق مفتحة على السعد، وأواخرها أفراح للبكارة، وطمأنينة بعودة الغائبين . . سنة خير تدر الضروع اللبن وتملأ صوامع الغلة بالخير ونعمة الغيط . . لكن المخاطر كامنة فى بطن الغيب كالكواسر، حاسدة وكارهة . . ورب العباد المنجى، ورسوله حافظ، والطيب لا يضام . . وأنت طيبة وصالحة يا «أمينة» يا بنت «المرسى»، وابنك «عبد المولى» محفوظ من العين، ومن شرور الشياطين .

أسمع صوتها فأخرج من نومى مجتازًا الباب، ولحظة أنظر فى عينيها، التى لم تكن بلون الرماد، لكنها من نور؛ أتسمر على العتبة بين عتمة الدار وصهد الشمس . ثوبها من تيل خفيف، مشغول بدوائر تكشف عن قميص بلون ورد الجناين . أخذتنى فى حضنها فأفعمنى

عرقها . . قالت لي : «يا ابن الغالية» . . أحسست برأسي في صدرها وجرى قلبي بالشوط . قبلتني على فمي ، وضحكت خالاتي «اتركي الولد يا قادرة ، فاجرة يا أختي ووشها مكشوف ، وعينها تندب فيها رصاصة»!

تضحك بنت الغجر ، وتقول لها أمي الطيبة «لا تغيبي عنَّا يا جليلة ، لك وحشة» . ترد عليها الغجرية «أكل العيش مرٌّ يا أم عبد المولى» .

وعندما تبتعد عني ، أرتجف ، وأسمع قلبي يدق ، وأراها ترفع ثوبها وتكشف عن سمانة ساقها وتنظر ناحيتي «خلينا نشوفك ، يا عبد المولى» وتغيب في انحراف الشارع ، ويأتي صوتها عبر الدرب : «نضرب الرمل ، نشوف الودع . . نبين زين نبين» . تغيب ويبقى في قلبي صوتها والوعد بأن أراها .

بعد الفطار ، وشُرْب الشاي ، وتأدية الفرض نورت الفانوس ، ولما شع نوره انبسط جدي ، وتأمل بهجة الألوان وهي مفروشة على الأرض .

دفعت باب السياج وخرجت للحارة ؛ سمعت صوت عمي محذرا :

ـ احرص على الفانوس .

الحارة زحمة بالعيال ، ولمة البنات ، والبيوت مشغولة بكعك العيد ، وراديو المقهى عال بالذكر والتسابيح .

وأحاطني العيال ؛ لما رأوا فانوسي ، ومشوا خلفي ترتمي على الأرض ظلالهم ، صعدنا حيث ضريح «أبو حسين» الكائن على الترعة ، هتفت :

ـ سيدى أبو حسين.

زام الهواء فى الفروع العالية:

ـ تقول عنه أمى إن سره باتع وصاحب معجزات.

ـ وصاحب فضل، وكرامات على البلد كلها.

ويُسيّر السحب، وينزل المطر.

ـ هذا الله يا ابن الجاهل، الذى سيبعثنا يوم القيامة؛ فتذهب أنت وأبوك إلى جهنم، وأذهب أنا وجدى للجنة.

ضحك العيال، ونظروا للفانوس الذى شع نوره.. قالت شفيقة:

ـ صَرْوَخَتْ الشمعة، والنور راح.

ـ بكرة تشترى شمعة يا عبد المولى، وتنوّر الفانوس.

ـ بكرة ليلة سبعة وعشرين، ليلة القدر.

ـ ليلة القدر! يعنى بكره طاقة النور ستفتح، ويُجاب الدعاء، ونروح تلة الغجر.

انبهت العيال، وردوا فى نفس واحد:

ـ تلة الغجر! لا يا عم.

صمتوا، ثم ردوا فى عجل:

ـ وماله نروح.

الصبح قلت لأبى «هات شلن»، ولما سألنى لماذا؟ قلت له أشترى شمعة. زعق فى وجهى وقال: «وشمعة البارح؟ قلت له خُلْصتْ.

شخط مرة ثانية، يعنى يا ابن أمك، عاوز لك كل يوم شلن. قلت: يا أبى، الليلة ليلة القدر، ولازم أنوّر الفانوس.

دفعنى أبى بيد الفأس فصرخت، وتراجعت بظهرى فغاصت قدمى فى وحلة الزريبة، ولمحتُ العجل الرضيع يمتص ثدى أمه الزهقانة والتى تدور على نفسها. سمعت صوت جدى قرب الباب يقول لأبى: «مالك»؟! وسمعت أبى يرد عليه: والله، وجبت لنا وجع الدماغ يا أبى، عاوز شمعة!

فرد محفظته البنية القديمة، وفك أزرارها، وكنت أسمع تكة الأزرار وهى تُفتح، فيفرح قلبى.

ما إن لمحت الشلن حتى قبضت بيدى على الملك الجليل وسمعتُ أبى يصرخ «إن ما أفسدته»!

درتُ على كل دكاكين البلد؛ أسأل عن شمعة، من حارة البحر حتى داير الناحية، ومن الواطية حتى أرض المريس وصرخت فى سرى «نهار أغبر»! وصلت الدار أنتفض، وصرختُ فى أمى عاوز شمعة، ورفستُ التراب، وألقيتُ حجرا على نافذة المقعد. توقفتْ أمى عن لت العجين وشخطتْ فىَّ، وبعدها لك يا عبد المولى.. اهمد.. نخلق لك شمعة!

صاح عمى «أحمد»: جاءك الغم.. لا تنتهى طلباتك.. اصعد غرفة السطح؛ ستجد لمبة صفيح صغيرة، على قد الفانوس.. نظفها وركّب لها شريطا واملأها بالجاز وأرح دماغنا، كانت شورة هباب.

توقفتُ عن البكاء، واقتربت من عمى، وقلت له:

واللمبة هذه، أين يا عمى؟

فرد عليَّ: فوق، فى الطاقة على يمين الباب، وأنت داخل.

قفزت درج السلم وفتحتُ باب حجرة السطوح، وفتشت فى الطاقة، عثرت على المصباح ووجدته مصباحا قديما مدقوقًا، فى حجم ضفدعة كبيرة، يعلوه صدأ وترابة الركنة، منزو وسط ملاعق من خشب ولفة دوبارة وأختام قديمة بأسماء غابت، وعقود أراض مؤرخة من زمان، وجدتُ خنجرا بنصل لامع داخل جراب من جلد، همست لنفسى: خنجر وفانوس.

جمعتُ لوزات القطن، وبرمتها شريطا، وغسلتُ المصباح بالطين والتراب، ودعكته بالجاز، ثم ملأته، وغمستُ فيه الشريط.

فى الليل نوّرت الفانوس وجمعتُ خلفى العيال وحثثنا المسير؛ حيث تلة الغجر.

خلّفنا وراءنا البلد، وخضنا فى الظلام على نور الفانوس، ورأيت دخانا خفيفا يصعد من الشريط المحترق؛ فيسوّد جوانب الفانوس.

مررنا على عشة «أم بلال»، المرأة المقطوعة، والتى ليس لها أهل. رأيتها تقف عند عشتها بالقرب من طلمبة المياه، ألقيتُ عليها السلام؛ فردته وسألت: إلى أين العزم يا عيال؟!

فأجبناها بصوت واحد «لتلة الغجر». ضحكت المرأة بصوت أفزعنا ولوحت بيدها ناحيتنا، وصاحت «تلة الغجر؟ أنتم يا مفاعيص! ارجعوا يا أولاد الشياطين.. غجر فى عيونكم.. إن ذهبتم إلى هناك فسوف يخطفونكم ويخصونكم كالجديان، ويفتحون بطونكم، يُخرجون حشاكم، ثم يملأونها بالملح ويصبرونكم ويعلقونكم على أبواب خيامهم.

خفنا وتسمرتْ أقدامنا فى الأرض، وبدا من حولنا الليل ممتدا. انفلت «سعيد بدر» ومن خلفه الولد «ماضى» وقفلا راجعين.

حثثنا المسير، وتوغلنا فى الليل، وكلما سرنا؛ شح النور، وانحبست الشعلة وسط طبقة السناج الذى هبَّب الزجاج الملون.

هبتْ ريح فانتفض الشجر، ارتفع من البعد عواء ذئب من عند الترب، وخفقت فى السماء النجوم.

انحبس صوتنا، وشدت الأيدى بعضها بعضا.

قلت:

ـ هانت يا أولاد، قرّبت التلة.

سمعتُ صوتى ولم أسمع جوابا.

ارتعشتْ ذبالة الفانوس؛ انطفأتْ وحل الظلام كالكحل، بكت شفيقة، واستغاثت:

ـ أنا خائفة!

رفعتُ الفانوس وقلت لهم:

ـ سينوّر الله الأرض بطاقة القدر.

ـ عاوزه أرجع!

ـ سأطلب من الله أن يطوّل عمر جدى.. ما الذى ستطلبينه يا شفيقة؟

ـ أروّح!

صرخ «عثمان» أصغرنا ـ وتوسل «لمنجى» :

ـ ارجع معى يا منجى ، أمى ستقتلنى .

انفصل عنى العيال وعادوا يهرولون تجاه البلد . سرتُ لمقصدى وحدى ، بيمينى فانوسى الذى ضاعت ألوانه . همستُ : «سوف أذهب وحدى حتى لو امتلأت الأرض بالشياطين» ، ولما ذكرت الشياطين ؛ ارتجف جسمى .

ضاقتْ الغيطان ، ورأيتُ الشجر يمد ناحيتى فروعه ، وسمعتُ داخل الحلفا خروشة ؛ تشجعتُ وقلتُ فى نفسى : «الشياطين مسجونة فى رمضان ، هدى نفسك» ، جاء صوت الكروان : المُلْك لك ، المُلْك لك ، فهدأ روعى وقلتُ : «أنا الغلطان ، خدعنى نور الفانوس ، والوعد القديم ، فمشيت أتبع خطى النور» .

أردتُ أن أعود ، لكن محاولتى لم تعد مجدية . . من على البعد سمعت ضرب دفوف تحملها الريح ؛ انتبهت على هلال وليد كشقة البطيخة يتسحب فى السماء . همست : «التلة بعيدة والقمر ليس بدليل» .

لاحتْ لعينى التلة موشومة بأشجار قليلة منتثرة على الجنبات . خيام ثلاث تُنيرها مصابيح معلقة على عواميد ، تخفق كاشفة عن خيام الوبر المنصوبة فى حضن بعضها بعضا .

صعدتُ التلة ، ولما تعبتُ ؛ جلستُ على حجر .

رأيتهم يتحلقون ، ويضربون الدفوف ويغنون على أنغام ناى ومزمار ، وصلنى النغم أليفا ومؤانسا .

اقتربتُ؛ فرأيتُ «المواوى» يقف تحت المصباح الكبير، ولما تأملته وجدت له جدائل مضفرة، وبأذنه اليسرى قرط من الفضة، تتدلى منه أجراس صغيرة، وعندما رفع كفه وجدت بهما خواتم بفصوص على شكل جعارين، وفوق عينيه حاجبان متصلان يختطان على عينَي صقر، فيما تتجلل أسنانه بتيجان الذهب الذى يلمع، كلما ضحك على ضوء النار الغجرية.

تحرك «النورى» القصير وأذكى النار بسيخ من الحديد؛ فَعَلَتْ. ثمة آخر يلتف حول ذراعه ثعبان مرفوع القحف يخرج شوكته ويحدق بعنين لا تطرفان، نسناس صغير يقف على كتفه صامت، وعلى وجهه حكمة الشيوخ.

تعبتُ من النظر والمخاوف، وكأننى غفوت.. هل أخذتنى سنة من النوم أو النار وقرع الدفوف والمواوى المبتسم قد سحرونى؟! عندما رأيتُ طاقة السماء تنفتح وتشع بالضياء وتهبط منها الملائكة المجنحة وتدور بالمكان فيما تهب روائح الجنة.. قلت: «أدعو لجدى؛ ليلة القدر لا يرد فيها الدعاء» ورأيتُ غجريا يستقبل الملائكة بالدف، فيما انسحب «المواوى» واندس فى حلقة الغجر وأخذ يد غجرية مليحة الوجه، مشدودة القوام، تلبس فستانا من الحرير وتشد خصرها بحزام أخضر، له طرف مسدل حتى فخذها، اتخذتْ لنفسها مكانا وسط الحلقة وأخذتْ ترقص على إيقاع الدف، ومن خلفها تفتح أمام عينى أبواب من حدائق مزهرة، لا تزال الملائكة تطوف بها.

«جليلة، جليلة»!

صحتُ، فانتبه المواوى لوجودى فتقدم منى، وقال وهو يبتسم جئت؟!

فقلت: آه.

سحبني من يدى، وعلى طاولة استلقيتُ على ظهرى، وضع يده اليمنى على صدرى، وأحضرتْ ذات الوشم، والحلق الهلالى صحن الصاج الكبير الممتلئ بماء فاتر يصعد بخاره؛ همستُ: جليلة!!

طلب المواوى المَوْرد والزنجبيل والزعفران والكافور والصندل الأبيض، وأذابها فى الماء وسمعتُ صوته يتمتم: «الحرف أصل الكلام، والعرش قائم على الحرف». . فلم أفهم.

لما تنشقتُ رائحة الطيب؛ أغمضتُ عينى وقلت: «عطر»!

رأيته يفتح سكينة ويعلّم على صدرى علامة، فاشتد روعى فقال: «لا تخف»، وشق لى صدرى فقلت «آه». فسمعتهم يرددون سلامتك.

رأيتُ قلبى المنتزع يخفق فى كفه، تسيل منه الدماء، وسمعته يهتف بى: «ها أنت ذا ترى قلبك»، حاولتِ النهوض، لكنه أوقفنى وقال: «احتفظ بسرك. فقلت: «ظمئت» فقال لهم «ارووا ظمأه».

وضع قلبى فى الإناء فطفا دمه على الماء، غسله ونظفه وكتب عليه بالقلم البسط حروفا وكلمات. ولما سألته: ماذا يكتب؟! رد على: «إنه عليم بما يعمل».

تواصل دق الدفوف وصوت الناى والمزمار، وهللت فرشات فوق النار الغجرية، وشعتْ على التلة بهجة من الجنة.

وضع فى صدرى قلبى، فانتثرت نجومى التى تتبعتها حتى آخر عمرى، وقلتُ لجدي الذى كان يلبس وزرة ملونة، ويعتمر عمامة هائلة على رأسه، وممسكا بيده الصولجان «انظر يا جدى، إنها نجومى»

لكنه لم ينظر لى وقال: «الضنى عقوبة القلب، والسفر طويل»، ثم وضع بيدى حبات التمر، وقال قبل أن يختفى وجهه: «أشبع جوعك».

هزنى «المواوى» وسألنى عن اسمى. أُخذْتُ، ونسيت اسمى. فردت الغجرية: اسمه عبد المولى. فقالَ: «المواوى» بعدت كثيرا يا عبد المولى. ووضع شمعة فى الفانوس بعد أن غسله، فعادت من جديد أنوار الفانوس الملوّنة. وقال لى: «حاذر الحجر، وقطوع السكك، خذ يمينك عند المنحنى القادم، ولسوف تصل للبلد مع طلوع النهار».

هبطتُ من إبط التلة، وسرت بين السرو والكافور، أشم فى الليل رائحة عطر، وأسمع صوت الغناء، فيما يتدفق على يمينى تيار من الماء الجارى.

عريس وعروس

نلعب كالعادة كل ضحوية :

نرسم بالحجارة على الأرض داراً، بها قاعة للنوم، وحجرة للمسافرين، ومجلس بمساند من الطوب الأخضر، مفروشة أرضه بورق الصفصاف والتوت، ونشتل حول الدار سوراً من الفروع المزهرة ونسميه الجنينة، ثم أكتب أنا على بابها بخط يدى «دار العروس».

أختى «الطاهرة» تجلب الماء من النهر بدلو مثقوب، يخر؛ فيغرق شعرها، تضحك «مديحة» بنت عمى ـ العروسة ـ التى تجلس فى الجلوة، بعد أن زججت لها أختى عينيها بالكحل، وحمّرت خديها وشفتيها بالورق الملون، تنتظر دخولى قادما من عند سور الجنينة شابكا طرفى بفتحة الثوب، عاملا جلبابى بدلة ببنطلون قصير.

صاحت أختى، وقد أشارت ناحيتى :

ـ العريس وصل.

وأطلقتْ زغرودة بصوتها النحيل فجلجلت فى الفضاء، وعلى النهر، والحقل، وحتى السماء العالية. ساعتها بدت الدنيا فى عينى كأنها الظل الذى يظلل الناس الماشين.

جلستُ أمام الدار أتأمل أختى التى أغرقتها الشمس، ورمت بظلها

على الأرض، وهى ترسم على التراب أقداما صغيرة بجسمها النحيل فى إيقاع رقصة الفرح، يتوهج وجهها بضوء شمس الضحوية، تتطوح ضفيرتها حولها، وقد شبكت فيهما زهرات بيضاء من أرض الجنينة، تغنى فى النور وكأنها تغنى لشمسها الحرة التى تزورنا كل يوم.

ـ قوم يا عريس، ادخل على عروسك.

دق قلبى وعرقت ركبنى الخجل، نهضتُ ببدنى وأنزلتُ جلبابى ودخلت من باب الدار الصغيرة، وجلستُ بجانب بنت عمى التى بدت للحظة مكسوفة. تأملت عينيها الواسعتين وشعرت كأننى أراهما لأول مرة؛ كانتا فى سواد الليل، وكانتا تضحكان.

ضحكتْ «الطاهرة» من جديد، وقد ألقت بنفسها فى بحر اللعبة، وأحسستُ كأنها هى العروسة، تعيش فرحتها الحيّة؛ فأحببت أختى أكثر من كل يوم.

أشارتْ «الطاهرة» ناحيتنا:

ـ يالله قوموا ناموا. الليلة ليلة الداخلة. هروح أجيب لكم حلقة الاتفاق.

نمنا على الأرض، تسترنا الفروع الخضراء، وتوجهت هى ناحية الحديقة، وتكورت ونفذت الحديقة من سور الليمون. كنت أعرف أن الحديقة منورة بالثمر الأصفر كمصابيح الفرح، يتخللها هواء طرى. وتكتسى أرضها بالعشب، وبالظل المنقوش ببقع شمس الضحى.

عادتْ وقد جمعت البرتقال فى الدلو.

كنا نائمين، يدى تحت رأس بنت عمى، وذراعى الأخرى على جبهتى. كانت أختى لا تزال تطلق غناءها، وتصفق بيديها.

أحاطتنا بسور من البرتقال المنوّر كالمصابيح، وقشرت واحدة، قسمتها نصفين، أعطت لى نصفا، وللعروس نصفا. كانت البرتقالة حيّة، سال منها الدم، ولوّن كف البنت الصغيرة، فصاحت:

ـ برتقال بدمه.

كان الهواء قد بدأ يطيب، ويضرب رأسى.

وكانت الشمس تنير البرتقال ما تزال، وتحوله إلى شموس صغيرة طارت من أمام عينى، فمددتُ يدى أحاول أن أمسكها؛ لكنها زاغت منى، وكنتُ أحاول النهوض لكن رأسى لم تطاوعنى، ورأيتنى أعدو على جسر النهر، تفاجئنى الملكة التى تحكى لى حكايتها جدتى، تخرج بعريها متوّجة بحبات البرتقال، تغنى غناءها الذى يصلنى مختلطا بالعطر الذى يقابلنا على السكك كلما اجتزنا البستان، مثقل الجفون لا أرى سوى رمح الملكة، ولا أسمع إلا صوت الغناء الجميل.

هيه!!.. من الذى يعدو ناحيتنا من أرض البستان؟

يأتى متسللا كذئب البراري دافعا من أمام وجهه الخشن، وعينيه اللافحتين الفروع، آتيًا ناحية دارنا الصغيرة، المخططة بالحجر.

عمى حامد! أبو «مديحة العروسة»!

كان عمى يقف على رءوسنا يمسح المكان بعينين تطقان الشرر، له شكل القط البرى بعينيه الصفراوين، وشاربه الكث الذى يغطى فمه.

كانت فخذى مكشوفة، تستلقى على فخذ البنت المكشوفة أيضا. سحبتُ يدى من تحت رأسها ووضعتها على صدرها. عندما جاءت

ضربة العصا تلسعني؛ فزعتُ وسحبتُ يدى، وانتفضنا واقفين.

ـ يا أولاد الزوانى!

وكبش ضفائر البنتين وسحبهما على تراب الجسر. جريتُ على خطى البدنين، أمد يدى صارخا:

ـ كنا بنلعب يا عمى، والله كنا بنلعب.

تركتْ يده ضفيرتى «الطاهرة»، وعندما اقتربت منى لكمنى بكلوة يده فهويتُ على رمل الجسر وقد بدأ دمى ينزف، وينسال على جانب فمى.

أحسست بطعم التراب فى حلقي، تأتيني استغاثات البنتين من على النهر، ومن أرض البستان، كنت أتمنى أن يتركها لوجه الله تعالى، وكنت أسمعنى أردد بفحمة البكاء: «كنا بنلعب يا عمى، والله كنا بنلعب».

كنت أراهم يغيبون عن عينى، وأنا أولول وحيدا، تجمع يدى ثمرات البرتقال الصغيرة، وتلقى بها للنهر ثمرة وراء ثمرة.

تسللتُ للدار، وكمنتُ خلف زكيبة القمح المركونة وراء باب قاعة الخبير. رأيتهم يتحلقون، تقترب رءوسهم من بعضها، وتشرح أياديهم وأكفهم التى لها أصابع تنتهى بأظافر، كمخالب الطير.

كان أبى كبير العائلة يجلس على دكة النورج المركونة فى الباحة، يضع عباءته الكشمير على ظهر الدكة، ويفرك بأصابعه طوبة حتى فتتها، ورمى بها ناحية شعاع الشمس، فرأيت ذراتها تتماوج، ثم تضيع. وكانت أمى تقف بالقرب من زير الماء.

أمي التى ستسعفنى وتأخذ بيدى، والتى أراها مستغيثة بخوفها، يأتيها النور من شراعة الباب، فيكشف عن جدائلها التى بدأت تشيب. أمي التى كنت أنام على فخذها عند عتبة الباب، أمام جامع «أبو حسين» أقص عليها ما قرأت من قصص الأولياء، وأحكى لها عن معجزاتهم، والتى كانت تعشق بشكل خاص قصة سيدنا «إبراهيم الدسوقى (رضوان الله عليه) والتى كانت تقول لى كل مرة، راجية: «قول يا على، عمل إيه سيدك «إبراهيم» مع التمساح؟»، وأمط رقبتى، وأعتدل مضخما صوتى الرفيع وأقص عليها: «لما خطف التمساح الصبى، جاءت أمه المذعورة لسيدنا إبراهيم الولى الطيب، فأرسل نقيبه ونادى بشاطئ البحر: «معشر التماسيح، من ابتلع الصبى فليطلع به»، فطلع التمساح ومشى معه إلى الشيخ، فأمره أن يلفظ الصبى فلفظه حيا بإذن واحد أحد، ثم قال للتمساح: مت بإذن الله، فمات». تبكى أمي وتمسح دمعتها بطرحتها، وأسمعها تهمس: «سبحان الله القادر». ثم تطبطب على ظهرى. وتتأملنى مزهوة وتقول لى: «الله يبارك فيك، ويطرح البركة من حواليك يا «على» يا ابن بطنى»!

رفس عمى الزير فكسره، وانسال الماء فى بحراية القاعة، فنهضت امرأة عمى «أم مديحة» وانشغلت بنتح الماء، وقد طأطأت رأسها، واصفر لونها.

نظر أبى لعمى وقال له:

ـ اهدأ «يا حامد» أمّال.

ـ أهدأ إزاى يا خويا؟! أنت لو شفتهم.

ـ دول عيال برده.

ـ عيال؟! أدبحها بإيدى، وأدبحه، وأتاوى رمتهم، ولا لك عليه ديّة.

أعرف أبى وقدرته على كبت عواطفه، وتلك البسمة المعلقة دومًا على شفتيه، فى الصعب، وفى الرضى.

قال لعمى:

ـ هوّن عليك يا راجل.

صمتوا لحظة جميعهم وكأنهم راحوا فى غفوة، بعدها خرج لنا من قاعة الفرن، ذلك الصوت الذى أعرفه، والذى يأتينى فى المنام، الصوت الذى علمنى الحكايا كلها قبل أن تختلط أحوال صاحبته. صوت جدتى «هانم» التى مشت فى الزمن مائة من السنين، ترقد على ظهر الفرن ملفوفة بلحافها الكالح، تغيب عنا بالأيام ثم تعود صافية الذهن تستعيد أيام طفولتها، وأيام عرسها البعيد، تنادى على جدى الذى مات فى الزمن القديم. أدخل عليها فى غبشة القاعة، وأتحسس بيدى ظهر الفرن، فإذا ما عثرتُ عليها؛ أمسكتُ بكيس من العظام.

ـ ستى.

ـ مين؟.

ـ أنا «على».

ـ «على»؟ «على» مين؟!

وتغيب عنى، وتألف عيناى الظلام، وأراها تطويها السنين تتطلع ناحيتى بعينين تبرقان، صغيرة فى حجم عيّل صغير، وقد انطوت فى نفسها.

خرج صوتها للرجال فى الباحة .

ـ طاهرهم يا «سليم» ، طاهرهم يا بنى . . طاهر البنت تبرد .

هم أبى وهمس لنفسه :

ـ الختان !

عبرت الكلمة من عندهم حتى مخبئى فلم أفهم .

نادوا «خالد» حلاق الصحة .

خرجت من الدار أم «مديحة» ولمحتها على العتبة تلتفت ناحية البنتين المقيدتين بحبل التيل ، والملقاتين على باب الزريبة كومتين من متاع قديم ، مهمل وخارج الحسبان .

«خالد» حلاّق الصحة يقرع الباب بمقرعته التى على شكل كف اليد المطبقة ، يتنحنح ويدفع الباب داخلا ، قائلا «يا ساتر» . يرى أبى جالسا على دكة النورج ، وأمى واقفة بجانب الجدار لا تزال ، وعمى ينف من منخريه الغضب .

ـ خير؟ أم «مديحة» قالت لى . . .

قالها «خالد» وجلس بجوار أبى .

شوّح عمى «حامد» بيده فى وجه الرجل وصاح :

ـ قوم يا أسطى «خالد» ، شوف شغلك .

وضع الأسطى «خالد» على حمّالة الزير حقيبة من الكاكى الكالح ، تلتمع بنقط الزيت ، مقفولة بسحّابة نحاسية مطموسة . رأيته يخرج الموسى ويفتحه فيلمع فى شعاع الشمس ، ثم يدس يده ويخرج مسنا

ينقط عليه نقطا من الزيت . يبدأ فى شحذ الموسى شحذات باردة، وناعمة تنفذ فى التراب، والجدران، والفراغ فى الباحة، فى الأبدان الحيّة، المتوترة، ترتفع مع عمود العفرة الذى يزوبع بزوبعة صغيرة دائخة فى ساحة الحارة. الموسى يسن على بدنى فيقشعر جلدى، وتضنينى شهقات البنتين، أنا أسير الجحر الذى ألبد بداخله .

ماءت قطة الدار مواء متضرعا ذليلا فهشتها الخالة «نور» التى حضرت على عجل :

ـ بِسْ، الله يلعنك!

مرقت القطة مرفوعة الذيل، متسلقة جدار الدار إلى السطوح .

أشار أبى إلى عمى فحملا البنتين وألقيا بهما على دكة النورج، وانتزعا عنهما سرواليهما .

تفزعان . عصفورتان فى القفص . تمدان الأكف كالمستغيثات، تشهقان، وتدفق عيونهم الدموع .

ـ لا والنبى يا به! حرّمت .

أختى . . توأمى . . «الطاهرة» . . كفى فى كفها، وقدماها علامة الفرح على السكة، وفى حضرتها أرى الملكة .

شُدت أفخاذ البنتين، ورأيتُ ما لا يرى، فأغمضتُ عينى . نظرتُ وعرفت، وخفتُ أن أصرخ : «بظران» كلسانى عصفورين . صغيران، شاحبان، ينامان على مخدة من لحم قلبى . أنشطر وأصبح عيالا كثيرين يتخبطون فى السكك المسدودة، وأشعر بغثيان يصعد من بطني، فيملأ

خياشيمي برائحة الدم الآدمى المختلطة برائحة الشيح والبخور، وعرق الرجال فى باحة الدار.

رفعتُ وجهى وقد أظلم للحظة، كأننى قد أصابتنى الدوخة، وكانت كل الأبواب أمامى مسدودة إلا من باب ورواءه ضوء للنهار، يأتينى صوت أبى «فين الولد؟! هاتو الولد» كان إحساس غير صاف بالمهانة يضخ فى دمى، وكأن أحدهم يمضغ لحمى ويبتسم.

كدتُ أقع، فتساندت على زكيبة القمح.

راحتْ الضحوية، وغابت البنات عن عينى، وغابت الملكة.

هل أمد يدى وأجمع البرتقال، وألقى به للملكة الغائبة؟!

كأنما الدنيا تظلم أمامى، وأنا أخرج من الباب الذى وراءه ألق النهار، أتأمل الكف التى تأتى ناحيتى فتنتزع خصيتيَّ اللتين أراهما موصولتين بشرايينى، فأصرخ صرخة اختلطتْ بصرخات أختيّ، اللتين ينبثق من جرحهما الدم من كتمة البن فى سواد النيلة ملطخا قاعة المعاش.. سنين جدتى، شارب عمى.. دكة الطهور.. هامة أبى. دموع أمى التى تحولت لدم. أجدنى وقد دارت بى الدنيا فوقعتُ على الأرض فى هبدة لا أملك لها ردًا. يأتينى صوت أمى من الحلم.. من بحر الدم:

ـ «على» اسم النبى حارسك وصاينك! الحق يا أبو «على» الولد سورق.

قصاص الأثر

من سنين عدة والمسرات قليلة فى هذه الأنحاء.

فذاكرتى المشوشة لم تعد تعى أننى ضحكت من قلبى طوال تلك السنين، فمنذ ارتفع نجم اللوطى، والجزار، ومالك العقار، وراقصة الملهى، وكاتب السيرة، والمؤرخ الكذاب، والبانكير فى سماء الوطن السعيد، تأكدتُ من تغير الأحوال وقلتُ فى نفسى: انتبه عليك بالبحث عن الشيء المغاير.

على أى الأحوال - وبرغم الحزن المقيم - اندفعتُ أمارس هواية غريبة، ومثيرة للضحك والدهشة، تتلخص فى: نقش التواريخ على قطع الخشب القديم، الذى عليك لكى تحبه، أن تضحى بزمنك الذى أنت فيه وتفتح قلبك لتحادث السنين.

وكنتُ ألبد متخفيا حتى تخف الرِّجْل وتهمد، ولا تبقى سوى مصابيح قليلة مضاءة أمام البيوت، فأخرج من مكمنى محاذرا وأتسلق الجدران وأنتزع قطع الخشب من الواجهات التى أكون قد عاينتها سابقا، وأعود بها حيث أعيش، فإذا ما فتحتُ باب مسكنى. ودخلت، جاءتنى رائحة زمن محبوس، مختلطة برائحة ما جمعتُ من أشياء حية لا تندثر.

وكنت أسحب دكة قديمة بشكل يثير الرثاء، لها أرجل قصيرة

مزخرفة بنجمات سباعية، تحوطها زهرات متصلة بفروع ممتدة وأكون قد شغلت «فينوغراف» عتيقا رُكبت عليه إسطوانة مشروخة معبأة بغناء تركى يشدو بتلك «الأمانات» التى تضنينى إلى حد البكاء، وأظل أتأمل الصوت وأتساءل عن معنى الحنين المكتمل، وعن الشموس التى أشرقت ولكنها مضت.

تدق الساعة العتيقة فى فراغ الصالة دقة واحدة، فأنظر ناحيتها ولا أعرف أن كانت الساعة منضبطة، أم أنه اختلاط الأزمنة وزحمة الوقت، وأمضى ليلتى غارقا فى نشوة تُنمّل جسدى محاولا أن أتحرر منها؛ خوفا من الرعب الذى سرعان ما يحل بقلبى بعد أن تفارقه نشوته.

يدركنى الصباح فأسمع صوت القطار المفارق، وأرى فى السماء سحبًا، وأتهيأ للنوم ممنيا النفس بحلم قديم.

فى الليل أصعد الجبل، وأرى الحى القديم غافيا بحضنه، فأنزل إلى الشعاب التى تفضى لشعاب أخرى، فإذا ما سرت فيها؛ رأيت جامع السلطان بقربه شحاذون يرقبون على مبعدة ظل الحرس الواقفين تحت المصابيح.

وفيما كنت أخطو متمهلا فى تجوالى، متوغلا بغير إرادة منى؛ قابلنى المعلم المجاور، وامرأة عَجلَى، وفاتح الكتاب، ورئيس العسس.

أفعمتنى رائحة البخور، ومشيت على حقول الزنجبيل التى طرقها موشومة بحصباء ملونة.

ومنذ عرفتُ أنه لا يدوم سوى وجه الله؛ تأكدتُ أيضًا أن لا شىء

يضيع، خاصة فى هذا الليل الذى بلغ ثلثه الأخير، وأنا واقف أمام أحد أبوابه القديمة بالقرب من المصباح الذى سينير لى ما سوف أنتزعه. نظرتُ بصادق الودّ عبر الحارة وهتفتُ طالبا الستر.

وعندما تسلقتُ السور وانتزعتُ من المشربية نجمة الخشب «عصلج» المسمار وصرخ، ولا أعرف لماذا أطلت امرأة من نافذة بيتها وصرخت «حرامى» وأدهشتنى السرعة التى تجمع بها الناس.

وكنتُ أنظر إليهم وأنا معلق بين دار الله فى السماء، وبين الأرض التى أنبتت كل هذه الخلائق، وسمعتهم يصرخون فىَّ «انزل يا حرامى»!

ونزلتُ زاحفا على الجدار بجسدى، محتكا بالنتوءات البارزة التى كانت تدفعنى فى صدرى من غير رحمة، وأنا الذى أحبها بكل أيامى.

ما إن هبطتُ على الأرض حتى ركلنى أحدهم فى جهازى فانحنيتُ. وبغير وعى منى قبضت عليه بيدى وقلت «آه»، ورفسنى آخر فى وجهى بقدم عارية فسمعت صوت تكسر عظام، وزعق قلبى من الألم، وبرقتْ دوائر من النور أمام عينى، بعدها هوت علىَّ الضربات من الأيدى المدربة، لا أعرف ـ وهم يضربوننى ـ لِمَ تذكرت أمى التى ماتت وشُبِّهَ لى أننى أسمع صوتها؟!

زفونى من الزقاق صائحين، تأتينى أصواتهم مع صفير أذنى، وسمعتُ رجلا يتكلم عن الشرطة والقسم القريب، ولما سألتهم «لماذا تضربوننى»؟! نظروا ناحيتى بعداء وصرخوا فى وجهى «مدْ يا حرامى»، ورأيتهم ينحرفون ناحية الزقاق المكتسى بالظلام، خارجين إلى الميدان الواسع، ورأيت بابا يفتح ويطل منه عجوز أشيب الشعر

يرتدى قفطانا من الشاهى ويقف مستندا على الباب، ولما سألهم: ماله؟! ردوا عليه «حرامى يا عم». هز رأسه وابتسم، وسمعته يتمتم «حرامى!»، ما الذى يريد أن يسرقه؟! لم يعد ما يسرق لقد أخذوا كل شىء، ووجدته يعود إلى الطبلية الواطئة، التى تستقر فوقها مكواة بيد طويلة، مضى زمانها، وبينما كنت أبتعد؛ كنت أسمع دقات المكواة فى الليل لها صدى.

فى الميدان شريط لترام بَطُلَ استخدامه، وضريح لستِّ المقام. على الرصيف ينام قرويون مستندين إلى زوّادَات مدفوسة داخل مقاطف وأسبتة من غاب.

القسم بناء قديم أسّسه خديو مات ودفن بمدافن الإمام. شدتنى صورة الملاك المفارق واللوحة الجدارية، وخط النسخ المستقيم. لم أكن مطمئنا، وكلما نظرت إلى خط الدم المنساب من أنفى؛ ضاعت ثقتى، وقلت للذى يقبض على يدى، «انظر.. الملاك»، لكنه هتف بى «اخرس يا لص»!

صعدنا درجات السلم الثمانى، وتحت مصباح رأيت دمى على صدرى، وقميصى الممزق الذى يثير الشفقة.

قصُّوا على الضابط حكايتى فلطمنى على و جهى، وصرخ يسألنى: عن اسمى وعنوانى ومهنتى؛ رد عليه آخر «حرامى يا بيه». ولما صمتُ لطمنى لطمة أخرى، وقال لى «رد يا ابن الكلب»!.

مسحتُ نظارتى المضببة، وتأملت وجهه الذى ذكرنى بوجوه الحلاليف بمعلف المقطم، فابتسمتُ، ونظرتُ إليه فلطمنى وصرخ فى وجهى «يا فاجر»! قلت له: «لا شىء يضيع، وإن ما يبدو له ميتا هو

حى بدرجة مروعة». لما اندهش مما قلته؛ هز رأسه غير فاهم، كلمته عن الطواويس، والنار الفارسية وحروف النسخ، ورائحة الزمن المحبوس.

لما انتهيتُ؛ مصمص شفتيه وسمعته يهمس لنفسه «شيء محزن» ووضع يده على كتفى وصرف الناس الذين لا يفهمون.

أجلسنى الضابط وطلب لى شايا ومسح عن وجهى الدم. صرفنى بعد قليل محذرا، ولما وصلتُ إلى الباب سمعت رفيقه يسأله «إلى أين»؟ رد عليه باقتضاب إلى المصح.. ملعون أبوه.. العالم اتجنت.

خرجت للشارع فآثر النور أن يطلع، وحينما نظرتُ للشرق قلت: «لعلها تمطر». بعد حادث القسم استعضتُ عن تسلق الجدران بالمرور على محلات التحف القديمة.

كان شارع «هدى شعراوى» الأثير لدىَّ.. بيوته ذات الطراز الواحد، ومسجده الفاطمى ذو الإيوان الواسع، والقبة الهائلة التى تواجه أبراج كنيسة «الإخوة»، التى تقرع أجراسها بذلك الصوت الجليل.

كنتُ أقف أمام واجهات العرض مفتونا بما أرى. أحصيتُ عدد المحلات، وعرفتُ أهم ما فيها من قطع. أرجعت كل قطعة إلى زمانها وطرازها. صادقت أصحاب المحال وجالستهم، وسمحوا لى بتصوير ما أردت، وحفظته مصورا بشقتى مع قطع الخشب والإسطوانات المشروخة والكتب الصفراء.

ولما تحولتْ معارض التحف إلى بنك ومطعم وجراج، ومعارض لبيع السيارات ماركة «فورد» و «بويك»، وشركات سياحية؛ نصحنى أحد التجار وقال لى: «عليك بالمزادات».

وبرغم فقرى المزمن حرصتُ على حضور تلك المزادات بعد أن عرفت عناوين صالاتها، والأحياء التى تقع فيها، وتتبعت تواريخ البيع بهوس وانقطاع، وملأتُ حافظتى بإعلانات الصحف التى تحتوى أسماء ما يعرض.

هدفى اليوم، ڤيلا «بجاردن سيتى» كنتُ قد قرأتُ عنها فى «أهرام» الأمس. رأيت النيل وتذكرت ماءه المخضر وقلت «الحزين» وكلما اقتربت من الڤيلا؛ تفتح عقلى وامتلأ قلبى بنشوة السير فى الهواء، ولخوفى من أن أفقد نشوتى غنيت أبياتا من الشعر، وتأملتُ الصبايا اللواتى يسرن على الشط فى ملابس وشرائط ملونة.. سألتهن: «للمزاد»؟» فانفجرن ضاحكات من هيأتى الغريبة ومنظرى المشوش.

قابلنى معلم اللاهوت عند منحنى الشارع. رأيته يقف تحت الشجرة، يضع تحت إبطه كتابا بحجم كبير، ناظرا للضفة الأخرى من النهر، يلبس مسوحه الأسود، ويتدلى على صدره صليب من الخشب، بيده الأخرى مسبحة من كهرمان أصفر، وكلما اقتربت منه؛ اتضحت ملامحه، وارتسمت على شفتيه بسمة راضية.

وقفتُ أمامه، فقال لى: «إلى أين»؟ فقلت: «للمزاد يا أبى». ابتسم لما ناديته بأبى وأخذنى من كفى، فتسللتْ إلىَّ برودة الموتى وقلت: «شاخ» فقال لى مبتسما! «هل قلت شيئًا؟»: فهززتُ رأسى نافيا، ونظرتُ فى عينيه فجست بين الصوامع، وأسرتنى المجرات، ورأيت أجسادهم المرهفة، والعجفاء تنتظر وسط تراتيل من ألوف السنين، أحسستُ بقيام القيامة، وأننى أسير فوق أرض غير محترقة، ناظرا إلى المدينة من ذلك العلو البهيج.

قلت له: «لكم هرمت يا أبى»؟ ابتسم وانحنى على أذنى، قال:

«سنوات العيش فى الدير»، وأدهشنى عندما فتح صدريته وكشف لى عن صدره؛ حيث رأيت وشمًا لسيدة رائعة الجمال، قلت له: «إننى لا أفهم»! فرد علىَّ: «عليك بالمثابرة». فكلمته عن المستحيل، وقرع الأبواب الموصدة، ودموع الملعونين وشرحتُ له دائى الذى لا شفاء منه.

تركته يزرر صدريته وينظر تجاه النيل، خُيِّل إلىَّ أننى سمعته يصدر صوتا كالبكاء.

آن لى أن أستجمع نفسى، وأحثّ الخطى؛ فلقد اقترب الموعد.

ڤيلا ببوابة من حديد أسود، مشغولة بحراب لها رءوس مدببة، تتوسط سورا من حجر منحوت، موشحا بأزهار الياسمين، ومبرقشة بألوان تتضوع روائحها عبر الليل، وعلى الممشى المبلط المرسوم عليه دوائر ونجمات بنية وسوداء من الفسيفساء اللامعة ـ أشجار محملة ببرتقال لم ينضج بعد، يستقر تحت الشجر ـ على أرض الحديقة ـ تمثال من رخام وردى لغادة هيفاء، تعزف على قيثارة وتنتمى للجوارى المغنيات، برقبتها ورقة معلقة بإشارة البيع. نخلتان من فضة تتدلى منهما بلحات تنير، وتستقران على أول درج صالة المزاد.

سمعتُ عزف قانون، وضرب على مفاتيح بيانو صافية.

قرأت على واجهة الباب: «انظر قبل أن تبدو البدايات».

نظرتُ وتمنعتُ ووضعتُ يدى على قلبى الواجف، وتحسستُ ما بجيبى من قروش. صعدتُ درجتين فقرأت: «لو كشفت عن وصف النعيم، أذهبتك بالكشف عن الوصف».

هل أحيا الأيام التى خلت؟! هل أسبح فى أزمان من لؤلؤ؟ (غايتى

أن أستحوذ على زمن يضيع)، وهل يظل قلبى مشغولا بما فات، أسيرا لظنى الثابت؟!

دخلتُ باب الڤيلا؛ فأدهشنى ما رأيت:

خليط من البشر فى ملابس موحدة. يرتدى الرجال ملابس السهرة السوداء، وتتجلى النسوة فى فساتين مفتوحة الصدور، تلمع فوقها حلى بارقة فى نور الصالة المتوهج.

عندما دخلت؛ حدجونى بنظرات مستريبة وصمتوا، لكنهم سرعان ما واصلوا حديثهم.

كأننى أعرفهم. رأيتهم من قبل. تلك السِّحن والملامح المشتركة، والبسمة الواحدة، الغامضة، ربما رأيتهم فى الرسوم، فى أحد مراسيم التأبين. رأيتهم يبتسمون بمكر، ويشيرون ناحيتى. انشغلت عنهم بما فوق الجدران من صور، وبما على الرفوف من تحف.

مزهريات صينية، ولوحات فى أطر قديمة من عصور خلت. شمعدانات وأثاث قديم مكدس بجانب الجدران. قناديل الزيت التى أضاءت القصور عبر فوات السنين تشع الآن فى منح النور وتبدو كما لو كانت داخل موكب جنائزى عريق.

صعد المنادى وضرب بمطرقة على طاولة، وبدأ فتح المزاد من خلال مكبر صغير للصوت:

ـ اثنان «ڤاز سيڤر» نابليون، مرسوم عليها سيدة بيدها سنبلة من الذهب ولها فروع من الفضة: من قال ألفا؟

ـ ألف ومائة.

ـ ألف وخمسمائة .

ـ ألفان . كل «ڤار» بألف .

رد المنادى :

ـ ألفان . . من يزيد . . ألفان! . . يا بلاش! . . حاجة زمان ألا أونا . . ألا دو . . ألا ترى .

حل الصمت، ورست الڤازتان على آخر المزايدين .

ـ صالون «أبيسون فرنسى لويكانز»، مرسوم بصور زمان، ومعه «ترابيزة ستيل» معشقة بالفضة زمن لويس السادس عشر . من قال أربعة آلاف؟

ـ أربعة آلاف وخمسمائة .

ـ خمسة آلاف .

ـ ستة .

رد المنادى :

ـ ستة آلاف . . ستة آلاف! . . يا بلاش! . . مبروك . وتوالت التحف المعروضة فى النور، وهجمت الأزمان واختلطت . سجاجيد كاشان وشينواه وأصفهان وظل السلطان . سجادة مدوّرة طولياف، ومستطيلة إبريز بخيط ذهب، وصورة لطاووس فارسى، فاردا ريشه بالقرب من نافورة ماء ملون . اثنان من عبيد ڤينيس أسودان بعيون بارقة . لوحة يابانية برسم ساق شجرة بالخرز الغالى، وزهور لها تيجان إمبراطورية . تابلوه قديم لرسام مجهول بالباستيل لقلعة على البحر فى مواجهة سفينة بشراع راحلة فى موج عال . شمعدان ونجفة أوسر خان

طراز تكرى نوّرت صالات رقص السلاطين، وتطوحت فى نوره الجوارى المغنيات. مرآة ببرواز أرابيسك من خشب الورد مطعمة بعاج وصدف بحار الصين. تمثال لبوذا شينواه يجلس على كرسى حكمته ويبتسم. لوحة متر × متر رسمها فنان كان يعيش فى الإسكندرية منتصف القرن الماضى «ألفان!.. يا بلاش!.. الإطار وحده بهذ السعر.. نظرة للون الرصين وعراقة القديم». صورة لصوفى يعتمر وزرة من الجوخ تحدق وسط وجه مكدود عينان تشعان بألق من حريق. صورة بالأسود الشينى للمسجد الأقصى يطير فوقه طائر شبيه بالعقاب وقد نشر جناحيه وسقط ظله الأسود على ا لقبة.

أبعد الدلاّل الميكروفون عن فمه وسكت. نظر إلى الناس، فصمت الهمس وسكتت الأصوات المختلطة:

ـ مفاجأة المزاد. إرث الجدود للحفدة.

دفع صندوقا وأخرج منه «مشكاة» مسلسلة بسلاسل من فضة بيضاء تنتهى بمشبك، بجانبها الأيسر فصان من زفير نجمى، والأيمن مسطر ومكفت بفصوص ثلاثية من عقيق وزمرد وفيروز، وفوق الكتابة يستقر حجر كريم ضوى كنجم عندما واجه النور.

قرأتُ السطر الأول: «اعرفنى معرفة اليقين».

دق قلبى، وزاغ منى البصر، وتفصد عرقى، كأننى أقترب من تخوم الحلم، وتنتهى وحدتى عند الأطلال الحيَّة، وأدرك آخر المطاف أن لا شىء يضيع، لا شىء يذهب.

ـ مشكاة من نور أضاءت الليالى المنقضية، ونوّرت قصور

السلاطين، ومخادع حسان الكتب المؤجلة، وخيام فرسان الفتوح، وخانات الوراقين. من قال بعشرة آلاف؟

بدأ المزاد فى الذروة، وأخذ المزايدون على غرة، فانعقدتْ ألسنتهم بالخرس، وسمعتُ عزف القانون بالنغم المغربى، وتوسدتُ حشايا الحرير وأنا أنظر عبر المشكاة التى تضوى من غير زيت. تحسستُ جيبى، ولعنت أيامى، ثم تمالكتُ نفسى وخرج صوتى مترددا أول الأمر:

ـ على باثنى عشر.

ارتفعتْ همهمة، وبرز واحد من المزايدين بفودين أشيبين، يطوق عنقه بسلسلة تنتهى بقلادة زرقاء برسم لوجه ساحرة، ابتسم لى وقال:

ـ على بخمسة عشر.

ـ على بسبعة عشر.

صاحت امرأة عارية الصدر.

ـ مذبحة.

ـ التحفة تساوى.

صحتُ بالصوت الواثق:

ـ على بعشرين ألفا.

رسا المزاد على العبد الفقير، وسمعتُ امرأة تهمس لأخرى:

ـ سمسمار لأحد الأغنياء.

طلب الدلاَّل منى الدفعة المقدمة، فأمهلته حتى أحرر الشيك. جلستُ على فوتيه فى الركن وانتظرت.

انفض المزاد آخر الليل، ووجدتنى وحدى وصاحب المزاد والدلاَّل وحرَّاس الصالة.

ولما قال لى الدلاَّل: «أين الشيك؟» قلت: «أى شيك؟»! اتسعت عيناه واستغرب، ورد حانقا: «شيك المشكاة». ونظر صاحب الصالة، وهمس فى أذنه «نصاب»، فرد عليه الرجل «أو مجنون»، ثم صمت وعاد يقول: «ضيّع علينا فرصة. احبسوه فى مخزن التحف، والنهار سلموه للبوليس».

ولما حُبستْ نفسى فى العتمة الخفيفة، وجلستُ بين مخلوقات الله فى وفاق مشبوب بالضنى، قلت: «لا وقت أبعد من وقت. وللزمان حلول فى الزمان»، وتساءلت: عن مدى ارتباطي بتلك الأشياء المكدسة؟ وسمعتُ صوت الأذان ولم أكن غفوتُ، كنتُ أجلس على سجادة، يمنحنى المولى كبرياءه فيما أسمع عزف القانون بالنغم المغربى، وأرى راقصة من البورسلين تخرج من بين التحف وتهتز على ضرب القانون. حدقتُ فى السقف الذى أضاء فجأة، ورأيت المشكاة تنيره تقطع سقف المكان فى دورات نورانيه، تنير من غير ما زيت، فى استحكام النغم، تكشف عن رجل نحيل يخطو على أرض من رمال وينظر؛ حيث الشمس التى تذهب مع شموس أخرى غاربة، وكأنه السندباد المصنوع من الجص الملون، وقد أقلع بسفينته إلى بلاد جاوة البعيدة، مخلّفًا شطوطا من الدهشة مزروعة بالسندس والزعفران فى تجربة عالية الضراوة، حيث كانت رحلته هذه حينما قصها، قد أثارت حفنة الأدعياء فقراء الخيال الذين بدوا ليعينيه أضحوكة دائمة؛ لأنهم لم

يستطيعوا أن يفهموه، وأنه من آخر سلالة من أصحاب البصائر الذين يعيشون على الحلم. فعلى قدر ما أفهمهم أن العالم ليس بواحد، وأنه برغم استدارته، عوالم كثيرة، وأن البدايات لها فى آخر المطاف نهايات، وأنه ـ أى السندباد ـ قادر على ركوب السفن والخوض فى البحار والتحديق فى الشمس حتى لو كانت غاربة؛ ليرى على البعد، المدن الفارسية، والقباب المملوكية ويسمع أسماء بخارى وسمرقند، حتى بدا لنفسه وللآخرين وكأنه ولطول ما عاش غدا من قصاصى الأثر التليدين، القدماء.

الشرير والجبل

«وآخرتها؟»!

وسمعتنى أقولها وأنا أفزع من عز المنام، كأنها وخزة الوقت الداخلى التى تحدث فجأة، ملازمة لدقات الساعة المعلقة على الجدار يعلو رنينها فى الجنبات، فتنهض.

انتبهت.

«ثمة أشياء تخصك تحدث من حولك، ولأنها شريرة بدرجة تثير الفزع تظن أنها من تدبير الشيطان».

نهضت، وأنا أشعر بزمتة العصر المشبعة بالرطوبة الثقيلة، وعفار الجبل، أمسح عرقى بكفى وأنظر من نافذة حجرة النوم إلى حيث جسم «الهويس» الذى أشرف على إنشائه، رابضا كان وصامتا، وعائد حفره تلة من الرمال على الجانبين، والرِّجل لم تبدأ الدب على الأرض بعد، فى يوم العطلة هذا.

تأملت أثاث منزلى المؤقت؛ أقيم دائما فى بيوت مؤقتة، مقامة بالقرب من تخوم الصحارى حيث تبدأ مشاريع الرى من عند فم الترع، وتنتهى داخل الرمال البعيدة. مكتبى بجوار النافذة. كتب على الرف، وعلى الأرض. كراسى من جريد هنا، وفى الشرفة التى تطل على

الطريق الترابى المسور بالكافور. خريطة على الحائط لموقع المشروع، ورسم لجسم «الهويس». عدد من القلل تبرد على السور، وشجرة رمان بحديقة عجوز، غبراء، وخالية من الثمر.

«وأخرتها مع ابن المعتوهة ده؟»!

مسحت على جبهتى مقاوما دوار رأسى، وضغطت أسنانى بغيظ من لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الشر، وتساءلت: ما الذى أستطيعه أنا المعتزل عند «هاويس» تحت الإنشاء، حتى أدفع ما يحدث لى؟! كيف أقدر على معرفة دوافع الآخرين نحوى؟ أنا الذى أضنته مشاعره الطيبة نحوهم، هؤلاء الذين تطوى ضمائرهم على ضغائن توجه فى كل الأحوال «ضدك»!.

بدأ الأمر من أوله كنكته سخيفة.

من أسبوع كنت أخذت العربة من عند موقع «الهويس» متوجها للمدينة؛ حيث المركز الرئيسى للشركة. كنت أجلس وراء مقود السيارة، أضغط على دواسة البنزين محاولا التخلص من الانشغال الدائم فى هذا المشروع الذى لن ينتهى. عندما وصلت الأسفلت؛ اتجهت يسارا مضاعفا السرعة.

وصلت منطقة السوق بالمدينة. كانت مزدحمة بالناس، و خضار أرض الجبل وفاكهته تملأ الشوادر، تقف سيارات النقل خلف بعضها فى انتظار الدور، وأصوات المزايدين تختلط بغبرة الشارع، وصهيل الأفراس وصهد الضحى.

لمحته يقف وسط جمع من الناس، فى ملابس رثة، كاكية، مبتور الرِّجل من عند الفخذ، يستند على عكاز، ويشبك فى كتفه عددا من

فخاخ الصيد المسننة، المصنوعة من الصلب. كان يفتح فمه ويغلقه فى حماس. بدا لى فى حالة عصبية، ينسى نفسه فيرفع عكازه ويطوح به فى الهواء، ثم يصلصل بفخاخ الصيد أعلى رءوس الجمع المحتشد حوله.

لما رآنى اخترق الناس واتجه ناحيتى، قافزاً على رجله الواحدة مطوحًا عكازه فى الهواء. وقف أمام باب السيارة يحدجنى طويلا بنظرة ثابتة. تأملت عينيه، لم يكونا عينى عاقل، بل عينا إنسان مختل، وعندما اقترب أكثر؛ انبعثت منه رائحة كالرماد، ورائحة تبغ قديم زاعق. كان وجهه مليئا بالحفر، يشع صفرة مخضرة كالريم.

رأيته يرفع عكازه محاولا إدخاله من نافذة السيارة؛ ليدفع به فى صدرى صائحا:

«طول بالك علىّ. إن ما كانت نهايتك على إيدى»!

صلصل بالفخاخ، ثم تكلم عن بنته ذات الجدائل الليلية، والغناء السحرى، والبحر الذى يطل من عينيها، والتى تتكلم بمختلف اللسان، والتى ضاعت منه، واختفت فى الجبل. أشار ناحيتى، ووجَّه كلامه لجمع الناس المحتشد:

«هو ده.. هو.. ده»!

اشتد صخبهم، وحاولت فتح الباب والنزول إليه، لكنه كان قد سحب عكازه ووضعه تحت إبطه، وأخذ يعرج كالغراب حتى اختفى فى زحمة السوق.

هبَّت الريح آتية من الجبل محملة بالرمال، وأحسست بالضيق. ينظر الناس ناحيتى باتهام صريح. لم أكن قادرا على فهم ما يحدث

أمامى، وبدا لى الأمر غير مفهوم على نحو ما، وحتى أتخلص من حيرتى؛ ركبت «الجيب» واتجهت ناحية الشركة. دخلت من بابها الخارجى. صعدت السلالم إلى القسم الهندسى ورأيت زملاء القسم يرفعون رءوسهم ناحيتى، ثم يتأملوننى لحظة، ثم ينشغلون عنى بتأمل أوراقهم. كانت تشيع بالمكان حالة غير طبيعية، وإحساس بالارتباك يشمل الجميع.

«صباح الخير».

جاء الرد مختلطا، غير واضح، همهمات متقطعة على نحو سريع، وانشغال بالعمل عن النظر إلىَّ.

سحبت الكرسى وجلست بجوار السكرتير.

قلت له:

«فيه إيه؟»!

«ولا حاجة»!

«مالكم؟».

تردد للحظة، وخبط بالقلم زجاج المكتب، ونظر ناحيتى من تحت نظارته، وقال:

«أصل...».

«أصل أيه؟..»!

«الراجل أبو رجل مقطوعة».

«تأتى على غير انتظار، اندفاعة الدم إلى شريان القلب فينتفض. تعيش حالة غير حقيقية على نحو مريب» قلت:

«ماله ده؟»!

«مش جه هنا، وعمل شوشرة ودخل للمدير».

«ليه؟»!

«بيقول كلام كثير. كلام غامض، وغير مفهوم. بيتكلم عنك وعن بنت له. إيه الحكاية؟».

«حكاية إيه؟! أنا عمرى ما شفت الجدع ده هو بيشتغل إيه؟».

«بيقول إنه صياد».

سكت لحظة، ونظر ناحيتى ثم قال:

«هو ماسك فيك كده ليه؟! ده حتى لما خرج من عند المدير، شفناه وهو بيطبطب عليه وسمعناه يقول له على الباب: اطمئن كل حاجة هتتصلح، وحقك هتاخده».

انشغل عنى السكرتير، وبدا لى ما يحدث الآن أكثر غموضاً بدرجة تثير المخاوف، وأحسست أن ثمة أشخاصاً يحيكون لى فى الخفاء ما يجعلنى أكره حياتى.

فكرت فى الرجل الأبتر الذى يتعكز على عكازه، ويحمل على أكتافه فخاخ الصيد، وحاولت ـ هنا وأنا جالس، وبتركيز شديد ـ أن أفتش عنه فى ذاكرتى؛ ربما قابلته صدفه، أو رأيته فى الحلم إلا أننى لم أستطع أن أهتدى إلى ذلك.

نهضت من غير استئذان، وغادرت مقر الشركة.

اقتحمت «الجيب» الجبل الذى بدا مقفرا، وخاليا من الونس، وراحت الخضرة القليلة التى تشم وجه الأرض تقل، وتترى بحور الرمال، وهبات الهواء الفجائية تدور بالعشب الجاف. السيارة تتفادى المنحدر وتعطى ظهرها للفراغ العكر، وتستلم طريق الترعة.

فيما بعد، رأيته ينأى فى ضباب الصبح غير مرئى بدرجة كافية، مسربلا بالشبورة، وعيدان البوص، يشير ناحيتى، بعكازه، ثم سرعان ما يختفى عن عينى.

حاولت التفاهم معه وسؤاله عما يريد، لكنه كان يسارع بالاختفاء بعد أن يكون قد استفز الناس بلا خجل، ناطقا اسمى، متكلما عن بنته التى اختفت فى الجبل، ذات الجدائل الليلية، والصوت السحرى، والبحر الذى يطل من عينها، والتى تتكلم بمختلف اللسان.

من يومين كنت فى موقع العمل، وجسم «الهويس» يندك فى الجبل، تتوسطه بوابة من الحديد، أعلاها ترسان لفتحها، والعمال يصعدون من الحفر كالنمل، وديناصور هائل يدفس كفه فى الرمل ملقيا به على الجبل.

كان يقف هناك، على القمة، بشاربه المهوش، وبذلته الكاكية، تنبعث منه رائحة الرماد، وتطل من خضرة الريم الابتسامة الغامضة، يركن كتفه على عكازه المدفوس فى الرمل، وتطوح الريح برِجل بنطلونه الخالية من اللحم والعظم.

قفزت أصعد الرمال مستعينا بيدى، محاولا اللحاق بالرَّجل الذى تطوح الريح بشعره الطويل الأشعث. رأيته ينسحب ويهبط خلف

الكثبان، وأنا أقف على قمة الجبل أتأمل الفراغ؛ حيث لا صريِّخ ابن يومين!

خيط من دخان، مأوى تحت تعريشة تسكنه قطط ضالة. شمس تخرج من جلباب الليل كل طلعة نهار، وأنا أبدو كالتائه الذى تسقط فى عروقه قطرات من ماء النار.

الرجل المبتور، والفخاخ المعلقة، وكل هؤلاء الذين أعرفهم، الذين أمتلك لهم محبة خاصة، قلت: «سرعان ما سيتعب صاحب هذه النكتة السخيفة».

«ما هذا الذى يحدث لى؟»!

«فى المكان البعيد عن العمار، بين المدينة المكتظة، والجبل المتوحد».

نهضت من فوق السرير تعبا. كان الليل يوشك أن يجىء.

عملت لنفسى شايا، وعصرت ملابسى المغسولة، وطلعت للشرفة أنشرها على حبل الغسيل. تطلعت فوجدته عند تعريشة الخشب بالقرب من ماكينة المياه. عندما رآنى فى الشرفة؛ صلصل بالفخاخ، ثم سبَّنى وسب آبائى أولاد الزوانى اللصوص، الذين أوجدونى فى هذه القحبة، ثم تحرك يظلع حتى اختفى فى غيط التين.

حيرتنى الفخاخ المعلقة فى كتفه، وأدركت أنها مجهزة لجريمة، وعزمت أن أتوجه للشركة فى الصباح لاستدعاء حارس.

وجدته قرب سور البيت، وقد ركن عكازه وكأنه ينصب شيئا حول السور. شعرت باشمئزاز وتيقنت أنه اقترب أكثر مما يجب، وأنه يحاول على نحو ما أن يصل لعمق دارى.

صرخت :

«استنى عندك . . بتعمل إيه؟»!

رفع رأسه ناحيتى ومضى ، وسمعته يتحدث إلى نفسه : «البقية فى حياتك . . الليلة كل حاجة خلاص» . واختفى فى غيط التين .

لم أعرف كم مضى من الوقت وأنا أحدق فى الليل؟

ربما مرت ساعة ، ساعتان ، أربع ، كل ما أعيه أنها جاءت أول الأمر مخنوقة ، من بئر ، ثم محشرجة تصعد من أحجار الطاحون ، تستقيم ، مدوية فى ليل الجبل ، غير عابئة بالنجم ، وسلطان الظلام ، وفوضى الرمل ، وتلك العزلة غير المواتية ، وضرب الهواء بصوت المستغيث .

صرخة تشبه العواء ، متصلة وحادة ، تجسد عالما من الخوف ، طالبة العون فى ليل الجبل .

خفت ، ورأيت البئر بلا غور ، والخوف بلا مدى ، حلم يبدأ بالمطاردة وينتهى بالسقوط ، ورجل خلف باب بيده بلطة ، كامنا فى الظلام ، والأفعى المجنحة تستدفئ آمنة تحت فخذ رجل لا يكف عن الحكى والمسامرة ، قلت : «تلك صرخة تحمل شيئا يخصنى» .

أدخلت قدمى فى المداس ، ساحبا المصباح ، هابطا السلم ، متجها ناحية الصرخة . كان ظلى يرتمى خلفى ، ويتبعنى ، وكنت فى قبضة المكان وكأننى فى الحلم ، فى الكابوس .

قرب البوابة الخارجية ، وعلى نور المصباح ، رأيت مبتور القدم وقد أمسك به فخ من فخاخه الذى نصبها ، وقد انطبق على فقرات عنقه

مبعثرا إياها، فيما ينتفض بدنه الغارق فى دمه، وقد مد كفه تستغيث بى فى رجاء.

ـ هو أنت؟!

تأملته، وحين تأكدت أن الفخ يأكله؛ صككت الباب من خلفى ودخلت.

القط والعصفور

فى الهزيع الأخير من الليل، قررت أن أزرع فى حشا زوجتى بنتًا.

تلك ليلة من ليالى الخريف، وأنا أنظرها مستلقية بجوارى ترتدى قميص نومها الوردى، الذى تتطرز أطرافه وفتحة الثدى بدانتلا بيضاء فيما تستقر رأسها على وسادة مكسوة بحرير أخضر.

ليلة مثل كل الليالى التى حلمنا فيها بالبنت.

تهيأت، وتواترت بداخلى الصور.

جوارى ألف ليلة، وبنات المعبد الوثنى، وبعض الصور لأفلام ملونة، والمسجل بجانبى ينساب منه صوت «سيلين ديون» بأغنية عن البحر.

أقبض على ليلة من ليالى الخريف، وأسمع سقوط الأوراق، ورائحة تصعد من الحديقة، مثل رائحة جذور قديمة.

تعرينا مثل طفلين، وظلال حجرة النوم مترعة بونس يرجف القلب (أنت تحلم بالبنت تنبثق من رحم الأم مثلما تنبثق وردة).

وأدركت فى هذه اللحظة السماوية أننى أعيش وقتا من الحنو الجميل.

لكنه كان هناك.

مثل كل ليلة.

مثل كل ليلة.. كان هناك!

يفصلنى عنه ممر باتساع ثلاثة أمتار، يتمشى على سطح جارنا من الناحية الشرقية. يهز عجيزته فى لا مبالاة، ناظرا ناحية شرفتنا المفتوحة على الليل. كان القط أسود غطيسا، مكتنزا ليس مثل القطط، بحجم كبير مثل قطط البرارى..

ككل ليلة، أراه فى مكمنه هناك.

يقف عند حافة السطح. يمشى فى دورة، ماسحا المكان مثل حراس المقابر.

أحست بى زوجتى.

ـ مالك؟!

ـ القط.

ـ يا راجل!

وخفت.

لا أعرف ما الذى دفعنى للتفكير فى غير المرئى، وشعرت كأننى أعبر جسرا فى الليل ينتهى عند منتصفه، تحته يصخب الماء مندفعا بتيار مسرع.

يشغلنى طوال فصل الخريف فى وقفته الليلية تلك. إذا ما نوّر

السطح عكس النور ظله، فامتد وجاءنى مواؤه غير المتوسل بوعيد مؤجل.

عقدت يدى على صدرى، وانشغلت للحظة، وتأملت الستائر المنسوجة بالأزهار الملونة.

ما إن فتحت فمى لأتكلم إلا وكان قد قفز قفزته المروعة عبر الممر، مثل كرة النار مستقرا على فراشنا، يكحت بمخالبه المشرعة قماش المفرش، ويحدجنى بعينين فى صفرة الزهر. رفسته بقدمى؛ فهوى من فوق السرير، وسرعان ما انطلق، مثل السهم خارجا من حجرة النوم.

(البس هدومك)!

ارتديتها على عُريى.

تلك ليلة طويلة (ومنذ طفولتك البعيدة وأنت تخاف القطط)!

نهضتُ وأغلقت على زوجتى الباب بالمفتاح، وقطعت الممر فى أثر القط.

كنت كمن يعبر ممرا سريا خارجا من داخل نفسه.

أضأت أنوار الصالة كلها: نجفة الوسط، مشكاة الممر، لمبات النيون فى غرفة المكتب، الثريا العتيقة لحجرة السفرة.

كانت مساحة الشقة مفتوحة على بعضها، وضوى المكان مثل قاعة عرض فى متحف قديم. ابتدأت اللعبة، وعلى انتظار نهايتها بكل صبر.

كان القط واقفا على مائدة حجرة السفرة، يدور فى دائرة من سواد، وعينه الزهرية تحدق فى عينى مثل قرص الشمس، ينطلق شعاعها من

مركز الوجه، وكانت نظرتها مرعبة وعارية، مثل هبة هجير، مشتعلة بحياة متوحشة فطرية مراوغة، وكانت متحدية بغير ما حد.

فوق ترابيزة الصالون الصغيرة، تستقر ڤازة من الخزف الصينى مرسومة بجلال سيدة ملونة، وطاووس يفرد ريش ذيله، ويلتقيان (الطاووس والسيدة) عند منحدر يقود إلى البحر.

خطوت بخوف غريزى، وقلت بصوت مرتجف:

- بِسْ.

قلتها منذرا من حلق جاف؛ فالتفت القط ناحيتى وقوَّس ظهره ورفع ذيله، وسار عبر الصالة فى خيلاء. كان يقف وسط السجادة بالقرب من دولاب الهدايا الإستيل.

- بِسْ.

قلتها شاخطا؛ فماء بصوت غليظ. التقطت من عند العتبة فردة حذاء ورميته بها؛ فقفز فى الهواء، متجها ناحيتى، خامشا وجهى بمخالبه، واستمر فى إطلاق موائه. تحسست وجهى بيدى فشعرت بنفرة الدم ساخنا، وتأملت كفى؛ فراعنى لون الدم.

صرخت.

خبطت الأرض بقدمى خبطات جديدة متوترة، شحنت انفعالاتى، وانفجر بداخلى غضب سرعان ما انتهى إلى خوف.

أدركت أن ثمة شيئًا يسحب منى إرادتى. وتحت ضوء الصالة الساطعة، ووسط الصور المعلقة على الجدران، والتماثيل المستقرة على الترابيزات الصغيرة - ارتد وعيى إلى بعيد.

بدأت المطاردة حامية .

كانت زوجتى من حجرة النوم تدق الباب بعنف فى خبطات لها قرع الطبول، صرخت فيها: اسكتى. أدركت أن الأمر يخرج من يدى، وأن علىَّ أن أحسمه. هجمت على القط بكل جسمى فزاغ منى ناحية الجدار، وتحت الأشياء، قفز قفزة عالية وهبط بمستنسخ «جوجان» «المستحمات»، وتبعه بإطار يحمل صورة «للجزار»، وكنس فى سكته تمثال «السيدة الرومانية» وتمثال لإيزيس فى حضرة الإله «رع» وقلب ترابيزة صغيرة عليها إسطوانات «الدانوب الأزرق» و «زواج فيجارو»، فهشمها، وشرائط أندلسية، وأغنيات «لأم كلثوم»، وسحب بمخالبه من الرفوف السفلية للمكتبة ـ جزءا من تاريخ «ابن إياس» ورواية «لماركيز» و «ترابها زعفران» لأدوار الخراط .

خفت حتى الموت. شقنى الخوف وهويت فى خرافة مروعة، وشعرت بالفزع فى حضور ذلك الحيوان البدائى، وانسحبت بانحطاط مروع إلى الماضى.

طاردت روحى صور الكلاب النابحة التى كانت تطاردنى وأنا صغير عند نهر بلدنا فى عز الليل، وأنا عائد أتخبط فى ظلام لانهائى. وتلك القطط السرية التى كانت جدتى تحكى لى عنها، وأنا أنام على فخذها:

ـ تحمل أرواح من ماتوا وتدور بها فى الليل. إياك وضرب قطة؛ فهى روح هائمة.

وأبى يحكى لى عن تلك القطط التى تفاجئك عند التخوم، بالقرب من الأنهار الجارية.

ـ انتبه، القط بسبع أرواح.

كشَّرت بوجهى، وأصبح القط مرادفا للعنة داخل وعيى، لكننى قاومت. . لأنك لا تعرف معنى أن تكون مهزوما، وخفت أن أنهزم؛ فأدخل غرفة نومى وأغلق على نفسى الباب.

الآن يا سيدى القط، كأنك تحيا فى كل الأركان. تسكن الأزقة، والحارات، وبسطات السلالم، وأروقة المكتبات، وممرات أقسام الشرطة المتربة، وتجثم تحت مكاتب المحققين، وفى زوايا المساجد، وتخطو بالقرب من مذابح الكنائس، تلعق بلسانك وتنظف به جسدك فى اطمئنان الواثقين. سن أنيابك فى ذلك الوقت من الزمن الذى تقيم فيه. تحول إلى روح. . إلى أرواح. . اختلط بالهواء لنتنسمك برضا أو بغير رضا.

وقف شعر رأسى، ورفسته رفسة زاغ منها، فاصطدم قدمى بكرسى الصالون. درت حول نفسى كمن به مسٌ.

ألم مضاعف. شعرت بالألم فى لحظته موازيا لما أشعر به من رعب.

وعدت أتذكر أنفه القبيح الأقنى مثل أنف اليهود، وعينه الضيقة الصفراء تحت نظارته السمكية، وصلعته الجرداء الشبيهة بقرعة مقلوبة، وهو يزحف عبر الليل عند سياج المقطم، عند الهاوية المفتوحة على الخراب وقرية الخنازير، خارجا من ضاحيته المنعزلة قرب المطار يطلق صرخته فى ذلك الليل الصحراوى الممتد بلا أحلام.

فى اللحظة، ارتفع صوت العصفور فى القفص.

كنت أضع القفص فى أحد رفوف المكتبة، وكان العصفور ينتفض،

ضاربا حديد القفص بجناحيه الصغيرين. كان يتخبط فى رعبه ورفيف الأجنحة فى القفص له صوت. انتبه القط لوجود العصفور؛ فاندفع دافعا مخالبه من خلال الحديد تجاهه. استكن العصفور فى سقف القفص متخبطا، يقبض بمخالبه الحمراء على سقفه العلوى، ويطلق استغاثته.

اندفعت رافسا القط بقدمى. أطاحت به الضربة حتى أسفل البوفيه؛ فاستكن هناك.

الآن!!

ما هذا الذى يحدث؟!!

ما الذى يحدث لى؟!!

يا إلهى.. مثل عقاب.

تتأمل زمنك الذى يمتد فى زمن وحشى. كأنما ما يحدث خارجك يحدث داخلك. وأنت تراقب اللحظة بكل حياتك التى تقارب الرحيل.

زحمة الشوارع.. الضغينة.. صوت الكلام.. لون السماء، طاولات المقاهى.. أنياب من يمثلون رحلة العمر.. فوت السنين.

نظرت ناحية الصالة، وتأملت شكلى فى مرآة الوسط.

وجه أصفر وشاحب، وعلى الثوب الأبيض بقع الدم، وعينان تبرقان فى جزع، وشعر مهوش.

أقف عند الهاوية.

فتحت باب الشقة ملتمسا الحيلة .

كانت الشقة فى الدور الرابع ، يغرق السلم الصاعد فى الظلام الكثيف .

خرج صوتى :

- بِسْ بِسْ بِسْ .

ملأت صوتى بحنية لا تناسب الموقف .

- بِسْ بِسْ بِسْ بِسْ .

خرج من تحت البوفيه يسير فى كبرياء الآلهة . كنت أقف بجوار باب الشقة ، أشير له بيدى ناحية الخروج . وكان القط يقف لحظة متأملا ما أحدثه من خراب .

بالقرب من الباب ، وقف ناظرا للحظة ، ثم رفع ذيله إلى أعلى وهز عجيزته .

أشرت ناحية الخروج ، فخطا مجتازا ناحية منتصف الباب الموارب . ما إن وصل بجسمه حتى المنتصف إلا وأغلقت الباب قابضا على الجسد المشدود ، وأخذت أضغط وأضغط بكل طاقات الرعب بداخلى . كنت أقتل بعنف وحشى ، وكان يعافر كاحتا خشب الباركيه بمخالب رجليه الخلفيتين .

وأنا أضغط من غير رحمة ، بيدى وصدرى بكل مخاوفى الكامنة ، وجسدى المشدود لائذا بفرصة جاءت عبر غفلة الحيوان .

أضغط بذاكرتى مستعينا بميلاد بنتى المؤجل ، وزحمة الشوارع ، وانكسار الناس ، وسواد الهواء ، والروح المستلبة بالعنف الطارئ الذى

يشيع مثل صوت الضجيج، والحصار، والأفق المسدود أمام كل الاحتمالات.

كان القط يموء، ويستغيث، وأنا أتخيل منظره في الخارج وقد بدأ لسانه يندلق من حلقه، ويقيء دما، يحمحم، طالبا خلاصا مستحيلا. وكنت شاهدا على القتل، أضغط بعزم اليائسين على نصف القط خلف الباب.

عندما تأملت مؤخرته، كانت أمعاؤه تخرج، مختلطة بدمه وبرازه وبوله، تتسرب من جوف جحيم الليلة غير المواتية.

هدأ تنفسي وسكنت ضربات قلبي قليلا. كنت قد غرقت في صمت مثل صمت الصحراء، وأحسست كمن اجتاز ـ غير خائف ـ ممرات الظلام التي عبرتها وجلاً، وأنا صغير. والحارات السد، وهمهمات الأصوات في ظلام الأقبية والزوايا، والخبطات الليلية على أرض المسجد القديم. الوجوه الشاحبة الصفراء تحمل بسمات السخرية المرة.

فتحت الباب، وخطوت خارجا، ونظرت إلى القط في خفقته الأخيرة، وطوحته بقدمي؛ فهوى من مسقط السلم منهبدا بالأرض في خبطة مكتومة، ثم حل صمت مريع.

ضربة قمر

«الاثنين»

كان شعرها يتدلى من تحت منديلها بلون الفضة، وهى تقف مستندة بساعديها على حاجز النافذة الخشب، تطل على الميدان العتيق فى الضحى.

بيت من دورين، ميسور الحال، وميدان مترب يتوسطه منتزه عام، موشومًا بشتلات من شجرات ضامرات تهمى عليها طول النهار عصافير نهمة لا تكف عن الحركة والصفير، همستْ لنفسها «كانت ليلة من ليالى التمام، والقمر كان بدرًا، والسحاب حواليه زى الغسيل المنشور».

تمتمت بصوت سمعته:

ـ حلم ولاً علم. اللهم اجعله خير.

وتسارعتْ ضربات قلبها، وأحست روحها بخنقة الحلم، وراحت تتأمل ما رأته فى المنام، ثم هزت رأسها مستغربة:

ـ إيه اللى جابه بعد العمر الطويل ده؟!

وتنهدتْ بدافع من حنين قديم، وتجلت واضحة فى رأسها الصور.

شكة من قمر وخزت القلب فأحيت ما فات، وكأن الذى راح ومضى من سنين، يعدو حيا، وكأنه جرى من أيام.

غادرت النافذة، وجلست على الكرسى فى الصالة تتأمل اللبلابة الصغيرة السارحة بجانب الشرفة وهى تتسلق الجدار. ورنت عيناها للضوء فى النهار الحار، وتمنت من الجو الخانق نسمة هواء.

ـ معقول؟ وبعد العمر ده!

تحسستْ طريقها مهدودة الحيل حتى غرفة النوم، وغيّرت جلبابها المنزلى وارتدتْ فستان الخروج. بعد أن تأملت نفسها فى مرآة الصوان؛ ازداد قلقها لحظة أن رأت تلك الغلالة من الحزن تكسو عينيها الواسعتين، وأحست بهدّة الحيل تثقل عليها؛ فتنهدت.

هبطت سلم البيت وخرجت للشارع؛ حيث جارتها الست «أم سيد» ودخلت عليها.

كانت جالسة على الأرض بصالة شقتها، حولها البطاطس مقشرة، والطماطم معصورة، وبقية أغراض الغذاء فى حالة إعداد.

عندما رأتها «أم سيد»؛ نهضتْ واقفة وقد بان على وجهها الخوف:

ـ خير يا «أم هشام»، مالك يا أختى؟!

وتركت «أم هشام» نفسها تجلس على الكنبة الخشب.

ـ خير.

وحل صمت قصير، ثم عادت «أم سيد» تنظر إلى جارتها:

ـ مش باين. متاخده. ولونك أصفر من اللمونة. جرى حاجة مع «أبو هشام»؟!

ـ أبدًا.

ـ أعمل لك قهوة.

ونهضتْ «أم سيد» بعجيزتها الهائلة وهى تفكر فى حالة جارتها، وأدركتْ وهى فى طريقها إلى مطبخها أن شيئا قد حدث. وقفت لحظة، رمت فيها بالضفيرة التى على صدرها بجانب أختها، وخطت داخلة إلى المطبخ.

أطلت «أم هشام» على الوسعاية ورأت أطفالا يمرحون، وسمعت ميكروفونا تتدفق منه بعض الأغنيات ضاجة ومجلجلة.

ـ اشربى قهوتك.

ورشفت أول رشفة، ثم مصمصت بشفتيها مستغربة، وهمست بصوت خفيض:

ـ حاجة متحصلش!

ـ خير؟

ونقلت عينيها بين المرأة جارتها، والمنطقة الشاحبة من السماء التى تتوهج بشمس الصيف الحارة، والتى تقطعها بين الحين والآخر حمامة طائرة.

ـ جوزى.

ـ «أبو هشام»؟ ماله؟! خير؟!

ـ لأ. مش «أبو هشام».

ـ أمال جوزك مين؟!

وجعلت الدهشة تملأ وجه «أم سيد»، ثم فردت رجلها فى مستطيل الشمس الذى يفرش جزءا من مساحة صالة الشقة، وقالت لها بصوت صارم:

ـ جرى إيه يا «أم هشام»، إيه اللى جرى؟!

ـ ها أقول إيه بس، ما هى حاجة تمخوّل الدماغ.

وشبكت ذراعيها على صدرها، وأطرقتْ، وأخذها القمر الذى كان نوره بلون الفضة، يسقط على الرمال فيفرش على الأديم بهجة، وخضعت لمشاعرها وانسحبت إلى ما رأته رأى العين: عينان دامعتان، وذراعان نحيلان، وقامة مديدة تنقبض وتتداخل فى نفسها فتصبح ككومة من ثياب.

ـ جرى إيه يا «أم هشام» أمّال؟!

ـ حلم يا «أم سيد» خنقنى، وقابض على قلبى، ومسوّد النهار فى وشى.

ـ خير. اللهم اجعله خير. قولى يا أختى فضفضى.

ـ آل إيه.. خير والصلاة على النبى. كنت ماشيه فى سكة مهجورة. على يمينك رمل، وعلى شمالك رمل. وطيور طايرة تسبح بألف لسان، ماليه السما، ولها وجوه عيال صغيرين، زى ما يكون أعرفهم. القمر ابن أربعتاشر، مزهزه، ومبعتر نوره، والدنيا ضهر تشوفى كفك فيها. وصوت منشدين بكلام طيب. وريحة طايرة، لسه الريحة فى مناخيرى. وأنا ماشيه مستحمية عاقدة شعرى كحكة، ومشدودة ناحية شجرة عريانة. لا ظل ولا ثمر. يقف على فروعها نفس العيال. لقيته واقف تحتها لابس جلابية بيضا، وعلى رأسه لاسه

بيضـا. لما قربت منه كشف وجهه، ساعتـها عرفته. جـوزى القديم «عبد المنعم»، لما شافنى قال لى: أخيرا جيتى؟! دا أنت من يوم ما اتجوزتى حُرْمت عليك زيارة تربتى، صحيح ما يبكى على الميت غير كفنه! ودخل فى بعضه وقعد تحت الشجرة وهات يا عياط. ساعتها صرختْ الطيور، وشفت لها مناقير من نحاس، وراحت تضرب رأسه وتخطف حتت من مخه، وهوه يزعق يا نضرى! بعلو الصوت. ساعتها كنت حَتْخنقْ، وقمت من نومى وأنا على دا الحال.

ونهنهت، واعتصرت عينيها بطرف طرحتها، بينما وضعت «أم سيد» رأسها على كفها واستغرقت فى التفكير، تتأمل الحل وتحاول استعادة تفاصيله، باذلة جهدها الخاص فى الوصول لتفسير الرؤيا. استعادت نفسها وسألت:

ـ هو يا أختى مالوش حد؟!

ـ أبدًا. مقطوع من شجرة. انخطف فى عز شبابه بعد ما اتجوزنى بسنة. مصمصت «أم سيد» وتنهدت قائلة:

ـ معذور، وحيد زى الشجرة اللى كان واقف تحتها. ما حدش بيزوره؟!

ـ كنت بزوره لحد ما اتجوزت، وبعدها قطعت.

ـ معذور يا نضرى ووحيد. دى زيارة الميت فى تربته فرض واجب. بيستغيث بيكى تزوريه، وتقرى على روحه الفاتحة. يمكن مأسور وعاوز يفك أسره وعلى رأى المثل: آخر الحياة الموت.

ـ أزوره؟!

ـ أمّال. زيارة الميت فرض واجب، والرؤية فى المنام دعوة. وإياك تقصرى.

ـ و«أبو هشام»، أقول له إيه؟!

ـ ولا تجيبى له سيره.

ـ أكدب، على آخر الزمن أكدب يا «أم سيد»، وفى أمر زى ده؟!

ـ اعملى إنك رايحة تزورى أمك، وزوريه. وزوريه يا أختى؛ ينفك أسره. ده برضه كان جوزك.

ـ أبدًا. لا يمكن.

ثم صمتت لحظة، وراجعت فيها نفسها وعادت تقول:

ـ إن كان ولابد، فلازم «أبو هشام» يعرف.

ـ ربنا معاكى.

«الخميس»

جاء يوم الخميس كيوم حداد كبير بالنسبة «لأم هشام».

وكان «أبو هشام» يجلس على الكنبة فى صالة الدور العلوى وقد ترك دكانه فى حماية ولده الوحيد «هشام»، يروّح على وجهه بمروحة من الريش، وتجرد من هدمته وبدا سرواله الطويل حتى قدمه نظيفا، والصديرى ذو الأزرار الصدف للامعة، يستقر مزّهرا فوق فانلته ذات الكمين الطويلين.

كان أسير الخاطر لحالة من حالات عدم الفهم والحيرة تستبد به

خلال اليومين الماضيين؛ فزوجته الصامتة ـ والتى سألها أكثر من مرة عن حالها، والتى ردت عليه بإجابات غامضة، يرى بعدها الدموع تنبثق من عينيها، والتى كلما سألها: فيه إيه يا وليه؟ ترد عليه: خير. خير يا «أبو هشام» ـ كانت حالتها تضنيه، وتطيّر النوم من عينيه.

فاجأته، تخرج من غرفة نومها ترتدي ملابس الحداد: فستان من حرير أسود، وطرحة من «الشيفون» الخفيف، وحذاء واطئ بجلد لميع، وشراب من القطن حتى منتصف ساقيها، ومنديل أبيض مطبق ومضغوط بكفها الصغيرة.

سمّر الرجل نظراته عليها، وقد أخذه منظرها الحزين.

ـ أعوذ بالله. مالك يا وليه مسوداها كده؟! هو حد مات؟!

صمتتْ حائرة، وهى تنظر لزوجها الذى تشعر تجاهه بمحبة خاصة، وتحمل له فى قلبها معزة فوق الوصف؛ فهو أبو عيلها، وفاتح الدار، وهو الذى فى كل أحواله، وطول عمرها معه لم يرفض لها طلبا، وظل كل تلك السنين مصدرا طيبا للحنّية، وطيبة القلب.

ـ أبدًا. أصل الحكاية...

ـ حكاية إيه يا «أم هشام»؟! ما تنطقى.

وانفلتت منها تنهيدة، وسوّت بيدها ياقة فستانها، وشدت عقدة رأسها وقالت بعزم:

ـ أنا رايحه الخميس ده الترب.

ـ خير؟!

ـ عاوزه أزور جوزى الأولانى.

وجاءت الضربة من يد خفية كرفسة فرس على عين «أبو هشام»، وانفجرت أمامه حزمة من الأنوار، وداخ، وشعر بتيار الدم يصعد إلى يافوخه، فخاف من الشلل المفاجئ، وحرقة الدم التى ليس بعدها سوى الموت. تمالك نفسه وقال لها بهدوء:

ـ جوزك الأولانى مين؟!

ـ سى «عبد المنعم».

ـ «عبد المنعم»! دابقى رميم. وإيه اللى فكرك بسى عبد المنعم ده دى الوقت؟!

ـ أصله جانى فى المنام و . . .

ـ جالك فى المنام؟!

ولم يتركها تكمّل، واندفع كالمجنون يريد حنجرتها، يود لو انتزعها من زورها، ثم يبطحها على الأرض ويبرك فوقها حتى تقطع النفس، ولكنها تجنبته فاصطدمت يده بالحائط مما جعله يصرخ:

ـ آه، صباعى!

جرتْ ناحيته وأمسكت بيده التى أخذت تنزف، وصرخت مرعوبة:

ـ سلامتك يا «أبو هشام»!

دفعها بعيدا عنه وصرخ فيها:

ـ غورى بعيد عن خلقتى.

ولف أصبعه فى شاش قطن، وصدره يعلو وينخفض مثل كور الحداد:

ـ قال جوزها الأولانى قال! أمَّال أنا أبقى إيه؟ خازوق! إخص عليكى مره ما تعرفش الخشه!

ـ مات وحيد! وصغير، والعشرة ما تهونش إلا على ابن الحرام. جانى مأسور ومسجون فى قبره. ومن يوم ما اتجوزتك ما زرتش تربته، وافتكر: إن اللى ما يموت النهردة، هيموت بكرة.

ـ الولية هتتفلسف، ادخلى وانكسفى على عرضك، واقلعى المسخرة اللى أنت لبساها دى.

ـ هزوره.

ورمت برأسها عاليا، وحدجته بنظرة لم يرها فى عينيها من قبل، وكلما شخط فيها ونتر، جعلت تنهزم أمام إصرارها على الذهاب للترب، وأخذ وجهها يتلبس تلك النظرات التى جعلت الرجل يجأر بالصريخ:

ـ عيب عليكى، دا ابنك شنبه خط.

ـ هزوره.

وغاب عنها صوته وراحت لبعيد، يتسلل إلى قلبها أصوات أخرى آتية من زمان وكأنها الريح التى تسكن البيوت التى هجرها أهلها، والتى تجىء فجأة، وتذهب فجأة، فتخلف فى فضاء الروح.. خزينة ملابس.. ومفاتيح مبعثرة.. وصوانات بمرايا لامعة.. وشراشف لها رائحة أوادم رحلوا عنا.. وحجرة فى ركن من حى قديم بها مصباح

على الجدار يبتسم . . وأنفاس غامضة تتردد بعجز الرحيل . . وفسحة على النيل باقية فى حبة القلب . . وحكاية طيبة تجعل القلب ينسى همه . . وقمر يضرب القلب ، ويزهزه بالصبا . . ابن أربعتاشر يجعل الروح تنتفض كفرخ الطير يستحم على حافة نبع ماء رائق .

وجدت نفسها تقول بإصرار :

ـ هزوره .

ووجد نفسه يرد عليها :

ـ تحرم عليك الدار يا «أم هشام» لو خرجت منها .

وخرجْت .

بقى وحيدا ، هائجا يدور حول نفسه كثور من ساقية ، يضرب كفا بكف ويصيح :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ! الوليه دماغها طقْت .

كانت خطواتها المصرة تضرب سلالم الدار ، وهى تنزل مدفوعة بإصرارها لزيارة الميت ، وثمة سحر يفوح من أعطافها ، يسبقها وهى تنزل متجهة ناحية الخراب ، حاملة بقلبها العزاء .

كان «أبو هشام» أسيرًا لحيرة لم يعرفها فى حياته أبدا ، فى موقف يحسده عليه أى عيّل من عيال الشارع . لا يدرى ماذا يفعل ؟

وفى لحظة من زمن هبت من النافذة ريح طيبة جعلت دماءه تبرد ، ويتمالك نفسه ، ثم يجرى ناحية السلم وينظر أسفله ، فيراها تقترب من الباب الخارجى ، فيصيح عليها .

ـ يا «أم هشام» . . يا وليّه!

وحينما ردت عليه:

ـ نعم.

قال لها:

ـ يا وليه، ما تنسيش تاخدى معاكى عدّين برتقان، وحبة كحك وقرص، وكيلو حلويات. رحمة ونور على أرواحنا وأرواح المسلمين!

بيت للعابرين

رن «التليفون» آخر الليل، فرفعت السماعة، وسمعت صوتا نسويا:

ـ آلو . . .

ـ نعم.

ـ منزل الأستاذ «صبرى»؟ . . . صبرى سالم؟

ـ نعم.

ـ أنت متأكد؟

ـ طبعا . . أنا «صبرى» بنفسه.

تهلل الصوت:

ـ «صبرى» ابن العم «سالم». المولود فى «كفر الغنايم» مركز «سمنود»؟

ـ بالضبط، معلوماتك صحيحة. لكن أنت مين يا أفندم؟

ـ أنا «سمية» يا «صبرى» . . «سمية فيض الله» . . المنصورة، فاكر . . سنة ١٩٥٧ . . فاكر . . زمان.

هتفت مأخوذا:

ـ «سمية»!

برق الشعاع ضاربا أقصى تجاويف الدماغ فضوّت الذاكرة، وتبدد ظلام النسيان، فيما تجمعت صورتها جزءا، جزءا، الصبية الصغيرة التى كانت على عتبة الشباب، بضفيرتها الوحيدة، وقلادة الذهب، والبسمة المنورة والغمازتين.

صحت بلا وعى:

ـ «سمية». . والله زمان. . والله زمان يا «سمية»، كيف أحوالك؟

قالت بعدم تصديق:

ـ بخير. . نفسى أشوفك. . أصل أنا شفت صورتك فى «الجورنال». . أخذنى الشك، لم أصدق نفسى. . أصلك تغيرت خالص. . اتصلت بالمسئولين فأعطونى رقم تيلفونك. . نفسى أشوفك. . ياريت تحضر.

وأعطتنى العنوان، ثم وضعت السماعة.

خرجتُ إلى شرفة البيت. كنت أتطلع إلى الليل، وأنا أقف وحيدا أقاوم ما أنا فيه «سبعة وثلاثون عاما منقضية تنهض فجأة، وكأنها كانت محبوسة فى كهف».

شعرت كأننى غير قادر على مواجهة الحنين، وبأننى لا أستطيع أن أقاوم ذلك الماضى الذى لا يخص أحدا غيرى.

«المنصورة». . سنة ١٩٥٧. . أول الشباب. . زمن هؤلاء الذين

يأتون من القرى محتشدين بقلة تجاربهم، وخجلهم، يتخبطون فى شوارع المدن تائهين، حتى إذا وجدوا الملجأ كان لهم العزاء.

وبيت «سمية» كان عزائى، مأواى، عندما سكنت حجرة على سطح بيتهم.

الآن.. ماذا فى الآن؟

هى هرمة تقترب من الستين، كانت أكبر منى بسنوات ثلاث. ربما هى الآن جدة، أو أرملة ودعت زوجها ووارته التراب، وتعيش وحدتها بلا آمال، منتظرة مثلى حسن الختام.

تذهب؟

إلى أين تروح؟

لتتفرج على مشيبك، أم لتتعرف آخر المطاف على ما صنعه بك زمنك الخاص؟! خيل إلى فى هذه اللحظة أننى أعدو من غير حسبان، متجاوزا سنينى، عائدا لتلك المنطقة السرية من ذلك الزمن البعيد؛ لأطل على لحظة من ألق، حيث كانت تأخذ بيدى ـ أنا القروى ـ ونحن سائرين على كورنيش المدينة نتطلع إلى الضوء، والقوارب المركونة، والصور المعلقة، والناس على «الكازينو»، وكنت أنظر فى عينيها فأعثر على الفرح، وأتأمل الغمازتين، وأطمئن نفسى بسؤالها: «إن كانت تحبنى؟»؛ فتزوغ منى ضاحكة: «حاذر يا فلاح النبى، لا أحد يأخذ كل شىء».

فى الصباح بدرى، ملأت صندوق السيارة فاكهة، وحلوى، وقطعا من قماش، ومزهرية من زمن الخريف، وتوكلتُ.

دخلت «المنصورة» فى الضحى. المدينة التى لم أرها من سنين. «المنصورة».. لؤلؤة من ذكريات تسكن فى القلب.. حكايات من الزمن القديم تنهض من النسيان حزمة من شرايين حية.

رأيت قاعدة الرخام، والكازينو العتيق، والنادى «اليونانى»، بينما يجلس «مراكبى» عجوز على مؤخرة قاربه يتأمل الماء، قلت:

«ربما هو من كان شابا ينقلنا على النهر، سائحين فى ذلك الزمن الذى كان» ـ طرز البناء، وسينما «عدن» والأزقة الصغيرة التى تحبس روائح البيوت انتفضت حية بملامحها وكأننى تركتها بالأمس.

كان البيت يقع بعد ضاحية «توريل» بالقرب من شاطئ النهر، تحوطه أشجار الكافور التى تفرش فروعها العصافير.

ركنت السيارة، وحملت هداياى، وضغطت على جرس البوابة الخارجية للبيت؛ ففتحت لى فتاة لها ملامح قروية سمراء، ونظرات تلمع فى النور.

خطوت إلى حديقة مزهرة على غير أوان، ورأيت نافورة مسورة بحجر من رخام، تفوح من الحديقة روائح معطرة بذكريات تضرب خاصرتى من غير رحمة.

ليس هو البيت القديم، الذى كنت أسير بصالته، وأطل من نوافذه، وأسمع غناء الجارة الست «هدى» منطلقا بأغنيات الحنين.

انتابنى قدر من الخوف، وأحسست برعشة الذاهب ليلتقى بحياة كان قد عاشها من زمان.

صعدت درجات السلم الرخامية، وانتظرتُ.

بعد قليل رأيتها تخرج، ترتدى فستانا من الحرير الأحمر، موشى ذيله بقطيفة حمراء، ومطرزا بوردات زهرية. كانت أمامى بشكلها القديم، وصباها الذى أعرفه.

شهقت، وصحت:

ـ «سمية»! كأننى فتك البارح!

توجست قليلا، ووشت ملامحها بالاضطراب، فيما كنت أهوى أنا مصعوقا، كلما تأكدت أن الزمن لم يمر بها.. نفس الملامح، والقامة، وخفّة الروح.

مددتُ يدى، فقبضتْ عليها:

ـ أهلا يا «صبرى»!

خيل إلىّ أننى أسقط من مكان عال، وخفتُ أن أصرخ من ضربة المفاجأة. نظرت إليها بقلبى، وتأملتها بحواسى الخمس من سطوع النور، يشع منها ضياء الشباب، وعبير له رائحة الياسمين. قلت فى نفسى: «شابة بنت الحلال، كأنها لم تتجاوز الثلاثين، تقف أمامى وكأننى غادرتها بالأمس»!

خفت من اختلاط الأمر علىَّ، وحاولت بقدر ما أستطيع السيطرة على مشاعرى.

دخلت أمامى مرحبة، تفرش الأرض بالتحايا، والضحكات، فيما تستولى على البيت رائحة البخور الهندى، وشذا الياسمين.

ـ والله زمان يا «سمية»!

ضحكت، وأنا أتأملها متشككا وكأننى فى حضرة أخرى.

قلت لنفسى: «ممكن؟ . . . كيف تستطيع أجساد أن تقاوم الفناء»؟!

جلست أتأمل بشرتها التى تضىء فى النور الذى يسطع من النافذة:

فاجأتنى:

ـ والله وكبرت يا «صبرى» . . شاب شعرك وعجّزْت!

ـ الغريب أنك عكس ذلك تماما.

ابتسمت، واستأذنت لحظة، ولكى أنتزع نفسى مما أنا فيه، تأملت صالة البيت الواسعة. كانت كبيرة وعلى قدر رفيع من الذوق، والغنى: ستائر القطيفة على النوافذ، صالون مذهب يستقر بطرازه الفرنسى، تحف، وصور على الحائط لمستنسخات من القرن الماضى، لحوريات، وملائكة مجنحين، وسجادة فارسية على الأرض موسومة بزخارف نباتية، صورة شخصية لها من ذلك صبية فى إطار من خشب بنى اللون، وذى رصانة، وضعت فى مكان ظاهر عمداً، وعن سبق إصرار.

أعرفها تلك الصورة غير الملونة، وأتذكر دقائق زمانها حينما استعرتها لأيام لأضعها فى ألبوم صورى، حتى طلبتها منى مبتسمة، «مالك . . الأصل معك».

عادتْ ببهائها، ووجهها المنور تطلق ابتسامات طيبة، ويجلجل صوتها بكلمات الترحيب.

قلت:

ـ فاكره هذه الصورة؟!

ـ وهل هذه أشياء تنسى. كنت تحبها كثيرا.

أطلّت من الباب الموارب يدٌ تحمل صنية عليها فاكهة، وطقم شاى من البورسلين، ولمحتُ ظلا لسيدة تكتسى بالسواد، وسمعتها وهى ترحب بى:

ـ أهلا وسهلا.

ـ أهلا بك.

سألت «سمية»:

ـ من هذه؟

ـ قريبة.

واكتفتْ.

بعد ذلك كنت أسمع خطوات السيدة تطرق سمعى دائرة فى البيت بإيقاع رتيب، وصوت تنهداتها يأتينى مضمخا برائحة البخور والياسمين.

صمَتُّ راحلاً إلى بعيد.

حينما كنت فيما مضى ألْبَدُ على «البحر الصغير» تحت «البونسيانا» ذات الأزهار الحمراء متظاهرا بقراءة كتاب بالقرب من المدرسة «اليونانية» التى تتوسط الطريق لمدرستها ومعهدى، وأراها قادمة بمريلتها الزرقاء، وضفيرة شعرها المشبوكة بشريط أحمر، تضم حقيبة كتبها لصدرها، تعرف أننى أكمن عند الشجرة أنتظر رؤيتها فى الخارج، إلا أنها آخر النهار كانت تعنفنى «بَطِّلْ تَلَصص»، وتكون فردت شعرها فانطلق فى كثافة الليل، وأكون أنا قد أحببتها أكثر، وطويت جوانحى على الحلم، وتكون قد اقتربت منى قائلة: «يلاَّ يا فلاح، دعنا نْذَاكر».

قلت :

ـ شيء غريب !

ردّت :

ـ ما هو الغريب؟

لم أرد؛ لأنني شاهدتُ السيدة المسنة من الباب المفتوح على الحديقة تشذب بمقص في يدها أشجار الزهور. كانت ترتدي فستانا أسود بكميْن طويلين، تطل من تحت طرحتها ذوائب من شعر في لون الفضة، وعندما رأيت جانب وجهها؛ كانت تلبس نظارة سميكة، تستقر على وجه محتقن يشيع فيه الأسى والحزن.

سمعتها تطلق غناء كالعديد، تدفع به نسمات الخريف محملا شجنا.

قلت :

ـ غريبة !

كأنني أعرف هذه السيدة.

ارتعش صوتها عندما قالت :

ـ أبدا . . هذه قريبة من بعيد.

ثم قالت، مغيّرة الموضوع :

ـ فاكر «بريسكا»؟!

«حكاية من زمان»، قلتُ :

ـ تقصدى «كوثر حجازى».

ـ البنت التى كانت تمثل معكم مسرحية «أهل الكهف». كنت عامل دور «مرنوش» الذى عاد من نومه بعد ٣٠٠ سنة، يبحث عن امرأته وابنه.

ـ فاكر طبعا.. حتى أنتِ أيامها، فكرتِ أننى أحبها.

ضحكت قائلة:

ـ كانت أيام حلوة يا «صبرى».. كانت أيام!

خيّل إلىّ أننى أسمع صوت بكاء يأتى من تحت النافذة، وأن هناك من يتصنت علينا. وانشغلت بالسيدة العجوز الغريبة، سألتها: إن كانت سمعت صوت بكاء؟ فردّت علىّ:

ـ أبدًا.

تناولنا الغداء، ولم تكف عن الحديث. كلمتنى عن نفسها، وبأنها تزوجت بعد أن سافرت وأنا لم أعد، وكلمتها عن نفسى حتى خف بنا الزمن فعدنا لسطوح الدار القديمة، وشوارع المدينة. راحت الشمس.

وعزمت على الرحيل.

نهضت، ونهضت معى، قالتْ:

ـ ما بدرى. هل ستعود؟

ـ ضرورى.

هبطت معى الدرج. وقفنا تحت شجرة فى الحديقة.

لمحتُ نفس السيدة المسنة تجلس تحت النافذة التى كنا نجلس بجوارها.

تأملتها هذه المرة! كانت كهلة، شبه عمياء، مضروبة بالشيب والسمنة المفرطة.

انتابنى إحساس بأننى أعرفها، ربما قابلتها من قبل؛ سألت «سمية»:

ـ أنت متأكدة أننى لم أرها من قبل؟!

قالت، وقد هربت من مواجهتى:

ـ طبعا. هذه قريبة لنا تأتى أحيانا.

ـ غريبة.

سمعت العجوز تصيح بى، رافعة يدها:

ـ مع السلامة.

ـ الله يسلمك.

ورأيتها تدخل إلى البيت، ولا أعرف لماذا شعرت أنها تجهش بالبكاء؟!

خرجت للشارع خائفا من هبوط الظلام الوشيك، وأحسست بأننى تأخرت. تعثرت فى حيرتى، واختلط علىَّ الأمر وكل تلك الأسئلة تمور بداخلى.

عندما استدرت، رأيت السيدة العجوز تلصق وجهها بحديد النافذة وتطل علىَّ. كانت تقبض على الحديد بأصابع مشدودة.

أسرعتُ من خطاى فى اتجاه السيارة؛ أخاف من النظر خلفى.

صورة ملوّنة للجدار

هى فى شرفة البيت .

تطل على الميدان المشجر ، وتتأمل نافورة المياه الملونة ، وفى أقصى المشهد قطرات من النور ليوم منقضٍ .

هو يجلس على كنبة من طراز عتيق ، بيده الكتاب المفتوح ، يطل على صفحاته من خلال نظارته السميكة واستغراقه الصامت الطويل .

قالت :

ـ بعد أسبوع عيد زواجنا .

رفع رأسه ونظر ناحيتها متسائلا :

ـ هيه؟ !

ـ عيد زواجنا .

ـ صحيح .

هى قالت :

ـ العيد الكام؟ فاكر؟ !

خلع النظارة ووضعها على الترابيزة الصغيرة أمامه ، ثم هرش رأسه متفكرا وأجاب :

ـ أفتكر . . .

ـ تفتكر؟!

أجاب :

ـ التسعتاشر .

ضحكت، فجلجلت ضحكتها بالشرفة كأنها مياه النافورة .

قالت :

ـ لأ ، العشرين . دايما كده تنسى!

دخلتْ من الشرفة وهى لا تزال تبتسم بتهذيب، وتناولتْ نظارته وألبستها إياه، ثم طبطبت على رأسه وقالت :

ـ علشان تشوف كويس!

أحس بالوخزة .

«كأن الأمر قد اختلط علىَّ، وعجزتُ عن احتساب السنين، ثمة أماكن فى القلب تبرد فيها حرارتها، وتتولد مكانها حقائق مختلفة . . لكن تلك قصة أخرى» .

خرجتْ من غرفة النوم، وهى تبرد أظافرها بمبرد صغير .

قال متعجبا :

ـ عشرين سنة . عجيب إدراكنا لفوات العمر، ننتبه له فجأة، كأننا واقفين على شط نهر؛ نراقب التيار وهو ماشٍ .

قالت له :

ـ ألاً صحيح، هو العمر فات؟!

ـ يعني!

شغلتْ «الريكوردر» فهبط «باخ» من سمائه البهيجة، امتلأت صالة البيت بنغم الملائكة. كان بمقدوره أن يراها قبل المغيب واقفة بوجهها الحسن، ومحياها الجميل، وشعرها المسترسل الضارب فى السواد، يأتيه صوتها بنبراته الطائرة ترفرف فى فراغ البيت وكأنه الصدى.

قال لها:

ـ إنك تبدين دائما جميلة.

كانت تقف تحت صورة فى الصالة تتأملها، كأنما تراها للمرة الأولى.

قالت له:

ـ المفروض أنه فى المكان ده تتعلق فيه صورة زفافنا.

وخزة أخرى.

(وبدأت القصة الأخرى تستدعيها بحذافيرها ككل مرة، وكأننى لم أتغير).

وعاد بذاكرته.

(وكنت فى البدء، ذلك الفتى الفقير بحالة مؤسية: نحيل وجاف العود. أمتلك وجها يشى بعدم الرضى. يخفى بؤسه داخل البنطلون المكوى، والقميص حديث الموضة. أسكن بالقرب من مزرعة للخنازير، عند التخوم الغربية للمدينة؛ حتى تتطلع «عين الشمس» قبل

كل الشموس، ولا تغرب إلا بعد أن تغرب كل شموس المدينة. أحب المغامرة، وأطارد أول أوهام الصبا الجميلة. أركب قطار الضواحى فى آخر ليالى الشتاء، مفارقا أصدقائى الذين خلفتهم على المقهى. الآن وبعد فوات السنين، أسكن الحى الراقى. عندى «الستروين» الخضراء. أعانى من مرض الحساسية المزمن، وأمتلك شرائط «لموتسارت»، والأعمال الكاملة «لنجيب محفوظ»، وبوليصة تأمين ضد الموت والعجز، وعددا لا يفنى من دواوين الشعر، والرواية الأخيرة «لجارثيا ماركيز»، وحفنة من الأعداء الحاقدين).

قال:

ـ كنا فقرا يا حبيبتى، لا نملك ثمن صورة زفاف.

ردت عليه:

ـ والوقت؟!

ـ الوقت فرغ العمر، والسفر لحس أبداننا.

ـ لكنى مصرة أننى أتصور صورة الزفاف.

ـ بعد عشرين سنة جواز؟!

ـ بعد ألف سنة!

نقر الترابيزة بإبهامه، ثم أسند رأسه إلى الحائط، وراح يتأمل حجرة مكتبه.

ذلك اللون البنى القاتم، لون حبات البندق، وذلك المكتب العتيق.

ذلك الصقر المحنط المفرود الجناحين، والمحبوس فى أحد رفوف

المكتبة، وتلك الصورة لهذه المنازل القديمة بعصرها «الباروكى»، وتمثال السيدة الشابة، الفاتنة، والذى اشتراه من بائع جوال يقف على قارعة الطريق.

سألها:

ـ والحل؟!

ردت:

ـ الحل أننى أتصور الصورة.

تقلصتْ عضلتا خديه، وافتر فمه عن بسمة باهتة:

ـ يا حبيبتى صورة الزفاف اللى أنت بتتكلمى عنها دى، انتهى زمانها. دول عشرين سنة!

ـ دا قرار. حياتى معاك كوم، والصورة دى كوم.

كان يعرف إصرارها إذا ما أرادت. وكان يعرف أنه ليس على ما يرام، يهرب من مواجهتها بالإصغاء للموسيقى الإلهية، ويدرك بغير ضنى أن مواجتها معركة خاسرة، وأن هذه المرة ليست مثل المرات الأخيرة، وأنه بات متأكدا أن هوسا ما يسكنها، خاصة بسبب تلك الصورة، وأنها بالفعل قادرة على تنفيذ تهديدها.

قال:

ـ لكن يا حبيبتى، راجل زَيّىْ تجاوز عمره الأربعين، يتصور صورة زفاف إزاى؟!

ردت عليه مقاطعة:

ـ زى الناس!

وكان فيما مضى من سنوات، إذا ما دخلا سويًا إلى بيوت المعارف والأصدقاء؛ تتسلل وحدها من غير أن يشعر بها أهل الدار، وتقف تحت صورة زفاف معارفها وتظل تتأمل، سارحة بنظرها عبر الفستان الأبيض، والطرحة البيضاء، تتأمل لحظة الزمن المثبتة خلف الزجاج فى اللون، وطعم الابتسامة، وتندفع صائحة بصوتها الرنان فى الجالسين: «صورة زفاف جميلة»، ثم تصمت لحظة وتعود للصياح «رائعة»، ثم أقوم فأسحبها من يدها وآتى بها وهى مستثارة وأجلسها بجانبى؛ حيث لا تغض طرفها عن الصور على الجدار.

اندفعت داخلة إلى حجرة النوم، وخرجتْ تحمل على يدها ثوب زفاف أبيض وطرحة بيضاء، و«بوكيه» من زهور ملونة، وضعتها على المكتب، ثم عادت إلى الحجرة وخرجتْ ببذلة سوداء جديدة، وكرافتة حمراء، وقميص أبيض.

قال:

ـ إيه ده؟!

ـ فستان زفاف، وبدلة عريس.

أدرك أنه بإزاء امرأة لا يمكن التفاهم معها، وتأكد أن الأمر قد خرج من نطاقه، وأن إتيانه بأى فعل من جانبه غير ما تريده؛ سوف يدفعها إلى تنفيذ تهديدها.

حملتْ الفستان ودخلت مرة أخرى إلى حجرة النوم.

بعد وقت قصير خرجتْ وهى ترتدى فستان الزفاف.

فستان من الدنتلا الموشاة بخيوط الحرير. رسومات لفروع نباتية مزهرة تنتهى ناحية شمس مخرزة بأشعة تمتد على جسدها الحى. طرحة خفيفة من نسيج غالى الثمن، تغطى رأسها الجميل الدقيق، وصحبة الأزهار الملونة تحتضنها بحنو يثير الغرابة والدهشة.

(وأنا أقف مذهولا تستبد بى الحيرة، أتساءل: ما الذى أصنعه بشأن ما يحدث أمامى؟! هل علىَّ أن أكون واقعيًا، وأحقق لها حلمها الغريب هذا، أو أجثو على ركبتى طالبا الفهم وحسن التقدير؟! من الذى استطاع أن يعيد ما مضى من أيامه؟)!

ـ يا حبيبتى، فكرى فى اللى أنت بتعمليه.

ـ فكرت ألف مرة.

أمسكها من معصمها وسحقها وصرخ فى وجهها.

ـ ده جنون!

انتزعت يدها منه وقد احمرت شرايين عينيها، وردت عليه الصرخة:

ـ المجنون، هو اللى عايز يحرمنى من أمنية صغيرة.

تنهد بضيق، وخاف أن يبكى؛ فانسحب منهزما ودخل فى بذلته الجديدة، وعندما خرج من الحجرة رأته وكأنما تراه أول مرة. استبد بها الفرح المفاجئ، واتسعتْ ابتسامتها وأخذت تنفض له كسوته بكفها فى حنّية، تدور حوله قائلة:

ـ فاكر، مكانش عندك ليلة فرحنا بدلة تليق. خطفنا تاكسى من بيت بابا حتى الشقة فى «عين شمس»، عند الخنازير! أنا لسه فاكرة نظرة

عينيك؛ كنت يائس وصعبان عليّ. وأنا كنت حزينة ولابسة فستان أى كلام. وكنت كل لما أشوف محل مصوراتى يندبح قلبى. الليلة دى فاكراها، كأنها حصلت امبارح، تصور!

خرجا من باب الشقة وهو معلق بيدها. يهبطان درجات السلم: هى غير وجلة، وهو يسقط فى فراغ شاهق كأنه الجب. مستثار؛ لم يستطع حسم الأمر لصالحه، يدفع بنظارته إلى وجهه، ولا يستطيع مفارقة ضربات قلبه، أو يعيد لتنفسه انتظامه. ودَّ أن ينتهى من الأمر بسرعة ويعود إلى مكمنه، وأسره؛ حيث كتبه، وصوره القديمة على الحائط.

فوجئت بهما الجارة يرتديان ملابس العرس؛ فشهقتْ برعب حقيقى إلا أن الزوجة لم تعطها الفرصة وابتسمت فى وجهها بوثوق جعلها تطلق بغير إرادتها زغرودة جلجلت فى الأنحاء.

عندما كانت فى الشارع أطلتْ كثير من الرءوس من الشرفات والنوافذ، ترى ذلك الحدث الخارق ولا تفهم ما يحدث. كانت هى تشير بيدها ناحية الشرفات والناس، وتتلقى التهانى بمحبة و دهشة.

شغّل السيارة، وتحركت «الستروين» قاطعة شارع «الطيران» متجهة إلى ميدان «روكسى»؛ حيث مصوره الخاص.

دخلا المحل؛ فقابلتها إضاءة خفيفة تكشف عن الصور فى الإطارات، وستارة حمراء على الحائط تنتهى بشراشيب تسقط على أرض الأستديو.

قال المصور للزوجة:

ـ اتفضلى. المرايا من هنا.

انحنى المصور ناحيته وقال هامسا :

ـ مبروك يا بيه ، زوجة ثانية؟ !

رمى المصور بنظرة ، وضغط أضراسه وأجابه :

ـ لا يا سيدى ، دى المدام .

ملأتْ الدهشة وجه المصور ، وقال فى نفسه : «الناس انْهَبَلَتْ»! ثم عاد وقال فى نفسه : «لكن وأنا مالى» : ثم دخل إلى حجرة التصوير يضبط كشافات الإضاءة .

على الشماعة صورة لجندول ، وزهرية ورد صناعى ، وعلى الشمّاعة عقال ، وجاكتة ، وبدلة لضابط .

قال الزوج :

ـ صوَّر يا سيدى!

استقام بجانب زوجته ، وضبط الوقفة بالتمام ، وأخذ ينتبه لزاوية التصوير ويحاول بجهد خارق أن يرسم على وجهه علامة الرضى والابتهاج . فى لحظة من زمن تأملها بجانب عينيه ، كانت عيناها تستحمان فى ضوء كشاف التصوير المشع ، يلفهما وهج مثير كلمعة الصباح .

قال فى نفسه : «ما أغرب تلك الحيوية التى تتصف بها بعض الأرواح ! » .

قال المصور :

ـ بصوا هنا . بلاش حركة . ابتسم يا أستاذ ، حبة . جميل كده يا مدام .

وضغط زر آلة التصوير .

مر أسبوع عاد لتيار زمنه . الكتب على الرفوف . أثاث حبات البندق ، كل قطعة فى مكانها . «باخ» يهبط من سمائه . إحساسه بأنه أصبح مسنا يروّعه . يراقب الأقفال على الحائط وكذلك الصقر المحنط ودفتر مذكراته ، وأعمال «نجيب محفوظ» الكاملة .

دخلتْ من الباب ، كانت تحمل الصورة ملفوفة بورق مزخرف ، ومربوطة بخيط ، ذهبتْ عند الجدار وانتزعت الصورة القديمة ، فكَّتْ الخيوط والورق ، وعلقتْ صورة الزفاف الملونة على الجدار ، كانتْ صورة كبيرة بدرجة لا تصدق .

«ورأيتها تقف تحت الصورة كمهرة برية ، تعدو فى اللون ناحية البراح ، وتستعيدُ أمنياتها . رأيت فى عينيها شرارات النار ، تبدو فى الصورة وقد عادت صبيّة متوجة بالطرحة وصولجان الورد ، وكأنها العروس الخالدة فى يوم عرسها الأول . تقف فى الصورة بامتلاء كأنه العشق ، فيما يقف بجانبها رجل لا أعرفه ، يبرز كرشه من حزامه وقد امتلأ رأسه بالشيب ، وخبا منه نور العين» .

رفة جفن

وأدركت بعد أن تعبت أن الأمر يخرج عن حدود الاحتمال. ثمة شوارع تفضى إلى البحر، وشرفات تطل منها العجائز، وشريط لقطار غرب المدينة يطلق صفارته كل حين ويغيب، وبيوت صغيرة، غالبا من دورين بسقوف من القرميد الأحمر تختفى داخل أشجار كثيفة تسكنها العصافير، ودائما ما يأتى صوت البحر رتيبا بالمخاوف والحنين.

«أنت جئت تبحث عن مصيرك أيها القادم، لآخر الأرض».

وعدتُ مرة أخرى من الدوران فى الشوارع وقد أنهكنى البحث عِن مـأوى، وأدركتُ للحظة أن مـا أبحث عنه فى هذه المدينة من رابع المستحيلات.

اندهشتُ لكَمٍّ العـربات التى تجـرها الجيـاد، تدرج فى شـوارع متقاطعة، مستسلمة لضوء نافذ من الجهات الأربع.

تأملتُ المدينة، وقاومت تعبى بالاستناد على جدار البيت الذى يستقر على جدول الماء الذى يذهب إلى البحر، حيث تبحر السفن مبتعدة.

هبط علىّ من الشرفة صوت امرأة:

ـ تدور على رجليك من أيام.

ـ أبحثُ عن مأوى.

ـ تقصد سكنًا؟

ـ أقصد أى مكان لبدنى، حتى لو درجة سلم.

انتبهتُ للصوت الذى يكلمنى، فرفعت رأسى إلى أعلى فوجدتها هناك تبتسم، ويضوى وجهها باحمرار الدم وتلك البسمة الغامضة. ورأيت صدرها يطل من طوق فستانها ويرقد على سياج الشرفة الخشب، وأيضا لحم الذراعين.

قالت:

ـ عندى ما تريد.

ـ المأوى؟!

ـ الملاذ.

ـ صحيح؟!

ـ بيت مستقل لك وحدك.

ـ أخيرا!

وكنتُ أدور فى الشوارع من شروق الشمس حتى غروبها، انتهى بى الأمر إلى شريط القطار الذى أتأمله راحلا، مختفيا فى الأفق البعيد، وكنت أرى البيوت قبل أن تفتح أبوابها، ثم أرى نسوة المدينة المستحمات يخرجن من البيوت متوجهات إلى مكان لا أعرفه، يحملن السلال فى أذرعهن، لابسات أثوابا فضفاضة تمتلئ بهواء البحر، وكن يتكلمن، ويسرن متوحدات يتأملن بعيونهن الطرق ويشهدن صوت الموج.

لم أصدق ما سمعته من سيدة الشرفة، و خفتُ أن الأمر ربما كان مزحة تطيل الحزن والحيرة.

أشارتْ بيدها: أن أدور خلف البيت وأقابلها هناك.

استجبتُ للإشارة وعبرت ممرا معشبا، على جانبيه بعض أشجار المشمش والليمون.

انتظرتُ لحظة واقفا أمام الباب؛ أتأمل كشك الخشب المسكون بالنباتات.

انفتح الباب ورأيتها تخرج بجسمها الفارع الرشيق، وهيئتها المقتحمة. تسربتْ الطمأنينة إلى قلبى، مختلطة بمخاوف الخواتيم والنهايات. وأحسستُ بالتعب يفارقنى وأنا أتطلع لهذه السيدة التى خرجت لى من حيث لا أحتسب.

رأيتها تبتسم.

سألتُ:

ـ ممكن لو سمحت، أعرف الإيجار؟

اتسعت ابتسامتها ورأيت لمعة الشمس فى أسنانها.

ـ لا تتعجل، دعنا أولا نعاين المكان.

سارتْ أمامى، وسرتُ خلفها. كانت ترتدى فستانا فى لون السماء الصافية، محبوكا على جسدها المشدود. كانت تزيح شعرها عن وجهها وتنظر ناحيتى كل حين.

كنا قد اقتربنا من البيت الذى حدثتنى عنه:

بناء عتيق يقع خلف بيتها الكبير الذى يطل على الشارع، ويحتل مساحة كبيرة من الأرض.

كان البناء من حجر. دور واحد، له شرفة دائرية بسور من خشب قديم، وله سلالم صاعدة من رخام أحمر، يتدلى من سقفه أمام الباب فانوس من نحاس مطموس اللمعة، مسلسلا بسلاسل سوداء، يواجهه عقد يتوسطه نقش لامرأة ورجل عليهما مسحة من حزن وانتظار، مصراع الباب من حديد أسود على شكل كف آدمية قابضة.

واجهتنى وهى تبتسم، فابتسمتُ لها بتقدير حقيقى لكننى لم أسترح هذه المرة لابتسامتها الغامضة تلك. حدثت نفسى: «انتزع مخاوفك، جيرة طيبة، ومأوى يأتيك على غير انتظار».

فتحتْ الباب؛ فسرى فى المكان صوت كالأنين، ولاحت أمامى صالة واسعة على نحو ما، تحددت معالمها عندما فتحت النافذة على حديقة جانبية، وشع فى البيت نور النهار.

رأيتُ جفنيها يرفان عندما غادر البيت الهواء المحبوس. أخذْتُ من مشهد البيت وأحسستُ أنها مزحة، أو فخ من الفخاَخ ينصب لى.

صور ملونة على الجدران لعائلة ترتدى ملابس أغوات بادوا، صارمى الوجوه، تحدق عيونهم فى الفراغ المحبوس تحت الزجاج، مبتسمين، قطعة من قطيفة ملونة نقشت ببعض أبيات الشعر لم أستطع أن أقرأها لقدمها. شمعدانان على دولاب الإستيل الصغير، على رفوفه من الداخل تماثيل من بورسلين وصينى ملون.

تأملت صورة لسيدة على الجانب الأيمن للجدار تبتسم بورع، وأخذتُ أقارن بينها وبين السيدة التى تقودنى الآن. ينبغى علىَّ أن

أعترف؛ فلقد سحرنى البيت بأثاثه الرصين ورائحة البخور المحترق والتى لم أستطع معرفة من أين تهب.

أخذتْ تفتح أمامى الحجرات، وأنا كمن يطل على أحد المشاهد فى متحف قديم. ملأت عينى بالصور الملونة، وشعتْ الألوان بروحى وأنا أحاول الهرب من الأسئلة التى تحاصرنى تلك اللحظة الغامضة.

ـ عظيم يا مدام!

طوحتُ يدى فى الفراغ، وعادت تحاصرنى المخاوف من جديد، ووجدت نفسى أهمس: «أية لعبة تلعبها معى هذه السيدة»؟!

التفتتْ ناحيتى، وردت باب الحجرة التى كانت تقف أمامها.

ـ أعجبك البيت؟

ـ جداً. نتكلم فى الإيجار.

ـ ليس وقته الآن. قلت:

ـ أنا لا أفهم.

ـ سوف تفهم. سوف نتكلم عن الإيجار بعد أسبوع من إقامتك. خطتْ ناحية الباب الخارجى، ثم وقفت تجاهى تتأملنى. ورأيت ظلا يكسو ما تحت حاجبيها، وعينيها تشعان وميضا خاطفا. قالت:

ـ على فكرة أنت لم تسألنى: لماذا هذا البيت خال؟

ـ فعلا.

أطلقتْ ضحكة مفاجئة، أحسستُ لحظتها أنها تخترق بدنى، مندفعة إلى شرايينى. رأيت وجهها يكتسى بملامح الصور على الحائط

وقد شملته متعة خالصة. كان شعرها الآن، يتراسل فى الريح التى اشتد هبوبها فجأة. أعطتنى ظهرها وسارت، وسمعتها تقول:

ـ يقولون عنه فى البلد: إنه مسكون.

ثم توقفتْ فى الممر، واستدارت ناحيتى مبتسمة.

قلت لها:

ـ أكيد، سيدة مثلك لا تؤمن بالخرافات. قالت:

ـ على أى الأحوال، إذا رأيت أو سمعت شيئا قاومه باليقين.

ـ اليقين؟!

ـ بالطبع. ألم أقل لك؟

ـ ماذا؟!

ـ أنا أنتظرك من زمان.

وواصلت سيرها حتى اختفت عن عينى.

غرقتُ فى منطقة السحر، وغصتُ فى تلك البحيرة التى صنعتها لى هذه السيدة. تأملتُ المنزل، ووجدتنى أطير فرحا، هامسا لنفسى: «لا شىء يهم. المهم المأوى». جلست على الكنبة فى الصالة، وركنت رأسى على مسند المقعد وأغمضتُ عينى. ثمة خدر يسرى فى بدنى ويشدنى لنعاس يخرج من كل مسامى. كنتُ أقاوم وأحاول النهوض؛ لأحضر متاعى من الفندق البحرى، لكننى لم أستطع النهوض. غرقت من غير إرادة فى نعاس ثقيل.

نهضتُ على دقات الساعة قبل الفجر.

سمعتُ صوت الموج، وعشت لحظة المفاجأة التى لم أصدقها.

كانت أنوار البيت كلها مضاءة على نحو احتفالى. الصور على الحائط، الأثاث الرصين والسجاجيد مفروشة على الأرض.

وقفتُ. «ما الذى يحدث هنا؟»!

بلعتُ ريقى الذى جف، وتلفتُ حولى بذعر، وهمستُ: «لقد قالت: قاوم باليقين». خطوتُ مغادرا حجرة الجلوس عندما سمعت ضرب أوتار العود، وقلت: «أنت لست تقيا إلى هذه الدرجة». كنت كمن يسبح فى الضوء، وسمعتُ صوتى: «ما الذى جرى هنا؟». وبحثت عن يقينى فى هذا البيت المشع بالنور.

كان وتر العود يصعد بنغم فاتن من إحدى حجرات البيت، مصاحبا لغناء امرأة من شجن. كنت أسبح فى نشوة شملتنى، وأقاوم ما أنا فيه، خائفا من ضربة جنون مفاجئة.

بدأت بفتح الأبواب بابا بعد باب، باحثا عن مصدر الغناء، عن صوت السيدة. وكنت أسير عبر الممرات المضاءة كأننى أخرج من بطون المتون القديمة، المسطرة ببهجة الكلمات، والمصورة بالصور الملونة، والمشغولة بأنسجة الحرير الهندى والصينى.

روائح تهب من الأركان علىّ، وأنا أقف من يومها أتأمل ما أنا فيه، أدور فى الحجرات، تنقضى السنوات وتأتى حتى ذلك التاريخ الأخير من العمر الذى يدفعنى للسير فى الأروقة القديمة، مفتح العينين أنتظر واقفا أمام الأبواب المشرعة على الفصول، والصور، وصوت البحر،

أسمع ذلك الغناء الشجى، وضرب ذلك العود اللذين لم أعرف أبدًا مصدر سطوعهما.

وظللتُ طوال جلستى فى هذا البيت، أمارس من غير وعى إشعال روحى، داخلا فى نفق ذاكرتى، منتهيا إلى تأمل تلك المسافة بين التذكر والحنين.

رائحة الليل

فى الليل.

يستعصى المنام، ويدرك الشيخ القَلِق أن ليلته طويلة ككل ليلة، وأن لا عزاء لروحه المتعبة.

يتوسل «فراج» أفندى، الشيخ الطاعن فى السن على النوم فلا يجىء، لحظتها يحلو له أن يستعيد أيامه ليدفع عن نفسه الوحدة ويتعزى بما كان.

يجلس على حافة السرير، كفَّاه على أذنيه، مطرق الرأس وقد انحبست حياته بين هذه الجدران أربع سنوات طويلة، بعد أن فارقته زوجته بالممات، وتزوجت ابنتاه، يراقب الصراصير وهى تدخل من تحت ثقب الباب متجولة فى طريقها إلى الحمام. يجلس، يضنيه السؤال: لماذا يشعر بأن أيامه غير محتملة، وأنه فى آخر العمر يبدو كمتاع قديم، زائد عن الحاجة؟

جدران باهتة، وستائر مهترئة فارقها اللون، أثاث من زمان يقاوم الفناء، وسجادة على الأرض امحت صورها الفارسية، وإطارات على الحائط تحتجز صوراً لذكريات قديمة، وصورة لزوجة على خوان «الإستيل» المجزع بالنحاس المطموس اللمعة.

رائحة الليل

فى الليل .

يستعصى المنام، ويدرك الشيخ القَلِق أن ليلته طويلة ككل ليلة، وأن لا عزاء لروحه المتعبة .

يتوسل «فراج» أفندى، الشيخ الطاعن فى السن على النوم فلا يجىء، لحظتها يحلو له أن يستعيد أيامه ليدفع عن نفسه الوحدة ويتعزى بما كان .

يجلس على حافة السرير، كفَّاه على أذنيه، مطرق الرأس وقد انحبست حياته بين هذه الجدران أربع سنوات طويلة، بعد أن فارقته زوجته بالممات، وتزوجت ابنتاه، يراقب الصراصير وهى تدخل من تحت ثقب الباب متجولة فى طريقها إلى الحمام . يجلس، يضنيه السؤال : لماذا يشعر بأن أيامه غير محتملة، وأنه فى آخر العمر يبدو كمتاع قديم، زائد عن الحاجة؟

جدران باهتة، وستائر مهترئة فارقها اللون، أثاث من زمان يقاوم الفناء، وسجادة على الأرض امحت صورها الفارسية، وإطارات على الحائط تحتجز صوراً لذكريات قديمة، وصورة لزوجة على خوان «الإستيل» المجزع بالنحاس المطموس اللمعة .

ـ كل ليلة، الذى نبيت فيه، نصبح فيه.

صمت قليلا، ثم قال:

ـ لعلهم يخرجون الآن.

نهض خارجا للصالة، ثم وقف فى الوسط. بدا كمن نسيه الزمن تحيطه سكونية باردة، ويفعم روحه إحساس بالمهانة. ما يؤذيه أنه بعد هذا العمر يجد نفسه يتسول لحظة من حنية؛ فلا يجدها.

جلس على كرسى فى الصالة بعد أن فتح باب الشرفة. تأمل الليل وأشعل سيجارة. الشيخ الضئيل يتنفس متنهدا، طاردا من صدره الدخان، متأملا مصباح السقف الملون الذى يفرش الأرض بأخْيِلَةٍ ملوّنة، وثقوب من النور تبرقش السجادة القديمة.

ـ حتمًا سيخرجون، ككل ليلة. سوف تأتى أصواتهم.

انفتح باب الشرفة التى تقع فى الجانب الآخر من الشارع، وسمعهم يخرجون. هتف لنفسه:

ـ شىء طيب. هم الآن يخرجون، ويتكلمون.

يجلس الجيران فى الشرفة بين أصص الزرع، تحت «التندة» القماش. يسمع ضربات أحجار «الدومينو» و«الطاولة». يتذكر حديثهم بالأمس. يود أن يواصلوا ما انقطع. يعرف أن ابنهم المسافر سوف يعود، وأن الولد الصغير يحلم كثيرا ويتكلم فى نومه، بل يعرف أيضا العلاقة التى تربط البنت الشابة بجارهم الشاب. يأتنس بالصوت والبسمة، والموسيقى المنبعثة عبر الشارع حاملة الألفة والونس:

ـ والله يا مصطفى، الصيف فى الساحل الشمالى أحسن.

ـ لا يا بابا، لا تطاوع ماما. لا يوجد أحسن من إسكندرية.

وأنا مالى، أنا عاوز أسافر «قبرص» هذا العام.

ـ يا جماعة، الصيف عليه بدرى.

هاهم يثرثرون فيأتنس. يكسرون حدة الوقت، وإحساسه المروّع بوحدته، كأنهم أسرته. يصبرون روحه بالتعازى القديمة، ويسرى فيه تيار من الشجن، ويشعر بدمعة ساخنة تطفو من عينيه، فيما يسمع صوته خارجا من بين ضلوعه.

ـ فقط، خاتمة من الونس.

سمع تثاؤبهم، فأدرك أن النوم قد حل، وأنهم على وشك الفراق. غادروا الشرفة وأغلقوا بابها؛ فحل الصمت، واحتاج هو وقتا كافيا ليدرك من جديد أنه أصبح وحيدا. مسح بعينيه الشارع، ورأى من خلال غفوة مفاجئة جمعًا من الناس وقد ارتدى السواد، يخوض عبر الصمت شارعا غارقا فى انعزاله. يحملون نعشا يسبح فوق الرءوس. يسيرون به فى جنازة صامتة تحت مصابيح شحيحة النور ويعبرون المنحنى الذى يقود إلى المقابر القريبة. كانوا يخوضون فى أرض موحلة وقد أشبعها المطر، انتبه، بعد أن ضربت رطوبة الليل عظم الشيخ فنهض ودخل شقته وأغلق الباب. سمع رياح الخماسين تهب على نحو مفاجئ، وتدور بتراب الشارع الذى يقطعه الآن، صخب سيارة عابرة.

شغل المذياع فأتى الغناء التركى من بعيد يدفع إلى قلبه الماضى بغير هوادة، وانفتحت الذاكرة على طاقات من ضوء باهر كاشفة ومعزية، تذكر أنه كان يعشق تلك الأغنيات. وأنه كثيرا ما سمعها على أسطوانات تدور فوق «فينوجراف» عتيق.

قال لنفسه: «على المرء أن يرضى بخواتيمه». واقترب من الصورة المعلقة على الجدار «عليك أن تعتقد فى ذلك». الصورة فى إطارها البنى الكالح. هو وزوجته وطفلتاه يقفون على شاطئ البحيرة فى «أسوان». ذلك الامتداد الهائل للماء، وتلك النوارس البيضاء تحط منقضّة على الصفحة البيضاء فى نبض حى. الفندق القديم، وحديقة النباتات، والجنادل الجرانيتية الجاثمة فى المجرى وقد رسمت عليها الكتابة. الطيور، والشموس المشرقة، والعربات المتوجة بالسهام الملكية تضوى فى شمس الشتاء. الصورة تأتى للذاكرة بما فات وانقطع. يتأمل النظرة فى العيون، وتهب رائحة المكان، ويلحس بشفتيه طعم الريح.

يندهش «فراج» أفندى من ذلك الماضى الحى الذى له رائحة الحليب، والذى يتسلل من أركان الشقة، فيحيل بدنه الهش إلى أسى على نحو يجعله يقاوم البكاء. كأن زوجته تأتى من الممر، الذى يقود إلى المطبخ، تحمل صينية عليها أطباق من الحلوى، تتبعها ابنتاه، ورآهن يجلسن عند قدميه على البساط الجديد وينظران إلى النجوم. صاح:

ـ هكذا أنت. تدللينني كالأطفال.

ـ ومن غيرك يستحق أن يدلل.

خفق قلبه، لا يكف عن محادثة المفارقين، وسمع تنهداتهم فى الأركان.

ابنتاه. أين هما الآن؟

تقطنان بالضاحية البعيدة من المدينة وقد انقطعتا عن زيارته، وانشغلتا بحياتهما، حتى فى الأعياد والمواسم تكتفيان بالاتصال به

بالهاتف، وإنه بين الحين والحين يقطع تذكرة المترو ويذهب لزيارتهما لكنه بعد وقت قصير يرى الضجر فى عيونهما؛ فينهض واقفا:

ـ سوف أذهب.

ـ ما بدرى يا أبى.

يتأملها ويعرف أنها دعوة للفراق.

نظر إلى فراشه، وخاف أن يأتيه الموت فجأة؛ فتوجه إلى دولابه وأخرج بذلته المخططة وخرج من الشقة فى هذا الهزيع الأخير من الليل. يهبط السلم وبداخله يخيم آخر العمر. رأى عددا من القطط تعلو صفائح القمامة فى عراك صاخب. سمع صفير القطار فى البعيد، وعاين ريح الخماسين وهى تشتبك مع النجم. كانت المدينة قد هدأت تماما وقد تغيرت شوارعها.

كان يمشى من غير هدف فى وحدة خالصة.

عبر سياج المتحف القديم، وشريط الترام، ورأى قبة البرلمان، وقرأ على الحائط إعلانا عن معركة الفرسان.

وجد نفسه أمام قسم شرطة وسط المدينة العتيق، فى ذلك الشارع المنسى، الذى عايش أزمنته المتواترة. غادر بوابته وسار فى الممر الذى يتوسط حديقة خربة، وصعد الدرجات الثلاثة حتى إذا ما وصل الباب؛ برز له العسكرى المناوب فى كسوته السوداء سائلا إياه:

ـ إلى أين يا والدى؟

رد عليه بصوت كأنه احتراق الشموع:

ـ داخل. عاوز أقدم بلاغا.

وردة الليل

كانت «القاهرة» قد غادرتني .

و«إسكندرية» تبدو أمامي كحلم .

ليل على البحر ، ونجوم نابضة في قلب الماء ، وسيارات على الكورنيش تقطعه في سرعة الريح .

حاولت بقدر ما أستطيع النفاذ لذلك المعنى الخفي الذي يشي به المدى المفتوح ، وأنا أدرج وحدي على شاطئ المتوسط .

قلت : «تهرب؟» ، وأجبت «إلى أين؟! كل المصائر متشابهة ، تنتهي بالزوال ، وبعد هذا العمر تبدأ من الصفر» .

كان المحقق قد قال لي : «نطلق سراحك الآن . . إياك أن تظن أن عيوننا بعيدة عنك» . وكنت قد أجبته في اللحظة نفسها وأنا أتأمل عينيه الكاسرتين : «بأن الحال مثل بعضه ؛ الخارج مثل الداخل ، والحياة آخر الأمر مرعبة بدرجة لا تصدق» . ابتسم بخبث نادر عندما تأكد له من زمان أن الوهج بين الضلوع قد خمد . استدعى «القط» الأسود القديم الذي لمحت عينيه الصفراوين لا تطرفان ، تحدُجانني بدربة ، وقد أشرع مخالبَه ، وماء .

قال :

ـ القط. تعرفه بالطبع؟!

ثم أطلق سراحه فأخذ يعدو فى الممر، فيما انطلقت أصوات طيور الليل الجارحة تنبح من فوق المآذن العتيقة.

أخطو على الكورنيش، أمامى الجزيرة الصخرية يلطمها الموج، أعبر ذلك الماضى بقلب يحمل كثيرا من الانكسار، تتملكنى مشاعر متضاربة. أبحث عن يقين، وعن معنى. [الإسكندرية، مدينة السعادة المؤجلة، والإجابات الغامضة، وهواء البحر ينزف الحنين. وأنت تقاوم ما مضى؛ لعلك تستعيد روحك].

مقهى «وردة الليل» تحت مصابيح النيون، وموائده المصفوفة على الرصيف، وصور لسفن إغريقية راحلة فى بحر من سديم، وبنات يونانيات على الحائط بصدور عارية، ووجوه من تاريخ هيلينى.

جلستُ. بجانبى طاولة تكمن بعيدا عن الضوء وطلبتُ قهوة.

كأننى غفوتُ، أخذنى النعاس وراح. أم إننى كنت متيقظا أرى بعينين مفتوحتين. ما أدهشنى أننى كنت أراهن يخرجن من الماء، حوريات فى فساتين بيضاء كالملائكة. أسمع ضحكاتهن وهن يسرن بشعور مسدلة، وأثداء عارية، همستْ الحوريات: «ادفَعْ ذكرياتك المؤلمة بتأمل المشهد». عبث خفيف، وأصوات مختلطة تنطق بما هو خارج. أدركتُ لحظة تأملهن بأن البحر يُخرج من مدينته الغارقة لآلئ الحسن، وانتظام الكائن.

كنت أحاول بما أحمل من مشاعر الفقد، البحث عن وجهها بينهن. أتأملهن وجها وجها، لكننى لم أعثر عليها أبدا.

بكيتُ بصوت مسموع: «على من تبحث؟! وبأى الوجوه البعيدة تفيض الذاكرة؟»!

أحسست بمن يدفعنى فى كتفى:

ـ أستاذ، أستاذ، أفق.

فتحت عينى؛ رأيتها. كانت منحنيةً أمامى، وجهها قرب وجهى ولها رائحة من ياسمين.

ـ أنت نائم. أنت تبكى.

مسحتُ وجهى، وأخذتُ أتأمل وجهها بغمازتيه، ورأيت عينيها السوداوين تشعان بالنور، وشعرها الأسود الفاحم ينام على كتفيها. «كأننى أعرفها. كأنها صاحبة الوجه الذى يأتينى فى الحلم. هى التى كانت من قبل عشرين عاما، قبل أن يوغل العمر، ولم يعد للقلب سوى الذكريات».

ـ أفندم.

جلست بجانبى وطلبت كوبا من الماء، وقالت «اشرب»، ورأيت فى أصبعها خاتما على شكل تميمة من الفضة، وفى معصمها سوارا من الذهب. بسمة بين شفتين ملونتين، وأنف حاد مستقيم، وحنية من عينين تعرفان الخجل.

كان وجهها مريحا، وكلما هزت رأسها؛ سمعت رنينا لأجراس القرط الذى تشبكه فى أذنيها.

ـ أنا آسف.

ـ أبدًا. كلنا نبكى فى المنام.

دار هواء البحر بالموائد، وشعرت ببرودة فى جسمى.

قلتُ:

ـ هى الساعة كم الآن؟

قالت:

ـ الفجر قّرب يطلع.

ـ أين نحن؟

نظرت فى عينى وابتسمت، أجابت:

ـ نحن فى مقهى «الوردة».

كان المكان مزدحما بالفتيات. ملابس ملونة وعطور رخيصة نفاذة، وهرج فى الأنحاء. يقفن أمام بار من الرخام الأحمر، خلفه رجل من نسل أغراب، يرتدى سترة بيضاء، ويعلق فى رقبته فراشة حمراء، بجلده شقرة، وفى عينيه مكر الثعالب. رأيت بعض رواد المقهى يتأبطون أذرع الفتيات وينصرفون، فيما يعلو صوت اليونانى:

ـ لا تتأخرن فى الغد.

كان رجل يضع رأسه على البار، يرفعه لحظة ليحتسى كأسا من البراندى، يصيح بصوت تعتهة السُكْر: «لا يمكن أن يطول الأمر، لم تعد الأشياء تحتمل»، ثم راح يبكى. كان من غير المجدى أن أعتصر قلبى، ولسوف تذهب تلك الفتيات إلى البحر، فيما أنا باق أستعيد أياما محفورة فى القلب كالوشم.

تساءلتُ:

ـ من هؤلاء؟، أجابتنى :

ـ الفتيات .

لم أفهم، ولما رأت استغرابى أكملتْ :

ـ نحن فتيات ملهى «الكيت كات» . آخر الليل نأتى للمقهى ليصطحبنا الزبائن . محطة، ندفع العمولة للخواجة وننصرف .

صمتتْ قليلا ، ثم قالت :

ـ هيا بنا .

نظرتُ فى عينيها ، كانتا تشعان بالجمال والمرح .

نسير على الكورنيش المسمى بطريق «الحرية» . أغيب عنها لحظات من زمن وأغوص فى الحجرات الضيقة والتى فى حجم المقابر ، والرفاق يمشون ووجوههم إلى الأرض، ثم يعودون آخر الليل محمولين، وكنت أسمع صراخهم يأتى من ممر القطط إلى زنزانتى ؛ فأقبض على قلبى من الرعب .

ـ مالك؟!

ـ سلامتك .

ـ كأنما تنظر عيناك للداخل .

ـ أبدًا . الأمر ليس كما تتصورين .

أخذت كفها وسرنا حتى شارع «طيبة» بأشجاره الليلية ، وبيوت الباروكية العريقة ، نخوض فى السكون من غير صوت . كانت تعرج بجانبى قليلا .

«وكانوا قد نقلونى من مدينتى آخر الليل فى السيارة «الفورد». وحين واجهنى البرج القديم الذى يمتطى البناء العتيق، ورأيت العقد المملوكى الذى ولجت منه إلى الممر؛ لأقف أمام مكتب الرجل الذى يجعل عينيه تأتيان بالرعب، والذى تسعى القطط بين يديه، ورجليه، وحين فاجأنى مبتسما: «أهلا»، ولما لم أرد التحية قال لى: «لماذا لم ترد يا ابن القحبة»؟! ثم أمرهم أن يجردونى من ملابسى، وأخذ يتأمل بشغف بدنى العارى، وفتش حقيبتى، وحين عثر على صندوق الشاى الصغير؛ ضحك بوحشية وأخذ يصيح بصوت ردده الليل: «شاى! فاكر نفسه عند أمه»، وأمرنى وقد جُن أن أسُفّ الشاى. ثم رأيته يخرج قداحته من جيبه ويشعل فى ذقنى النار».

وصلنا شارع «تانيس». لاحظت عرجا برجلها اليمنى يزداد. سمعت البحر يطوى موجه ويفرده، وسمعتها تدندن بلحن شائع عن حنين مؤجل. ووجدتنى أتلو فى الليل بصوت منغم:

وإذا أنا لم أعد أنا

وإذا بيتى لم يعد بيتى

دعونى على الأقل أصعد حتى

الأسوار العالية

أسوار القمر

حيث تتفجر المياه.

كانت تقف بالقرب منى عندما صاحت:

ـ كلام حلو. جميل!

ـ شاعر أطلقوا على ظهره النار .

أشارت ناحية بيتها ، ودخلنا من باب الفناء ، أشعلتْ شمعة فبانت شجرة ياسمين بجانب الجدار ، وصعدنا درجات ثلاث .

قالت :

ـ تفضل .

دخلتْ صالة البيت المتوسطة ، والتى تفضى على حجرات مفتوحة على الصالة . صورة على الحائط لبستان ، وسفينة لها شراع ، وصورة شائعة للطفل الباكى .

ـ تأكل ؟

ـ شبعان .

ابتسمتْ بجلال ، ورأيتُ الغمازتين تسطعان تحت خال الحسن ، وشعت فى المكان رائحة الياسمين . العرج فى رجلها يقلقنى ، لكنى كنت منبهرا بسعادتها التى تضوى فى البيت ، ذلك الوقت الأخير من الليل .

«وكنت قد تمالكت نفسى عندما صنعتُ من لباب الخبز تمثالا لطائر مغرد مفرود الجناحين ، وضعته على الرف الخشب المدقوق فى الجدار ، أطالعه كلما شعّ النور ، وفى الظلام أستأنس بوجوده عندما يجثم على البناء المحفور فى الجبل» . قالت لى عندما ، لاحظت شرودى :

ـ رحت . أنت لست معى .

ـ أنا معك .

تذهب وتجىء كالموج.

ابتسمتْ، وتأملتنى بشوق، فشعرتُ بمدى صفاء عينيها.

كانت تقف تحت المصباح تشع بالنور.

رأيتُ صورتها تنعكس فى مرآة الصالة. قالت:

ـ ألست جميلة؟!

ـ جداً.

أخذتها فى حضنى، وقبلتها فى شفتيها. انزاحت القلاع القديمة، وصوت النسور، ومواء القطط، ونظرة العين. قالت: «الليل بارد»، وتداخلت بجسدها الدقيق فى صدرى، وتأكدتُ بأننى آخر المطاف قد وجدتها.

اشتعل منا البدن، وسمعتها تقول: «لحظة»، رأيتها تخلع بلوزتها؛ فتأملت صدرها الجميل، ونحرها الدقيق. سحبتْ الجيب الأبيض.

تأملتُ؛ فارتعتُ، وخفتُ أن أصرخ فى الليل.

كنتُ ما أزال أقف تحت صورة الطفل الباكى، وكنت أراها تفك «أبازيم» ساقها الصناعية، وتنظرَ ناحيتى وقد غابت ابتسامتها.

حجلتْ حتى اقتربت منى، وصرخت فى وجهى متألمة:

ـ رجلى مقطوعة «هيه».. شايف!

كانت قد خلعت رجلها الصناعية وبدت رجلها الأخرى المبتورة أشبه بجناح حمامة منتزعا ريشه. كانت الرجل مقطوعة من تحت الركبة، تمتد فى الفراغ كيد طالبى السؤال.

قبل أن تنخرط فى البكاء، اندفعت ناحيتها بكل قهر نفسى، بفزعى الذى اجتاحنى فجأة، وأخذتها فى حضنى، وحملتها لتغيبنا الحجرة التى يتسلل على جدارها فرع الياسمين.

العُرَاة

عندما ولجتُ من باب حجرة المستشفى نصف المُضَاءَة، وجَدْتُه مُلْقًى على السَرير معطوبًا. تلاقَت عَيْنَانا فى لمحة جعلَتْه يشيح عنى ويخفض جفنيه.

خطوتُ ناحيتَه، وقَبَّلْتُ جبهته وقلت له: «لم أكن أعرف إلا من ساعات». عاد يَنْظر إلَىَّ بنظرة طويلة ولم يجب. كان صامتا يعكس وجهه حزنه.

وخفتُ أن يكون قد فقدَ النطقَ. قلت:

ـ شدة وتزول. عاد ينظر تجاهى ولم ينبس بحرف. وبدا على نحو كمن يحاول أن يتذكر شيئا ضاع منه، وراح يمسح جبهته بيده اليمنى السليمة، ويشد بها جلد رقبته الذى تهدل، ثم شرد وظل يتأمل الصورة على الحائط، ثم عاد وزفر زفرةً عميقة أعقبها برسم ابتسامة ساخرة ومريرة.

سحبتُ كرسيًا وجلستُ بالقرب من رأسه.

ـ سوف تنصلح الأحوال.

قلتها ولُذْتُ بالصمت. شدَّ الملاءة التى تغطيه وأحكمها على بدنه. شعرت كأن ألمه قد تسرب إلى أعضائى، وكأننى أحمل مصيبته.

جعلتُ أفكر فى ذلك الجو الخانق، وحالة الرطوبة الشديدة التى تحاصر المستشفى.

تأملتُ النيل الذى كان يطل من النافذة، وثمة مراكب راحلة، وجزيرة طافية موشومة بزراعات موسمية تنتظر حصادها، تناوشها بعض طيور بيضاء، تطلق أصواتًا تشبه الصراخ، ودخان مصانع الطوب يعلو إلى السماء فى ستائر خفيفة مسودة.

قال لى من غير أن يواجهنى:

ـ تأخرت.

فوجئتُ بصوته يخرج واهنًا، حينئذ شعّت بداخلى لحظة من فرح. قلتُ بصوت مرتفع قليلاً:

ـ كنت مسافراً. قالوا لى لما رجعت.

رأيته يحاول سحب جسده حتى ظهر السرير. نهضتُ؛ لأساعده لكنه رفض واستكن مكانه، ترمش عيناه برفات سريعة.

انفطر قلبى وهربت من كلمات العزاء. تذكرت بلا وعى؛ حيث تتابعت ذكريات قديمة، ولم أستطع أن أدفع عن رأسى ذلك اليوم المطير، الذى صحبنى فيه إلى قريته، وكنا نسير على جسر نهر صغير وسط الغيطان، وكان يسبقنى بخطواته الواسعة، الرجولية فاردًا ذراعيه مستقبلا الزخات، متكلمًا عن ذلك الشيخ العجوز الموحش الذى قابلناه خارج العمار، وكأنه حارس الموت، وعندما وقفت أتأمله؛ صاح فىَّ: «كما تعرف، أنا وأنت ريفيَّان مثل حزمة من الخس، أما هذا فلا يبدو عنده الباطن مثل الظاهر، إنه ينتمى لهذا المكان الذى سوف يُدفن فيه».

سار خطوات، ثم جاءنى صوته: «سأنتهى من كتابى عنه قريبًا». وسَّع من خطوته وسار تجاه البلد، تجلجل ضحكته كالجرس. وأتذكر أننى سمعته يقول لى: «الحياة من أمامنا يا رجل». برد النهار فجأة وشعرتُ به فى عظامى وهبت على الحجرة رائحة دواء نفاذة، وكان بمقدورى سماع عربات تنقل المرضى وتدرج على الممر الطويل تصحبها سعلات واهنة.

كانت لمعة الضوء النافذة من أعلى الشباك إلى بؤبؤ عينيه تبدو بغير جلال. رحت أتذكر لونها العسلى الرائق وذلك الوهج الذى كان يشع فيها، عندما كان يتأملنى وهو يستمع إلىَّ، ثم ينفجر فى الضحك بصوت الجرس. سمعته يهتف بى:

ـ ما الذى سوف أفعله الآن؟!

حاولتُ أن أتسلل إلى روحه، لكنه كان يهرب منى إلى ذلك الأسى عن نفسه. كان منشغلا بتفاقم حالته، وهو فى كل الأحوال لم يستطع أن يستوعب تلك الضربة التى لم يكن ينتظرها. قال:

ـ أنت تعرف أننى كنت أسعى أن تكون الأمورُ غير ما انتهت إليه.

ـ كلنا حاولنا، ولسوف تنصلح الأحوال.

ـ لكننى أنا الذى دفعت ثمنًا فادحًا.

صمتنا لحظة، ثم وضعت كفى فوق كفه وقلت:

ـ شدة وتهون.

أزاح يدى عن كفه، وحرَّك يده السليمة، وأمسك بها يده الميتة، وظل يحرك بها أصابعه، وشرد بعيداً، ثم قال:

ـ إن ما يضيع منك هو آخر الأمر حياتك. . . !!

بدأتُ أشعر بطعم دخان حريق مصانع الطوب فى فمى، ورائحة دواء المستشفى تفوح من الأركان. عدت مرة أخرى للصمت وعدم الكلام، فيما راح يحادث نفسه:

ـ أنا فى وضع، لا أتمنى لأحد أن يكون فيه.

مسح جبهته بيده السليمة، ثم نظر تجاهى بنظرة عدائية، وقال بصوت مرتفع قليلا:

ـ لماذا أنا بالذات؟! . . . الآن لا يمكن الاعتماد على أحد.

ـ الدينا بخير، ولا تزال صالحة للعيش.

وَصَلَتْ إليه كلماتى مجانية وفارغة، تصدر عن رجل يستطيع أن يغادره الآن ويذهب على رجليه إلى داره. وبالرغم من أننى كنت أقولها صادقًا، لكنها بدت ككلمات العزاء فى مآتم الأرياف. كانت الحجرة ضيقةً ومدهونةً بلون سماوى، بها سرير سفرى من الحديد، بجواره كومودينو من الصاج الرمادى، ومنضدة عليها تلفزيون ١٤ بوصة بالألوان، وستارة على النافذة زرقاء يسقط من أعلاها ضوء مسائى شاحب، وصورة على الجدار لإكليل من الزهور داخل طبيعة صامتة. قال لى:

ـ افتح التليفزيون.

ضغطتُ مفتاح التشغيل، فانبثقت الصور على الشاشة الصغيرة فى الوقت الذى صدحت فيه موسيقى كنسية، تصاحبها أصوات إنشاد لكورس خفى لنساء. كان الفيلم أبيض وأسود من طراز الأربعينيات

العتيق، يتجلى مشهده داخل كادر متحرك على زقاق قديم، مُقَامَةٌ على جانبيه بعض المنازل التى تشبه بيوت العصور الوسطى، والتى تنتهى بأبراج عالية، وقد نُصبَ فوقها صلبان من الحديد الأسود المشغول، تحمل جسد المسيح ساعة صرخته التى أطلقها، لماذا تركتنى؟!... وكانت مياه جوفية تنبع من بئر وتشق لها مساراً عبر الزقاق، وكانت صورٌ لأغراب يضحكون بأشداق واسعة، ويجوسون فى المكان.

انزعج، وقال لى:

ـ اقْفل.

حاول إزاحةَ الملاءَةَ التى تَلفُّ جسدَهُ؛ هممتُ لأُساعده واقتربْتُ من نصفه السُّفْلى الملفوف بإحكام. لحظتها هاجمتنى رائحةٌ نفَّاذة كرائحة الأمونيا تنبعث من مَنَامَته. التفتُّ إليه فهرب منى، ولمَّا لم يعد فى مقدوره تحاشى نظرتى ثبَّتَ وجهَهُ فى الجدار ولم ينظر إلىَّ.

أحسستُ بمدى ألمه، وأنا فى تلك اللحظة أكثر الناس انكساراً، ولم أعرف لماذا شعرتُ كأننا ـ أنا وهو ـ نَجُوس عبر حُلم يشبه المتاهة، ثم نعود مرة أخرى إلى ذلك المكان الذى يقطن فيه الرجل حارس الموت.

تنبهتُ لمَا يجب عَمَلُهُ، ونهضتُ إلى باب الحجرة وأغلقْتُه، وفتحتُ الدولاب الخَشبىّ. كانت ملابسُهُ النَّظيفة مرتبةً على أحد الرفوف، تنبعث منها رائحةُ كُرَات العث. حملتُ غياره ووضعته على السرير، وعدتُ إليه وحملته من إبطيه وأسندته إلى صدرى، وسمعتُ نوابض السرير تهتز، وكان رأسه ساقطًا على كَتفى. كان مستسلمًا إلى آخر حدود ضعفه. خلعتُ منامته التى يرتديها على عُريه، وتجردتُ من ملابسى أنا أيضا، وسمعتُ على البعد صوت الطيور على الماء،

وصخب السيارات على الكورنيش، ورأيتُ ستائر الدخان تصعد إلى السماء.

نحن عاريان تمامًا، كأننا لحظة ميلادنا القديمة التى ولّتْ، والتى نحاول عبرها الهروب من موت مؤكد.

حملتُهُ على صدرى مثل طفل بلا حيلة، مستسلمًا إلى حد احتباس صرخة الألم فى صدره، وتقدمنا تجاه البانيو، نخطو على بلاط الغرفة من غير بهجة، عاريين يجوسان فى مشهد من عرى ينتهى للماء، ومحاولة دفع الموت المحاصر.

أنزلته فى الحوض من غير احتفال وعدت أتذكر ما كان يحكيه لى عن أبيه، الذى كان يراه آخر أيامه لا يكف عن البكاء ومحادثة الميتين، وكان ينهض من النوم باحثًا عنه؛ فيجيبه وقد شرد فى دروب القرية القديمة ينادى على الراحلين قبل آذان الفجر. سمعته يهتف لنفسه:

ـ كأننى أرى مَنِيَّتى.

وَازنْتُ الماء ساخنًا وباردًا، وحولت ماء الصنبور إلى الدش؛ فانفرط على يديه فشهق، ثم عدتُ وحوّلت ماء الدش إلى الصنبور، وباشرتُ دعك جسمه بقطعة الإسفنج والصابونة المعطرة. كان مستندًا لحاجز الحوض كغريق، وعندما انتهيتُ، تأملتُه وأنا أقف أمامه. كان نظيفًا ومضيئًا، والماء يتسرب على بدنه، ورأسه مستندة إلى ظهر الحوض باستسلام مريع.

فجأة، عبس وجهه واغْتَمَّ، وانسحب لونُه حتى شحب. بعدها انفجر فى ضحك متواتر يجلجل فى الحجرة بوَحْشِيَّة، يضرب الحوض بيده ويتمتم بكلمات لا أفهمها.

تركته حتى انتهتْ موجة الضحك ؛ فألبسته ملابسه بعد أن جففت له بدنه، وارتديت ملابسى. أنهضته وحملته مرة أخرى. وعندما كنا قرابة السرير سمعته يحادث نفسه: «هذا شىء لا يمكن أن يرضى عنه الله»! أراد أن يخطو خطوة واحدة إلا أنه سقط على صدرى؛ فرفعته من وسطه وأنمته على الفراش. مشطتُ له شعره وعطرته بالكولونيا التى يحبها، وجلستُ أمامه على السرير صامتًا. قلت:

ـ كوب عصير؟

رفض، وظل يحدجنى طوال الوقت بنظرة عداء نافذة. قلت فى نفسى: «هو يحتاج إلى الحظ». واصل النظر إلىَّ مما جعلنى أرتبك، وانشغل بحالة الصمت التى تسود المكان.

لما سادِ التوتر رغبتُ فى الانصراف. أردت أن أخبره، أننى سوف أعوده فى الصباح، إلا أننى فوجئت به وقد رفع يده اليمنى السليمة وهوى بها على وجهى فى صفعة مدوية انفجرتْ فى صمت المكان.

دهشتُ من تصرفه وأنا أقاوم ألمًا يدوى فى رأسى.

شحب لونه، وبدا لى كأننى أواجه رجلاً يموت، ثم رأيته يدير رأسه ناحية الحائط؛ لينفصل عنى تمامًا.

كان الجوُّ خانقًا وقد فرغ النهار، وكانت حمرة المساء تعلو شجر الشاطئ، وسرعان ما اختفت الطيور فى رحاب الظلام الوشيك.

كنتُ أعرف أن خنقة الحر سوف تستمر، وسوف تزداد كثافة حتى يأتى الخريف، وربما الشتاء أيضًا.

لَوْنُ الماء

شَبكَتْ أمى فى ذراعى صرَّة بها أُقّتان من الجبن القريش الطازة، حلبة البارح، وسألتنى:

- عارف بيت حضرة الناظر؟

- ناظر المحطة؟!

- لأ يا فالح، ناظر المدرسة. الأستاذ «بهجت».

- عارفه.

- على هناك، تسلّم الجبنة للسِّتْ بتاعته. ستك أم سميرة، عارفها؟

- أيوه.

ولما قالت سميرة أحسستُ بالكلمة تضربنى فى قلبى، وتُغيِّر صوتى.

مضيتُ أحمل المنديل الذى حاذرتُ أن يسف من الأرض التراب، وتشاغلتُ عن موعدى مع العيال، ما دام الأمر فيه «سميرة»، ومن أجل خاطرها أبيع روحى.

كانت رائحةُ الجبنة تفعم روحى، فقرضتُ منها قرضة الفأر.

تجاوزتُ حارة «نوّار» حتى وصلتُ شارع البحر، وهناك تسللتُ من

بين دغل الشجر، وشاهدتُ على «المرادة» أفخاذ النساء، وأثداءهن العارية، وكنَّ يغسلن الأوانى والهدوم، ويضربن بها وجه البحر فأسمعها تفرقع، فرقعة الهواء فى شراع المراكب الراحلة إلى الجنوب، وأنا مستغرق فى تأمل حركة أجساد النساء وهن يملأن الشاطئ بالضحك.

غادرتُ دغل الشجر، ومضيتُ أفكر فى المرات القليلة التى رأيت فيها «سميرة» بنت حضرة الناظر، وهى ذاهبة إلى المدينة بالعربية الحنطور، يجرها ذلك الجواد الأشهب الذى يصهل على الجسر، والذى حلمتُ بأن أمتطيه، وخلفى «سميرة» يعدو بنا حتى آخر الدنيا، أو تمر على أمى لبعض الوقت، وترانى جالسًا عى سُلّم الدار، فتناديني وتقول لى: تعال يا «عبد المولى»، وتأخذ رأسى وتسنده إلى بدنها فيصل بالكاد أسفل ثديها، وكنت أراها تقف وسط الدار مربربة، وبضة مثل الفطيرة، ولها شعرٌ مثلُ ذيل الحصان الجامح.

كنت أخاف من صدرها الناهد؛ حيث يأتينى فى المنام، ولحظات من الصحو، وتمنيتُ فى كل الأحوال أن أقبض عليه بيدى مثل ثمرات الرمان. وعشت تلك الأيام أتمنى أن تكلمنى «سميرة» بعيدًا عن أمى، أو حتى ترسلنى بالمشوار لأى مكان تريد، أو تعطينى درسًا، أو حتى منديلا مطرزًا أشم رائحتها فيه.

كانت «سميرة» فى العشرين، وكنت على أبواب الثانية عشرة، وكان الزمن الصيف. الشمس فيه تفلق الحجر، والنحل تحت سباطات النخيل، والحيوان يطلب العشار. تنفجر فى الغيطان أصوات الإناث طالبة، والعربات على الجسر تدرج محملة بأقفاص الفاكهة الصيفى. كنت أسمع فى عز الليل زوجة جارنا وهى تضحك ضحكات عالية،

وأنا أصغى بكل انتباهى لتلك الكلمات التى لا أعرف معناها، ولكننى أشعر بها فى دمى، وكثيراً ما خوفتنى من الفعل الحرام.

قلت: يمكن ألاقى «سميرة» هناك!!

حين وصلتُ لبيتهم، دخلتُ على الحديقة الخارجية، ومشيتُ على الممشى المبلط، ثم صعدتُ الدرجات الثلاثة وطرقت الباب. الباب موارب ينفتح على صالة بها صور على الجدران، ومقاعد مذهبة بجوار الحائط، وعلى الأرض سجادة من الصوف مرسومة بالعصافير، وكانت تكعيبة العنب تفرش أرض حديقة الدار، ورائحة لشجرة الياسمين تتضوع فى المكان.

طرقتُ الباب مرة أخرى، ولما لم يجبنى أحد، دخلتُ، وناديت بصوت خائف:

ـ يا أهل الدار، يا ست أم «سميرة».

رائحة ألفة، والصمت فى البيت جعلنى أتصور بأنه ثمة أصوات تتحادث. ولشعورى بالخوف أردت أن أعود، لكن إحساسًا دفعنى للدخول عندما فكرتُ أن هذا المكان مأهول بالكثير من الأحلام التى أحبها.

ـ يا أهل الله يا للى هنا، يا ست أم «سميرة».

وعندما صمتُّ، وتمالكتُ روحى، أتى صوت الماء.

كان ينساب فى دش من الحمام، وصوت غناء يرتفع رويدًا، رويدًا، حتى وصلنى. كانت الأغنية شائعةً، عن قمر يقف على الباب، وينوّر قناديله، وبين ضوء القنديل، وحلاوة الصوت شعرتُ بخفقة، ووجع فى قلبى.

تجاوزتُ الممنوع، واقتربت؛ يشدنى الصوت. وانهمار الماء، والرائحة الحلوة التى ملأت أنفى. تشجعتُ، وأغلظتُ صوتى، وصحتُ:

- يا ست أم «سميرة».

توقف الغناء أولاً، ثم توقف الماء، وشعرت فجأة بحضور شخص يسمعنى، وفجأة جاءنى الصوت:

- مين؟

أجبتُ: أنا، وذكرتُ اسمى. وسمعتُ ضحكة معابثة.

رأيت باب الحمام ينفتح، وتطل «سميرة» برأسها المبلول، وباقى جسدها تخفيه خلف الباب. فكرت بأنها عارية، وخفتُ، وأردتُ الهرب. وعندما رأتنى أغرق فى عرقى؛ خرجتْ من الحمام عارية، وكدتُ أن أقع على ظهرى، وأفقت وهى قابضة على يدى. تأملتها ذاهلاً، كانت أمامى مثلما أتخيلها دائما، ببدنها وصدرها يشُرُّ منها الماء فى خطوط.

قالت ضاحكة:

- يوه.. هو أنت يا «عبد المولى»؟!

ولم تتركنى أنطق، ومدتْ يدها وقبضتْ على ذراعى أكثر، وسحبتنى حتى دخلنا إلى الحمام. قالت وهى لا تزال تبتسم.

- اغسل لى ظهرى، يا عبد المولى.

وجلستْ منحنية على كرسى الحمام يسقط شعرها حتى فخذها،

وأمامى ظهرها مثل لوح الرخام الذى يرخم قبر مولانا فى المسجد الكبير.

كنت أرتعش، ولما رأتْ خوفى ضحكتْ، وقالت لى:

ـ خايف؟! هو أنت عيّل؟!

بدأتُ دعك ظهرها بالليفة، بعد أن ملأتها برغوة الصابون، واستجمعتُ شجاعتى، وسرتُ عبر غيطان الجسد، خارجًا من تحت الإبطين، وداعكًا صدرها الناهد، حتى أسقط إلى البطن المدورة. كنت سعيدًا، وأتمنى ألا تنقضى اللحظة التى أمضيتُ أحلم بها.

واجهتنى، وقالت:

ـ هدومك هاتتبل بالمية. اقلع أحسن.

نهضتْ وجردتنى من هدومى، وأخذتنى تحت الدش وأغرقتنى.

بدأنا نلعب مع الماء!

كنت لا أفهم، لكننى كنت سعيدا، حتى عندما رأيتها تقبض على بدنى وتهرسنى فى حضنها، ثم تستلقى على أرض الحمام وأنا أفترش جسدها تحتى، وأراها تغيب عنى.

كنت أتأملها، وكان الماء يتدفق مثل َسرسُوب يدغدغ ظهرى. شعرتُ بدفء الهواء، وحصيرة من الشمس على شجرة، وتهب من شجرة الياسمين رائحة، بينما يأتى من على الجسر صوت مهرة صاهلة.

جَدِيلَةٌ لِمَرْيَم

«على فكرة، الوقت زَمَان كانْ أفضل»

قالتها . . وخرجت من باب حجرة النوم إلى صالة الشقة . جمعت الملابس المتسخة وألقت بها على أرض الحمام بجوار الغسَّالة .

كان مستلقيًا على الفراش مغمض العين، يضع يده على جبهته، وبالكاد كان يسمع صوت أطفال مدرسة «طيبة» ينشدون .

«قُومْ يا حبيبى، بقينا الضهر» .

انتبه . . فتح عينه وأسند ظهره لحاجز السرير المشغول بالأرابيسك، وقال «صباح الخير»، وأحس بمرارة فى فمه؛ فحاذر أن يبتلع ريقه .

كانت تقف بالباب تشد الروب على وسطها بحزام من الجلد . استغرب، وتأمل «توكة» الحزام اللامعة، وقال فى نفسه : «الله . . الحزام دَهّوتْ حزامى!!» .

رآها تقف بطولها الفارع تحت صورة السيدة «تشايكوفسكى» المعلقة على البياض؛ حيث تُطيّر الريح ثوبها المشغول بالدَّانتلا . رآها تعبث فى دولاب الفضيات الصغيرة . وحين أخرجت الصندوق المكفت بالعاج فتحته وسحبت من داخله صورة بحجم الكف وظلت تتأملها على حين جاءه صوتها :

«على فكرة، الرجالة بتقصر لما بتكبر فى العمر».

ذرعت الصالة بقدمها الحَافية مثل قطعة من فراء متوجهة ناحيته:

«شوفْ يا حبيبى، أنت كنت فى الصورة دى أطول. دى الوقت أنت قُصُرت شوية».

أخذ يتأملها عبر المرآة، وهى تنظر نفسها وقد زمت شفتيها محدقة فى صورتها على نحو عميق. راقبها وهى تدفع يدها إلى شعرها منتزعةً شعرة بيضاء فى عصبية، هاتفة به:

«تفتكر الواحدة، تصبغ شعرها أحسن؟»!

قبل أن يجيب، أطلقت ضحكةً عاليةً رنّت فى فضاء الشقة، وسمع لها ذلك الصدى الذى يصدع قلبه:

نهار غير مؤتلف، ككل النهارات التى يلتقى بها تلك الأيام.

نهض واقفًا مغادراً فراشه، وسار فى المساحة الخالية بين السرير والدولاب، وعندما سحب نفسه؛ احتك لحمه بلحمها. مد يده يتحسسها بعطف، قائلا:

«يا ستى، كلنا بنكبر فى السن، وما باقى غير الرضى».

قطع الممر الفاصل بين حجرة النوم والصالة متوجهًا إلى شرفة البيت. فى المنتصف تعلقت عينه بلوحة «رزق الله» «أعضاء نظيفة فى الضوء»، وبهرته ألوان «الإيكوريل» الحيّة التى تنتفض فى بؤرتها تلك الأعضاء المشعة باللون الأحمر الوردى تحت شعاع شمس مجهولة تفرش أرض اللوحة.

أطل من الشرفة على الشارع. كان خاليًا من المارة، تزوبع به دوائر

من تراب الخريف، وتعفره مصطدمة بواجهات البيوت، بينما أشجار «البونسيانا» عارية من الأوراق، تمد فروعها السمراء فى استغاثة غير رحيمة.

«إنت هاتفضل واقف عندك. تعالَ اعمل أى حاجة. ساعدنى»

غادر الشرفة ودخل من بابها، وَعشَتْ عينَه ظُلمةُ الشقة الخفيفة حتى إنه وقف لحظة حتى استعاد نظره:

«مالك يا حبيبتى؟»!

أشعل سيجارة وجلس على «الفوتيه» أمام مكتبه وأخذ يتأمل حياته، أدرك بعد كل هذا الانقضاء أن عمره قد غدا سورياليا، على نحو يثير التساؤل. كان كلما ظن أنه يرقبها محاولاً إدراك ما تعانيه، يفاجأ بها هى التى تنظر ناحيته بإصرار وتساؤل.

وقفتْ أمامه وقد قبضت على تمثال الجص «المرأة العارية» وأخذتْ تنظر فى عينيه بثبات. خاف أن تهوىَ بالتمثال على رأسه.

«فاكر اشترينا التمثال ده منين؟»!

«طبعًا».

«طبعًا؟! تلاقيك لا فاكر ولا حاجة. دا إنت حتى دلوقتى بتنسى الأسماء.»

انزعج من تهكمها الدائم، وأزعجه ما هى فيه؛ بالذات عندما يأتى الليل فلا يجدها بجانبه، فينهض باحثا عنها فى الغرف المغلقة، إلى أن يسمع نشيجها المتقطع يأتيه من شرفة البيت فيتوجه إليها آخذًا بيدها، ماسحًا على شعرها بيده فى حنّية.

سمعها تنفض النوافذ، وتغنى أغنية قديمة. توقفتْ عن نفض التراب وقالت:

«ألاَّ أنت ما بتزهقش من الحبسة اللى حابس نفسك فيها دى؟»!

«يا حبيبتى البلد معدتش زى زمان، والزمن اتغير واحنا بنكبر».

«على كده إنت بقى عجزتنى بدرى».

لاحظ فى الأيام الأخيرة مدى اختلاط الأشياء لديها، وتصرفاتها التى تربكه فى كل الأحوال. كانت مثلا، تمنعه من السير ليلا فى ممر الشقة، وكان إذا ما سألها «لماذا»؟ كانت تجيبه: «لأنه يمتلئ بالأحلام المزعجة».

تركته إلى المرآة، وأخذت تنتزع من رأسها الشعيرات البيضاء مرة أخرى.

شغَّل الراديو فصعدت موسيقى أندلسية نفذت بداخله؛ أعادته إلى طفولته، وتذكر أمه فى آخر أيامها عندما يسحبها فى العصر بالقرب من النهر، فيراها تعود بطريقة غير إرادية. وعندما يسألها «إلى أين يا أمى؟»؛ كانت تجيبه «إلى الدار يا ولدى. ألا ترى؟! لقد حل الليل.» سمعها تخبره وهى تخطو ناحيته:

«مش أنا قريت امبارح قصة آنا ماريا سيمو».

«رتابة مميته، قصة هايلة»!

«يا خسارة!!.. كانت ست بتعيش أكاذيب مغرية».

«المهم يا حبيبتى، القصة مكتوبة إزاى».

«مكتوبة إزاى إيه؟! . . المهم الألم فى القصة الذى لا ينسى».

«فعلاً».

حدجته طويلا، قالت:

«يعنى كان لازم البطلة تطلع على الكرسى. نفس الشىء دائمًا، ويسقط جسدها متدليا من الحبل».

قالت النص المكتوب، وهى تضغط على رقبتها فيتدلى لسانها كالمشنوقين.

بلع ريقه وأحس بألم مضاعف فى صدره، وعاد يستعيد حكاية ذلك الصياد الذى عرفها وهو طفل: (الصياد الذى فقد ابنه فى البحر، ثم ظل ينتظره طوال عمره، وكان فى كل أحواله، وحتى آخر أيامه يسمع نشيج الغلام يأتى من على الماء).

أحضرت المدفأة ودست فيشتها فى كوبس الكهرباء. قال:

«الدنيا لسه مش برد».

تركت المدفأة والتقطت من فوق المكتب «هارمونيكا» صغيرة وبدأت تعزف لحنًا شائعًا، ثم تقطعه بلحن يشع فيه الحزن.

ألقت «الهارمونيكا» جانبًا ومشت تتطلع ناحيته بوجهها الجميل.

«ممكن؟»!

«ممكن إيه بس؟»!

أعطته ظهرها وغادرته فى اتجاه المدفأة، مرت لحظة، بعدها قبضت على النار المتوهجة، ثم ضغطت أسنانها بألم تقاوم أن تجأر.

«ثمة ألمٌ بلا حدود».

انتفض منتزعا يدها، صارخًا: «إيه اللى أنت بتعمليه ده؟؟»! وأخذها فى حضنه. وسمع نفسه يقول لها مقاومًا صرخته: «وأخرتها.. لازم نستحمل».

سارا معًا فى ظلمة الشقة المسدلة الستائر، كانت تسند رأسها إلى كتفه ولم تكن تبكى بالدموع. نهض فى الصباح على صوت الريح، كانت تضرب نوافذ البيت. وتسللت أناشيد الأطفال إليه، وجاءه صوت ضابط الألعاب وهو يصيح بالأطفال: «سنة ثالثة أول انتباه، صفا.. انتباه، للأمام سر.. قف، خطوة تنظيم.. محلك سر.. قف، للأمام سر...»، وانفجر فى الصباح صوت طبلة المسير المرتخية الرق «تم تررم تررم.. تررم.. تم تررم تررم.. تررم».

وسمع الأطفال يصعدون درجات سلم المدرسة فى اللحظة الذى كان يصعد من المذياع أحد الأناشيد الوطنية.

تحسس مكانها الخالى بجواره؛ كان باردًا.

نهض يبحث عنها كالعادة فى الشقة، ولما لم يجدها؛ اتجه ناحية الشرفة. كانت تجلس على الكرسى الخيزران وقد تصالبتْ يدُها، منكمشةً على نفسها، وقد ربطت كفها بشاش أبيض، تحملق ناحيته بعينين مخضلتين بالدموع، وقد اجتثت شعرها الأسود الغزير؛ فبدت كغلام قد حلق شعره حتى درجة الزيرو.

شَرَفُ الدَّم

(١)

واتكأتُ إلى شجرة المستكة، أنتظر .

كان ابنُ عمِّى قد أعطانى ظهره، وخطَا ناحية قبو المقبرة الغربية تغُوصُ قدماهُ فى لحم الميتين، الذى أصبح بمرور السنين سبخًا بنيًّا تَذْروهُ الريح .

على عتبة الدار، تحت السراج المطفأ المعلق فى العقد المتآكل، تجلس عمتى «مريم» . عندما أحست بى؛ وضعت كفها على جبهتها وتأملتنى لحظة، ثم قالت : «ها أنت قد جئت» . ولما سألْتُها عن أخى خفقت عيناها الكليلتان، وقالت بدون أن تنظر ناحيتى : «كلهم هناك» وأشارت بيدها ناحية المغارب، ثم أردفت : «يبنون المقبرة» .

مَرَّت لحظةُ صَمْت وأنا واقفٌ أُطلُّ عليهَا . كومةٌ من عظام، أسْمَعُهَا تقولُ لنفسها : «الدوام لله، والأمر لصاحب الأمر» . رأيتها تغيب عنى، تتأمل تيار الماء الجارى فى النهر الصغير أمام الدار .

أقفُ فى الممر الذى يفصل بين المقابر، أتأمَّلُ أبا الهول البارك فوق ظهورها، وأشُمُّ رائحة الرَّمَاد . شواهدُ من رخام مطموسة اللمعة تحمل أسماء من رحلوا .

عَمِّى الكَهْل يجلس القُرْفُصَاءَ بجانب المقبرة، يشد ذيل ثَوبه من بين فَخذَيه ويُطلُ شَعْرُ صَدْره الأشيب من فتحة الجلباب. يكبسُ على رأسه طاقيةً من صَوف الغَنَمَ، وبصعوبة مسح عن جبهته التراب. تأملتُ جلد رقبته المكرمش وتفَاحة آدم بارزة وسط خطوط من تجاعيد متقاطعة كالمصير.

عندما رآنى حاول النهوض، لكنَّنى شَدَدْتُ على يَدَيْه أن يبقى. كان صامتًا كبيت مهجور، ينظر ناحيتى وقد حَفَرَت الدّموعُ مسارَيْن على وجهه وَسَطَ غبرة الرمَّاد.

قال:

ـ حتى العظام تحمل ملامحها!

سقط رأسُهُ على صدره، وسمعتُ نَشيجَهُ يعلو فى المكان.

كانت المقبرةُ قد أزيلَ سَقْفُها القديم، وسمعتهم يتصايحون مع ضربات الفئوس، ودَكِّ الكواريك: «ارفع التراب من هنا». «الحفر يمضى إلى عمقه» «حاسب العظام. اركنها بجوار الجدار».

خطوتُ صاعداً كوم التراب، ونظرتُ فى عمق المقبرة، كانت عميقة على نحو ما، رطبة، يشع بها سكون الموت.

ضربات الفئوس وجهد الرجال الذين يرفعون التراب والأحجارُ القديمةُ السوداء مكومة فى الركن.

راودنى شعورٌ غامضٌ عندما فكرتُ فيما قاله عمى. اختلج جسدى وضغطتُ أضراسى: «عمى آخر من بقى من الكبار. يحمل على كاهله سنينه وينتظر فى الرواق القديم دوره».

خرج ابنُ عمِّى من مدِّ الظل الممدود، يبدو عليه الحزن، بيده جوالاً من الخيش، وكان قبل أن يغيب عنى قد قال لى: «جَمِّدْ قَلْبَكَ، وهَيِّئْهُ للاحْتمَال». وعندما نظرت للرجال الذين يحفرون؛ رأيتهم يتوقفون، ثم يرفَعونَ ظهورهم وينظرون ناحيتى بنظرات غامضة، بينما يمسحون جِبَاهَهُم بذيول جلابيبهم.

حلَّ صَمتٌ مفاجئ، سمعتُ فيه النبض الحى، وأدركت أنهم يقودوننى بغير أَلَم إلى فجيعة ما؛ أنا أعرفهم. هم لا يفاجئونك، يسحبونك من يدكَ على دُرُوبٍ غيرِ واضحةٍ، ويتركونك وقد طقطق منك شعر الرأس.

تعثرتُ فى الأحجار وكدتُ أهوى، وتبعت ابن عمى حتى اختفينا عن النظر.

على حصير مفروش فوق ظل التمر حنة، قبض ابنُ عمى أسفل الجوال وقَلَبَهُ أمامى؛ هوتْ على الحصير الجماجمُ الخربة، تصطك ببعضها وتحدث صوتًا مكتومًا اخترق قلبى. كانتْ موحشة وشائهةً وقد اخترقها البلى والرميم.

شعرتُ للحظة كأننى أقف على الشاطئ الآخر للأبدية. همستُ وأنا أتأمل كوم العظم الخارج من لحده القديم.

- أهلى!

قرفص ابنُ الْعَمِّ مثل ذئب، وجلستُ أنا على الحصير أمامه.

مدَّ يَدَهُ وحمل جمجمةً وَاجَهَنى بهَا. أخذتُ أتأملُ فجوات العينين والفم والأنف، والجبهة الضيقَة، وثلاث الأسنان الباقية فى الفك العلوى، وسرعان ما اكتست العظامُ باللَّحْمِ والملامح، وشعتْ بالنور

الإنسانى الحى، وبرقتْ العينان بالحنان القديم، وتحركت الشفتان ببسمة طيبة منورة، صحتُ:

- إنها أمى أمينة!

- هى والله!

وخفتُ أن أمد يدى وألمس رأسها، وأنا أراها تحدق ناحيتى بفجوتى العينين الفارغتين.

ركنها ابن العم، ورفع الرأس الأخرى فواجهنى الفك السفلى كامل الأسنان، بينما العلوى خالٍ تمامًا، فصحتُ من غير وعى:

- ستى هانم!

- هى. عندما فتحنا القبر، وضربته الشمس رأينا أسنانها تضوى كحبات الماس. وتعرفتُ على «الطاهرة» أختى، وعمى «عبد المنعم» هؤلاء الذين قضوا فى حياتى قبل أن يرحل أبى.

استندتُ إلى جذع الشجرة مقهورًا، وسألته صارخا:

- وأبى؟!

صمت لحظة، ثم نظر فى عينى، وتشاغل بإشعال سيجارته، حثثته صارخًا:

- أبى؟.. أين أبى؟!

أجاب:

- لم نجد له أثرًا.

نهضتُ واقفًا، وقد تكاثف رُعْبِى فيما صعد من الأروقة الضيقة

صوت المقرئ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر: ٢٢).

ووجدتنى أعود إلى الدار طفلاً. ينتزعنى ما فات مما أنا فيه فى لحظة واحدة.

فناء يسوره الحجر، وحظيرة فى حضنه من لَبن أخضر، وكافورة وتوتة، وخلايا من النحل الأليف، وأبى جالسٌ بجرمه الهائل يفتل حبلاً من التيل وينظر ناحيتى، وأنا أمسك بقرنى الحيوان مرتديًا قميصه، فيما تعنفنى جدتى «استر نفسك». صامت وهائل وكأنه روح المكان:

ـ يا سلامة.

ابتسم:

ـ قل يابه، يا ابن الكلب!

ـ خذنى معك الليلة؛ لأسوق البهيمة فى الساقية.

ـ سآخذك.

وأشعر بدمه ينتفض فى دمى. يمتد من أول الميلاد حتى لحظة أندفس فى حضنه داخل عباءة بنيِّة لها رائحته التى لا تنسى.

فرد بدنه قائما، وخطا ناحية النهر، ورأيته يتجرد من ملابسه ويخطو أول الليل إلى الماء، ساترًا عورته بيَده، وسرعان ما يغيبه النهر فيما تتلاحقُ أنفاسُه؛ حيث تأتينى وأنا أشاغب مع الحيوان.

وقتٌ مَيت، والمقابرُ المتناثرة تنظر لخضرة الأرض بحزن جليل.

مرتْ لحظاتٌ من الصمت نشطت فيها الريح، وذرت التراب في دوامات خريفية. امتلأ الجَوُّ برائحة العظام؛ فصدعتني الرائحة الصاعدةُ من الكهوف؛ فهربت ناحية السماء المفتوحة لآخر مداها، ورأيتُ ركض السحب إلى الفناء.

- أين أبي؟!

هتفتُ بها مصحوبة بألم غامض. كنت أنظر إليهم وقد توقفوا عن العمل، ينظرون حيرتي ولا يجيبون. «أنت الإنسيُّ الفرد الذي رأت عيناه ما رأت». صفر صوت الريح كالجرس، فركضت أتبعه، مفارقًا من يحفرون، بينما في آخر لمحة من نظر، رأيتُ أخي يقطع بفأسه السحلية نصفين: أحدهما انطمر في التراب بينما الآخر يرف ملتاثًا على نفسه، وأنا أجري بالشوط برأسي يَطِنّ فيه صوت المقرئ الكفيف.

(٢)

الريحُ والشمسُ والمطرُ يهبون على المدينة فيسحبون منها السنين.

وأنا، وقد غدوت كهلاً لا أزال أبحث عن أبي. برغم تلك السنين التي سحبتها مني الشمس والريح والمطر إلا أنني لم أتكيف أبدًا مع لوحات النيون، وإشارات المرور، وزحمة الظهيرة، وواجهات العرض، والملصقات بخطوطها المختلفة. مارست عادة تغير الفصول، وتأمل النهايات، ومقاومة أشواق القلب تجاه أبي الذي لا أعرف إن كان حيًا أو ميتًا.

بدأتُ بتدريب نفسى على الخروج من زَمَن لزمن، أجترُّ ما جرى بضنى القلب، وأنهض مطوفًا بالأماكن التى كانَ يألفها أبى.

قطعتُ الطريق المضفر بالكافور والتوت، مخترقًا الحقول؛ لأجدَ رفيقَ عُمْر أبى جالسا فَوْقَ حصير تضفره ألوانٌ زرقاء وخضراء وحمراء، وَبجانبه طاقيته، وبيده سبحة من العنبر تتابع حبَاتُها فى ارتطام رصين، يطل رأسه الصغير من فتحة ثوبه، فيما يشبه وجْهُه تينةً جافة، ويرمش بعينين كليلتين ناحيتى، وقد غامت ذاكرته فيما يشبه شبورة الصباح.

عندما سألته عن أبى، لم يجبنى وغاب يتأمل ذلك الطريق الذاهب إلى بطن البلد:

ـ أبى يا عمى!

قال:

ـ من ذا الذى يريدُ أن يرحل قبل الأوان؟!

وراح منى حتى لم أعد قادرًا على احتواء ذاكرته، ورأيت وجهه شاحبًا كالقرطم، وتذكرتُ ما مضى عندما كانوا فى مضيفة الدار، شرق البيت؛ حيث كانت تأتى رائحةُ المعَسل والشاى، وطعم العشاء، ونسوة الدار جالسات على حافة الليل ينتظرن أمر الرجال، وأنا الصغير أنصب الفخاخ على شاطئ النهر؛ للقطا والعصافير أول الصباح.

عدت للسوق المروّع بالبشر، وزحمة الحيوان، وأصوات البيع والشراء. هناك كان يقف وسطهم فاردًا طوله. قلت: «كان دائما وسط الناس». مسحتُ المكان بعينى؛ فارتد نظرى حاسرًا. كان يجس

الضرع، ويتأمل هامة البهيم فإذا ما ختم بالفرادة والعافية؛ سحب الشارى حلاله ومضى. وعدت أتّكئ على السور ناظرًا إليه وهو يفك مقود الجواد، ثم يشدنى من ثوبى ويثبتنى على ظهره، لاسعًا كفله بخيزرانته فيعدو الجواد على السكة التراب، وأنا أصرخ بكل عزم الخائفين، يأتينى صوته: «تشبث أو تنكسر رقبتك».

أخلاطٌ من صور، وذكريات قديمة يطفح بها قلبك، وأنت تدور من مكان لمكان. تعود من نفس البداية، وتنشغل بالمستحيل فيما يهرم منك البدن، وينظر لك الخلق باعتبارك أحد البهاليل، يحاصرك زمنك، ولقفة النفس التى تأتى بالحنين والضنى.

أغلقتُ اليوم خلفى باب منزلى بالمدينة التى أقطنها. نزلتُ من المترو ودَرَجْتُ على أرض الميدان. ينحدر الجنودُ بأحذيتهم الثقيلة من بوابة المحطة، يتأملون البنت التى تقف فى كشك بيع الزهور المنداة بالماء.

كانت الشمسُ حادةً صيفية، عندما انطويتُ على ظلى، وعندما فارقنى؛ صار تحت قدمى فوطأته ومضيت ومضى معى. صدى لرنين ترام، وشارع خفت منه الزحمة وتراجعت حركته. وأنا أقف أرقب واجهات البيوت القوطية، وتماثيل الجص التى تحمل شرفاتها فى صبر السنين، وأبراجًا مدورة ومسدسة، يقف على علوّها حمام غريب فى مدينة غارقة فى الزحمة والفناء، مدينة لم تعد من لحم ودم.

كانت واجهة المحل الذى أقف أمامه من مرايا مصقولة لامعة.

وكانت الشمسُ تسقط على بدنى فتعكسه المرايا بجلاء.

والمدينة التى أمضيتُ بها أفدح العمر تبدو فى هذا الوقت باغية

وقديمة. وتذكرتُ في لحظة المرايا هذه، حينما كان يزورني صاعداً من مشرق النور حتى هذه الضاحية قرب النهر.

ـ لا أحد يفرط فيما ورثه.

ويسبقني على الشاطئ المزهر، واقفًا بالقرب من الماء الجاري، يتقدمني بخطوات، متأملا تلك المراكب الراحلة بأشرعتها المفرودة بالريح، والشمس تغرب للمنتهى البعيد.

يغرف بكفيه الماء ويطوح به ناحية الضوء، فأرى وأنا أتأمله، لؤلؤ الماء ينداح كالأحلام.

كانت طرقاته التي على الباب، والتي أعرفها بعزمها، وصرامتها. أفتحُ الباب فأراه واقفًا بقامته المديدة، ووجهه الصارم يشيع فيه حنان كالنور، بجانبه، على الأرض «زوّادة» من خير. لا يقطع عوايده أبدًا. ينقلب ابني الصغير من بين قدمي؛ فيلتقطه رافعا إياه حتى وجهه، هاتفًا به:

ـ أهلاً، سبع الغربيّة.

لحظة أشعر فيها بتيار الدم ينتفض، بادئًا جريانه من عروقه، ماراً بشراييني حتى ابني الصغير، الذي يضمه الآن في حنيّة.

للكهل الذي يدب بالعصا على الأسفلت ذاكرة حية، وله فسحة من زمن يبحث فيها عن السنين.

نخلةُ الميدان بلا عراجين، وشجرةُ البلاد الغريبة بلا أوراق. وأنا أقف في زحمة ضوء المرايا يجذبني الذي يأتي تجاهي من قلب نورها الحي.

مَن القادمُ نحوى؟

الكهل الذى وخط رأسه المشيب وانطوى على جروحه؟

كأننى أعرفه، أمضيتُ معه عمرى منذ ولدت، ومنذ كنت أركب جواد الريح رامحًا على السكك التراب، وأستدفئ فى قماش العباءة الحى.

روّعت عندما شُبّه لى أننى فهمت، لكننى تماسكت، وغلبنى الشعور ببهجة الاكتشاف والتعرف فى هذه اللحظة من العمر الأخير.

قلت: سلالة من سلالة. أب عن جد.

وكنتُ أخطو ناحية المرايا متأملا ذلك الواقف فيها، وكأننى أشق الغيوم مثل طائر. الحاجبان، والعينان، والشفتان المزمومتان، ولمعةُ العَيْن الخاطفة كحد السكين، والحزنُ المغلف الوجه كقناع قديم، والرأس، وقد اشتعل شيبًا.

أخطو وقد ملأتنى البهجة كلما تعرفت على ذلك الذى فى المرآة. كأننى أنسحب من تيار متدفق على أرض غير قلقة، وصوت موسيقى يعلو من محل المرايا، وأنا أتأمل ذلك الذى أعرفه، والذى أمضيتُ عمرًا باحثا عنه، منذ تعرفت على الموت فى مقبرتنا النائية.

كنت قد جمعتُ عزمى عندما صرخت فى الشارع، وقد نفذت الصرخة من الطين إلى الماء:

- أبى.. أبى..!

الملكوتُ

سينجلى الليل بعد قليل .

تنفس الليلُ الريح . تبدو النجوم فى مملكة السماء غير مطمئنة . «برمهات» شهر قبطى ، تزهر فيه الأشجار ، وفيه يعتدل الليل والنهار ، وتزول الشمس الكبيرة ، ويحتفل القبط فيه بأحد الشعانين .

سكة قطار بعيدة عن الوعى ، مقطوعة عن العمار بينها وبينه ليلة من سواد .

التى بيدها متاعها . زوجها وزوّادتها ؛ حيث يقفان على الرصيف فى انتظار قطار لا يجىء ، «الدنيا ضلمه كحل» . قالها الكهل - زُوجها - فسحبتْهُ من يده وأجلسته على مقعد تحت مظلة لا تبين .

للريح القادمة من الجبل صوت استغاثة ، وللرَمل رائحةُ الموت . هؤلاء صنف من الناس ينهضون على عجل ، حاملين آلَامَهُم فى انتظار قطارٍ يحملُهم إلى المدينة البعيدة .

لا أحد شاهدهما ، وهما يغادران بيتهما القصى عن العمار .

«الدنيا ضلمه . . أنا خائف» . قالها الرجل ولقف نَفَسَه .

عوى ذئب البرارى ، واشتدت أصوات الليل المألوفة وهوت المحطة فى قبضة الظلام ، ولا قدرة لهما على قهر سلطة الخوف .

«حالاً، القطر زمانه جاى».

«أنا خائف»!

سمعته يبكى ويتألم، وشعرت بخوف يتدفق منه حين رأته يُلْصِق ركبتيه فى بطنه، مقاومًا ألمه.

«الصبر، القطر زمانُه جاى».

ثمة شىء لا يمكن مقاومته يطوف حول محطة الليل المغلقة تمامًا، والتى هجرها أهلها، ونافذة مفتوحة يعصفها الريح فيحدث تلك الضربات الجائرة فى عمق تلك اللحظة غير المباركة.

أدركت بذهول، مدى خوف الكهل ـ زوجها ـ فدسَّتْ يدها داخل «الزوّادة»، وأخرجت شمعة أشعلتها؛ انفجر فى الليل ضوء نحيلٌ ليِّن بَدَّدَ مساحة الظلام. سور من حجر. مصليّة من عراجين النخيل. بناء من قرميد مُقامٌ من الزمن الاستعمارى. درج يهبط؛ حيث بركَةُ ماء ساكنة.

نظرت الكهل؛ فرأت الدموع فى عينه.

«الصبر»!

سَمعَا على البُعد صوت القطار يأتى راجفًا قلبهما. جاء مقتحمًا بلا رحمةَ، لم يقف بالمحطة، لكنه ـ على نحو مفاجئ وهو يمضى محدثًا تلك العاصفة من الريح ـ أطفأ نور الشمعة فحل على الدنيا الظلام، وانقطع بكاء الكهل فى الملكوت!

البنتُ التِي وارَبتِ البابَ لِلحُلم

بدا كمن يطفو من كل الأماكن، خارجًا من أسفل التل.

يصعد مجنحًا بثيابه السوداء الممتلئة بالريح، ناظرًا من بعيد سور البيت بعينه المحدقة التى تدفع الرعب إلى قلبه، وبسمته الغامضة، ورائحته التى تتراكم فتزحم أنفه، وتكاد تخنقه.

هل كان قد غادر قاربه بعد أن ربطه فى جذع الأثلة، وخطا تنغرس قدماه فى الرمل، فتترك الأصابع علامات كالوشم ليواجه الحجر.

هل كان قد أخرج من جنبيته خنجره الذى باشر شحذ حده على الصخرة، مراقبًا شرر النار؟

هل؟ . . . هل؟ . . .

يتململ الذى فى رقاده غير منتظم النفس، رافسًا غطاءه ضاربًا الهواء بيدين جفلتين. وهو راقدٌ على سرير الأعمدة السوداء ذى العرائس المطلية بصُفْرَة الذهب.

يأتى من عند طلل النار، مجتازًا خرائب المعبد القديم، الكامن هناك على تلة الصخر، شاهدًا على تيار الماء المندفع، والقارب المؤرجح بالموج، ورواق قدس الأقداس، شاحذًا سكينة فى جدار آلاف السنين المنقضية.

ما كل هذا الإصرار على المجيء؟!

لا أحد في مكنته مغادرة حلمه بهواه.

لمعة سلاح السكين ضوّت منفجرة، عندما لذعتها شعاعاتُ الشمس الصاهلةُ في البرية؛ فانفجرت في عينه بؤرة من نار.

أبعدو الضوء عن عيني!

صرخ بها، وقد تململ بدنُهُ على سرير العرائس الذهبية.

خطا رجل الخرائب، وطلل النار، والمعبد القديم، والسكين المشحوذ، وقارب الماء نبات الشوك، وصفير الرمال، فارداً صدره للريح.

هل كان ملثماً؟

لكنني أعرفه.

أحس بابتسامته. فخ تحت الرمال. الآن يمعن النظر في عينيه السوداوين.

تواجهني، تحمل الوعد، وتشق غيم أول النهار.

يراه راسخاً كتمثال. يجثم على محيط الرمل، يدور به كوكبُهُ حتى الشمس القريبة. يُحيطُ به فضاءُ المدَى المفتوح على المتاهات.

يقصدني كأنثى ذئب البراري. وأنا راقدٌ لا أقدر أن أدفع الحلم.

لو أن الرجال الذين شاهدوا دم أبيه المراق على إسفلت الجسر؛ لو أنهم... لم يشاهدوا جدائل شعره **(وأنا أغيب في خضرة زرع الربيع... لو أنهم...).**

ثأر بثأر، وأنت لا يمكنك أن تحيا بشرف دمك منقوصًا.

رفس الفراش، عندما حث حاملُ السكين من خطوه، يرقب أرنب الصحراء الجاثم فى ظل نبتة مزهرة. يقبض على أذنيه الطويلتين ويواجه به عيني الشمس. ينتفض الأرنبُ عندما يرى الخنجر المشحوذ يضوى؛ فيصرخ صرخة الموت قبل أن يجز السلاحُ العنق فينفجر الدم مطرطشًا، مثل مطر الصيف على غير أوانه. يدفع الذى على فراشه يَدَهُ إلى أعلى، حاجبًا مطر الدم وقد صكت سَمْعَهُ ضحكةٌ تخرج من كل جهاته.

ألا يمكننى النهوض من هذه الرقدة؟! مربوط أنا لأوتاد!!

مَنْ يقدر قبل تمام الرؤيا. قبل أن تتكامل المصائر وتتشكّل النهايات.

صوتٌ كحجر الطاحون، تعوّد على سماعه منذ عرفه الناس من جديلته.

انقلب على جنبه، ثم عاد إلى الرقاد على ظهره.

ضوءٌ يكشف ما تعوَّد أن يكشفه كل يوم: أشجارُ الأسيجة تلوحُ من خلال ضباب مؤقت، رائق غير لحوح. المقرئ الضرير أسفل الجسر يتوضأ. انفلاتُ الحيوان من جحره يدب على السكة يسبق الشمس. صورة للأب والجد على الحائط تواجه مرايا الدولاب القديم. شمّاعة الملابس وبندقية معلقة على الجدار من حزامها، كابية بلا لمعة.

كان الرجال - ككل يوم - قد غادروا منتصف الليل.

انفضت المضيفة، مثلما تنفض كل ليلة. زحمة الأصوات واختلاط الحكاية ونَسْ. يسحب البندقية من مرقدها ويقف بين الحظيرة وغرفة

الخبيز، وقد عاد أهل الدار إلى مراقدهم. يتسمع دبيب الحشرة، والنملة، وهفة الجناح، وفح الأفعى، وضحكة المرأة فى الليل بين ذراعى زوجها المطمئن، يطل على الحيوان فى الحظيرة، ويدفس يده فى العلفة داخل المزْوَد. يشعل سيجارته أمام الدار، وتطل امرأته فلا ترى إلا جمرة النار تروح وتجىء من النهر حتى باب البيت.

من يقبض على القلب ليوقف رجفته؟

ورأى عشرات الضفادع تخرج من جرف النهر؛ لتختْفىَ بين الحشائش، وسرعان ما أحس بها تمشى على بدنه.

البنت ـ بنتُه ـ خرجت من باب حجرة العيال. نهضتْ بثوبها المزركش بالورد. تدفع ضفيرتها الشقراء، وقالت: «ألعب أمام الدار، وأشوف السمك فى المصرف الرائق».

رشَّت وجهها بالماء، وخطفتْ من حجرة الخزين رغيف الخبز وخرطة الجبن، واجتازت الصالة، وفتحت الباب هابطةً خمس الدرجات؛ حيث البوابة الكبيرة التى سحبت مزلاجها، ونفذت منها تاركة إياها، وباب الدار مواربين.

يعبر الذى فى الحلم قنطرة المعاهدة. يمشى على تراب السكة المنَدَّى بالندى الهابط من فروع السنط والكافور والليمون المسوّر الغيطان. ينفذ من البوابة التى واربتها البنت ويصعد الدرجات الخمس، قابضًا على درابزينها ويدخل من الباب. الآن، يتوسط صالة الدار. كانت الساعة قد جاوزت الخامسة، يطوف بالدار وحده وقد أشعل مصابيحها. يتعرف على أعراسه، وخواتيمه، ومواسم ذبح الأضحيات فى الأعياد، ويعاين قلبَ غريمه فى مكمنه. سمع نفسه يهتف:

كيف سَمحَتْ له بكلِّ هذا الاقتراب؟!

يودُّ الآن أن ينهض من رقدة الموت؛ يتخلص من كابوسه الذى جعل من قلبه كرةً قافزة، لكنه لم يستطع مقاومة ما هو فيه، واستسلم بكل وعيه وكأنه جزء من المشهد.

ضَرْبَةُ القدم الشديدة، جعلتْ باب حجرة نومه ينصفق منفتحًا فى عويل. قبل أن يفتح عينه وينتبه، أحس بشفرة السكين الباردة على حنجرته؛ فانقبضت كل عروقه وشدت كالأوتار، وقاوم ارتعاشةً تضرب عموده الفقرى.

عندما فتح عينه، واجهتْ عين غريمه.

لم يكُن ثمَة وهم.. خدعَنى الحلْم.

الآن كل الأشياء عارية على نحو من تجريد، لكنه شحذ إرادته. غادرته مرة واحدة مخاوفُه وقد ضبط نفسه، مدركًا فى ومضة من زمن كأنه قد غادر الهاوية، وأحس بصفاء غريب كصفحة مرآة دُولابه، وبقدر ما تسللت طمأنينة إلى نفسه، جعلت دمه يهدأ على نحو مريح، بقدر ما شعر بإحساس صُوفى جعله فى لحظة يقطف نبوءته. هتف مبتسمًا: «ها أنتَ قد جئت».

غادرت الآخر ابتسامتُه عندما أحس بالانتصار، وقد فارقه الضنى.

كان الذى يرقد على سرير الأعمدة مستسلمًا على نحو مريع، مدركًا أنه أحد الواصلين، أولياء الله. فى تلك اللحظة (لحظة الامتنان هذه) جزّت السكين العنقَ من الوريد إلى الوريد!

الأمهرى

ووجدتنى أنهض فزعا من نومى على ضربات قوية متتابعة على باب الشقـة، أنصت وأنا مـشوش الذهن إثر نهـوضى المفاجئ، وصحت.

أيوه.. نعم.. مين؟!

بعد أن سمع الطارق صوتى ران الصمت، ووقفت متلمسًا طريقى وسط العتـمة ثم خطوت عبـر الضـوء الخفـيف الذى يأتى من النافـذة الجانبية فينير الممر الذى، يفصل حجرة النوم عن الباب الخارجى.

أضأت مصباح السلم، وعندما فتحت الباب؛ أنّ بصوت رفيع.

استجمعت وعيى وتأملت خلال الضوء الهابط لمصباح السلم الوجه الذى يطل علىّ. كـان هرمـا ومـوغـلا فى السـواد، ويرمـقنى بعـينين ضيقتين تشبه عيون السحالى، يرتدى على رأسه «بيريه» أزرق، ويلف حول رقبته كوفية من القطن، بينما معطف أسود من الصوف ينسدل على بدنه النحيل..

عندما قلتُ له:

ـ نعم.. أفندم؟!

تقـدم خطوة وتجاوز مـصبـاح السلم فـارتمى خيـاله الطويل علىَّ، رجعت بظهرى ووقفت تجاهه. أمسكت بيدى ضلفة الباب المفتوحة.

قال:

ـ مساء الخير .

ـ أهلا .

ورأيته يبتسم فى نور الصالة الذى أضأته . وتظهر أسنانه بيضاء وسط كومة السواد الذى يشع من وجهه .

ـ مش دى شقة الأستاذ محمود؟

ـ أيوه .

ـ وأنت «راضى» أفندى؟

ـ أيوه أنا «راضى» .

تنهد براحة ، ثم عاود الابتسام .

ـ هى قالت لى كده فى إسكندرية .

ـ هى؟! . . . هى مين؟

ـ «سميرة» مراتى . قريبة الأستاذ «محمود» .

وسكت لحظة تحسس فيها «البيريه» وضبطه على رأسه ، ثم قال :

ـ مهو أنا جوزها . أنا عمك «على الحبشى» .

وسعتُ له ؛ فدخل إلى حجرة الجلوس التى تطل شرفتها على النهر ، وجلس على الكنبة البلدى المكسوة بقماش «الكريتون» المزهر بورود وأغصان نباتية .

كنتُ أقيم فى هذه الشقة بعد أن أعير «محمود» وسافر . وكنت أعرف أن لهم قريبة ينزلون عندها فى الصيف .

ـ يا أهلا يا عم «على»!

ـ أهلا بيك.

وفرد رجله على الكنبة، وأخرج من جيب البالطو علبة سجائره «البلمونت»، وعزم على بواحدة فاعتذرت، فأشعلها لنفسه وعاد يبتسم فى وجهى.

انقضت فترة من الصمت قبل أن يأتينى صوته:

ـ مش «فرغلى» باشا، كان هنا.

ـ «فرغلى» باشا مين؟!

ـ «فرغلى» باشا، بتاع القطن. هنا فى مصنع النسيج. مهو أنا السواق بتاعه.

كان يناهز السبعين من عمره، هزيلاً بدرجة مؤسية، وكنت أتأمله وهو يدخن سيجارته، وكان لا يكف عن التحديق للصور المعلقة على الجدار.

قال:

ـ رفضت أنام فى استراحة المصنع، أصلها فاضية وخالية من الونس.

وعاد يقول:

ـ حاكم الناس تحب تتكلم مع بعض؛ علشان تعرف بعض. مش كده؟!

ـ طبعًا.

كانت لهجته غريبة كأهل الجنوب البعيد، وعندما خلع «البيريه»؛ اشتعل رأسه شيبًا، وعندما ثنى ركبته ووضع كفه عليها؛ بدت أصابعه كالمخالب.

قال مبتسمًا:

ـ ما تجهز لنا لقمة؛ أنا جعان قوى.

جهزت له العشاء: بيضًا مقليًا، وقطعة من الجبن القديم، وطبقًا من الفول، وشرائح من الطماطم والخيار، ورأيته ينشق رائحة الطعام بفرح الأطفال، ثم ينظر تجاهى وقد التمعت عيناه بالبِشر، وقال لى:

ـ الله يكرمك يا أستاذ «راضى»، أكل يفتح النفس!

ـ بالهنا والشفا. أحط براد الشاى.

وجعل يرشف الشاى بصوت ويتأمل الصور المؤطرة على الجدار. كانت سورة «طه» بخط مذهب، وصورة شخصية لصاحب الشقة، ومستنسخ لصورة من عصر النهضة لأحد القديسين خلف رأسه هالة من النور، يقف تحت شجرة زيتون خضراء، يلوح خلف تل مضاء بزهرات صفراء نارية، وبجانبه فرشت على الأرض سجادة زرقاء ينام فوقها طفل رضيع عار، يرفع قدمه إلى أعلى، ويمد كفه الصغير إلى الأمام ويبتسم.

طوى عم «على» ذراعه ووضعها على صدره، وقال:

ـ يا سلام، أنا كنت تمام جعان، الدنيا تغيرت والخيرين قلوا!

كان الطقس باردًا فى الخارج، وثمة شبورة خفيفة يعكسها ضوء مصابيح الشارع، والنهر يجرى إلى مستقره البعيد:

ـ دا حتى إسكندرية دلوقت غير زمان .

ـ الدنيا دوارة يا عم «على» .

وسألنى :

ـ هو الأستاذ «راضى» بيشتغل فين؟ .

ـ بشتغل فى الأرياف .

ـ تلاقى حتى الأوادم فى الفلاحين اتغيرت .

ولاذ بصمت كأنه اختفى عن عينى ، وارتسم على وجهه تعبير من يريد أن يعتذر عن الكلام ، ورأيته يعتصر عينيه ويرمش بهما ، وظل يضغط أضراسه ويتنهد فى شهقة طويلة ، ثم عاد يتكلم بصوت مختلج ، وقد سقط جفناه على عينه :

ـ الوقت تأخر .

ووضع ذقنه على كفه ، وعاد يتأمل الصور على الحائط .

ـ أنا فاكر زمان ، زمان قوى . . كان ده وأنا صغير . . لما باعونى .

انتبهت وفوجئت بما قال ، وتأملته . كان مغمض العينين كمن يحلم ، قلت بدهشة :

ـ باعوك؟ !

ـ آه . . مهو أنا حبشى . . خطفونى زمان من الجبال ، وباعونى لراجل طيب من إسكندرية ، ربانى ، وأكرمنى . على كل حال دى حكاية قديمة قوى .

وتنفس، وسمعنا صوتا يأتى من على الماء: «يلاً يا إبراهيم، النهار فرغ»، وعاد لتأمل الصور على الحائط. قال فى شرود:

ـ أصل حكاية بيع الأوادم دى حكاية!

وثنى قدمه تحته، وعاد للكلام بتلك اللهجة البربرية.

ـ كل اللى فاكره، إن الجبال كانت خضرة، وكنت برعى غنم على تلة ملهاش آخر، وكنا يوم الأحد ندخل حاجة زى البيت القديم ولها برج، ونقعد على دكك من جذوع الشجر، وكان البيت ده منور بالشموع، وكانت أجراس بتدق، وبعد الأجراس ما تقف، يطلع على منصة راجل لابس أسود ويقول: «مبارك يسوع المسيح» وكنا نرد عليه: «إلى أبد الآبدين».

أصغيتُ إليه باهتمام، وخُيل إلىَّ كأننى أنتقل عبر النهر؛ حيث الشطوط البعيدة للرحيل حيث البلاد الغريبة.

قلت له:

ـ لكن يا عم «على»، هو أنت مش مسلم؟!

رد على مفزوعًا، وقد فوجىء:

ـ طبعًا أنا مسلم وموحد بالله، وإسكندرية كلها تعرف كده.

وصمت، ثم قال:

ـ ما تعمل لنا شاى.

نهضتُ وتوجهت للمطبخ وتركته يتأمل الصور، وعندما عدت، كان يقف بالقرب من الجدار تحت صورة القديس الذى خلف رأسه هالة

من النور، والذى يقف تحت الزيتونة الخضراء، يلوح خلفه تل مضاء بزهرات صفراء نارية، وبجانبه فرشت على الأرض سجادة زرقاء ينام فوقها الطفل الرضيع العارى، الذى يمد كفه إلى الأمام ويبتسم. كان الرجل يحدق مرفوع الرأس، وكأننى سمعته يجهش بالبكاء، منتحبا، ويخرج صوته بالغناء منشدًا: «أوانى.. أوانى.. أومومو.. أمومو، هو هو.. هو هو.. وويا.. ناشينجو.. ناشينجو.. ناشينجو».

زبيدة والوحش

«رؤية فى نصين»

نص ١:

طوقتْ عنق الفحل بالخرزة الزرقاء المباركة، والحجاب الحارس، والعظمة البيضاء الشائهة، والجرس الصغير الذى يصلصل كلما اهتز رأس البهيم.

طبطبتْ على العنق؛ فدس الثور خطمه فى صدرها الغنى. ضحكت زبيدة وحلت مقوده وخرجت من الحظيرة.

رفع «أبو سلامة» هامته لما رآها خارجة، وقال:

ـ اسقيه، ومشيه حبه علشان يفك عظمه.

ردتْ عليه:

ـ حاضر يا خويا.

مشى الموكب بجلال حتى النهر، يصلصل الجرس، وتخطو الجليلة بجسمها الفارع على تراب السكة، تقود فحل الدار عبر طقس كل يوم فى انتظار مقدم طالبات العشر.

الظهر، صرخ الذى هو صاحب العجل:

ـ يا ناس حرام، الثور معشّر النهارده تلات بقرات، وانهد حيله. أفقده يعنى؟!

رد صاحب البقرة:

ـ يا أبو سلامة، البقرة صارف، وطالبة العُشْر، واحنا جايين من آخرالدنيا، هايْجَه وفضحانه فى الجيرة كلها. مفيش مخلوق إلا لما نَطّتْ عليه. جاموسة تركبها، حمار تركبه. خايفين لتبرد، وتعدى عليها السنة وهى فاضيه.

ـ يا خلق م التيران مالية البلد!

ـ وهى دى تران يا أبو سلامة، دى معيز.

وتأملوا الأدهم المتوحد، الذى يزرر أذنيه وينصت للريح أعالى الشجر: قوام مشدود، وكتلة من عضل، تجعدات على الجبهة، وعيون ساحرة، مدهشة، تمتلئ بطمأنينة، وتنظر بعطف ناحية الغيطان.

ـ وهو فيه طلوقة فى الجيرة، وجيرة الجيرة دى زى عجلك. ده يساوى وزنه ذهب.

خمّس بكفه، واستعاذ من الشيطان الرجيم وتمتم: «ومن شر حاسد إذا حسد»!

جابه الكلام ونخ. وعاد يتأمل ثوره فى محبة. بينما ارتفعت يده تربت على زنده.

قال، وكأنما يتكلم مع نفسه:

ـ أمه، سنويا كانت بتشيل عجلين، لكنها لما ولدته كان لوحده.

صعدتْ «زبيدة» كوم السباخ، وبدت بقامتها المديدة للناظرين بهجة. صاحت فى أخيها:

ـ خف عن العجل يا خويا.

ضغط «أبو سلامة» أضراسه وقاوم غضبًا مفاجئا، ثم أشاح بيده وشخط فيها:

ـ اعملى شاى يا زبيدة.

توددتْ البقرة وتمنتْ. ولحستْ خطم الثور بلسانها الخشن؛ فلم يحن، وظل ناعس العينين متعبا، يقف مجترا طعامه غير مستثار. يهرش له «أبو سلامة» ظهره، فما يهش بذيله ذباب الجرن فى قطعة الصيف.

خارت الأنثى طالبة. يأكل قلبها الحنين، والرغبة فى الوصال. ضربتْ بذيلها الهواء كاشفة عن عورتها أمام قناطير اللحمة الهامدة، والتى يكسوها جلد متفصد بالعرق.

زغده «أبو سلامة» فى زنده بسن «النأز» السنط، وشخط فيه:

ـ اللى يشوفك يا خويا دلوقت، ما يشوفك الصبح!

استدرك.

ـ يا خلق ناطط تلات مرات. ده حتى يبقى افترى!

هب هواء بئونة من الأجران حاملا عبرة التبن، وترابة الجسور.

همّ الثور، لكنه تراجع منكسر الخاطر. دار حول نفسه وخرج خواره تنهيدة متعب، ونظر فى عين صاحبه؛ فطبطب على ظهره وأرخى له عنانه، وقال:

ـ مالك يا أبو السباع؟!

ربّت صاحب البقرة على زنده ورجاه:

ـ هِم يا أبو السباع أمّال.

أنين دامع لنوارج دوّارة من أول النهار حتى آخره المقضى. ثيران صابرة تدور على رميات القمح، مشدودة الحبال لا تكل من الدوران، وفصد عرق الجباه.

ما كل هذا الصبر الذى تحمله فى صدرها الثيران؟!

من طلعة نهار الإله حتى مسائه، تدور، وتدرو، تنفرط حبات السنابل، وتكون الكيمان على أرض الجرن فى انتظار أهل السبيل؛ مستحقى الزكاة؛ لأخذ حقهم المعلوم.

دفست البقرة مؤخرتها قرب زند العجل، وخارت بكل عطش رغبتها فى العشار. تطلعوا ناحية الأرض «البرايب» الشراقى التى تنتظر دورة الرى.

سُخُنْ فحل الدار، وجرى دمه. خار بصوته الغليظ وأرسل نداءه الحيوانى؛ منبها ابن آدم الواقف أن الطبيعة تستجيب. وصلتْ رسالة الذكر للأنثى؛ فدبدبت بحوافرها وحنّتْ ونطحت الهواء، واندفعت ناحية الثور واثبة عليه. صرخ صاحب طالبة الوصال:

ـ البقرة هِتَنْهَبَلْ، اهمدى الله يهدّك!

وضربها بمقودها على وجهها، وتفل؛ فجعرت فى خلقته، فصاح.

ـ غرايب. حد شاف كده!

ثم وجه كلامه للثور :

ـ ما تشد حيلك يا أبو السباع!

«وكنت أقف بدهشتي، وصغر سنى أفهم ولا أفهم، يأخذنى ما أراه وأتطلع من فوق سياج معرفتى الأولى، وأجتاز بلا إرادة ـ كالحالم ـ المسافة بين ضربات قلبى ورعشة دمى، وأعود محاولا فهم ما تصنعه البنات بى عندما نلعب فى ساحة الدار؛ عروسة وعريس».

همّ البهيم ووثب وثبته، حتى إن صاحب البقرة صرخ :

ـ خلاص أهه، سخن دمه!

وانحطت قناطير اللحمة راكبة الجسد الرقيق المطاوع؛ فانهد على الأرض واقعا تحت جسم الفحل الطلوقة. سحبوها من تحته؛ فهمت واقفة. لمعت عينا «أبو سلامة» بالبشر، وابتسم وقد رُدت الروح لبدنه وصاح :

ـ أيوه يا سيدى، أيوه. لا تحكم على الثور الأصيل وهو على المزود، احْكُمْ عليه وهو تحت الناف.

وصفق بيده، وقال باستحسان :

ـ الله! الله! يا أبو السباع.

«وصلصل الجرس فى رقبة البهيم، وانبسطتُ لما انبسط أبى. وحين رأيتُ عين الحيوان حمراء مثل عين الجن، وسمعتُ لهاثه كصوت كور الحداد؛ قلت : أنتزع من نفسى مخاوفى وأتبع دمى وألبد عند «مرادة» النساء وأرى أفخاذهن العارية فى المياه. وقلت : على ألا أخاف فى الليل من عين العفريت الحمراء».

رمتْ «زبيدة» الضفيرة على الخصر النحيل وخطتْ خارجة من الدار تحمل صينية الشاى يستحثها لهاث العجل. تمتْمت لنفسها: «مرّة، ومرّة هيجبيوا أجله»! وحركت الملعقة فى الشاى وجاءتها كركبة وطء اللحم الحى للحم الحى، والقوائم بحوافرها تذرو العفرة وتعلن عن اشتباك الدم بالدم.

وقفتْ على العتبة بين ذكر النخيل وجوفاية من غير ما ظل. يشرئب النهد الرمان، والقامة المديدة، فيما تطحن «زبيدة» أضراسها من الغيظ، وتحدق فى المشهد بغضب العينين المكحولتين بكحلهما الربّانى.

ـ هيه.. هيه.. ارخ له الشحاط يا أبو سلامة، هَيْصبَها أهه.

اندلق لسان البقرة وانساب لعابها من شدقها المفتوح، فيما يحاول الفحل بثقله.

الثور من تعبه ضل طريقه؛ فامتدت يد «أبو سلامة» ولقفت عضوه الذى فى رفع سيخ الحديد المحمى، وألقمته رحم البقرة.

«وانقضى الوقت، ورأيتُ من بين الطواقى الصوف، البقرة الحرون ترخى جفونها وتستكين وكأن عروقها قد ابتلت، ونظرتُ فى عيون البنات الواقفات وابتسمتُ، فيما أشَحْنَ بوجوههن عنى، ورأيت عمتى «زبيدة» تهوى من يدها صينية الشاى وسمعت أبى يقول لها: «فداكى يا زبيدة».

قبض «أبو سلامة» عرق ثوره جنيهات عشرة، وضرب مؤخرة البقرة وضحك ضحكة صافيه جابت آخر الحارة.

ـ مبارك يا عم الدخلة، والبركة فى الخلفة عيال وعجول!

«ونادى أبى علىَّ: يلاَّ «يا عبد المولى» حموّا العجل، ولما سحبته سار خلفى طائعا كالماء، وخُيل إلىَّ أننى أسمع ضربات قلبه، وأرى فى عينيه التعب. أخطو على تراب الطريق تسبقنى شمس المغارب الاحتفالية. كنت أرتدى قميص أبى؛ حيث يمتد كمه فيخفى كفى، وكنت أسمعه يتحدث عن الشمس الحرة، ومحصول الغلة، والناس الذين أصبحوا فى عدد النمل، وكلما اقتربنا من الماء ضوى، وحلقت طيور راحلة، وسمعت ضرب أجنحتها، وصوت غنائها، وزحفت الثعابين فى النسيلة، وانفلت السمك سابحا، وزاط العيال خلفى: العجل هيستحمه»!

كسرتْ العمة «زبيدة» وجه النهر بالطشطية النحاس، وملأتها وخرجت إلى الشط. وكان «أبو السباع» واقفا بين المربط القديم، ومرادة النساء. دلقتُ على الجسم الحميم الماء؛ فانساب فى خطوط على الأرض التى ارتوت. دعكتْ جسد البهيم بقبضة من قش الأرز فى حماس غجرى، تسرح يدها على الظهر وتهبط أسفل البطن، وتصعد إلى الزند. حماس اليدين، وجسد الشابة المتوثب، ودفق الماء على الشط فى احتفال حموم العجل آخر النهار، بهجة، وشبعة للعين. سقطتْ طرحتها عن رأسها؛ فبان شعرها المضفر كلما اهتز بدنها. وجهها المليح بغمازته على الذقن، والخال على الخد فى حجم العنبة البناتى.

صاحت الجارة «حميدة» من عند المرادة:

ـ جتك إيه يا زبيدة، البنتْ يا أختى بتحمى العجل ولا العريس!

شخطت «زبيدة» فى الجارة.

ـ سدى حلقك يا مرة. ده ضُفْره برقبة المحروس جُوزْك؛ مدخّل الدار النهارده خمسين ورقة مَيْدَخَّلْهُمْش فحلك، ولو اشتغل فى الفاعل. لو زحف على بطنه.

ربتت على ظهره وهمست لنفسها:

ـ تسلم. فاتح الدار، وطاعم العيال.

«وضربتُ بيدى الماء؛ فأغرق الحمة التى كركرت بالضحك فى حنيّة، ورأيتُ فرحى بالماء على وجهها، ولما كشفتْ عن رجلها بان طرف سروالها المنقوش بالورود، واكتشفتُ فى اللحظة أن عمتى طول الفرع، ووجهها منتهى الجمال. خوضتُ فى الماء ورششتها به فاحتمت بالعجل منى وقالت لى وهى تضحك: «لا.. لا.. يا عبد المولى، هَتبلّنى.. ثم صاحت فى، وهى لا تزال تضحك.. بس.. بس، انزل وخَد لك غُطْس».

المغرب على البلد خيمة من غيم.

احتضر النهار، وسربت الكوانين دخانها، لكل دخان رائحة. قطيع العائدين للدور باحثين عن مراقد لجنوبهم، عابرين السكك الجربانة بتبن الدراس، وموحولة بجلة القطعان الآيبة.

يأتى الليل ويصعد القمر آتيًا من عند شباك النبى، وتتجلى الليلة من ليالى التمام، فيما يفوح زهر الليمون من جنينة «العراينة».

ألقى القمر بغموض ظل الثور الجاثم على مربطه، فانطرح ظله على اليمين.

«ولما أشعل أبى النار على يمين الثور؛ انطرح ظله على الشمال،

ورأيتـه يمتـد، ويطول كلمـا ارتفـعت النار وعَلَتْ، وكـدت من فـرط ولعى، أقف فـوق خـياله، إلا أن عـمـتى نهـضتْ وأحـضـرت الدف وأخذت تضربه ضربات خفيفة أول الأمر، مألوفة وتحدث كل يوم، حـتى إننى قلت: «هى التى لا أحلم إلا عـلى فـخـذها»، ثم ألقـيت برأسى، وكنت أرى أبى وهو يلف سيجـارته على وهج النار ويبللهـا بريقه وأسمعه يقول: «الله . . الله يا زبيدة»، ثم يشرد لبعيد، وعلى غير توقع اشتدت الضربات وكأنها تخرج من داخل مغارة مسحورة فيـما يطول خيال الثـور ويمتد، نغـمات كالتى كنت أسمـعها عندما تأخذنى أمى يوم الجمعة لزار «أم حمامة». كان رأسى على فخذ عمتى أتطلع ناحيـتـهـا، يهـتـز جـسـدها فى إيقـاع رتيب مع ضـربات الدف المنتظمة، وأنظر بشغف، يغزو قلبى دفء الضربات، وحركة الجسد الرتيبة «بوم بوم. . . بوم. . . بوم بوم بوم»، تنفتح أمامى عيون البراح وأصعد مرتقيا ناحية النجوم البعيدة وأقطف حباتها الخافقة. . حبة لأبى الشـيخ. . وحـبـة لعـمـتى الأرمل الجليلة. . وحـبـة لثـور الدار طاعم العيال، الذى أركبه الآن ويركض بى حتى شباك النبى».

الصـبح بدرى نهض «أبو سـلامـة»؛ صلى وأفطر وتوجـه ناحـيـة الزريبة. دفع بابها فلم ينفتح، كأن شيئا يعوقه. دفعه بكتفه فانزاح. حرر جسده بصعوبة. كان الأدهم الحكيم مرميا على جنبه، تسد رأسه فتحة الباب. ركع الرجل على ركبته يتحسس ثوره وتاه فى الأسباب. همس وهو يتأمل البهيم: «يا خرابى»! إلا أنه وهو فى العتمة التى بدأت تزول؛ رأى أخته «زبيـدة» الأرملة الجـميلة ذات الثلاثين ربيعا، والتى تعيش خرافتها تحنى جسدها ـ له المجد، وتخرج من رضـاعة ثوبها ثديها الأيمن الذى ينير عتـمة الزريبة، وتقبض بكفـها عليه وتعـصره بنشـوة

جليلة، مشبوبة؛ فينساب سرسوب اللبن فى خطوط؛ حيث التخوم البعيدة، تخوم عشق الحياة والموت.

نص ٢:

ما الذى جعلنى بغير إرادة منى؟! أندفع فى محاولة اليائسين، داخلا متاهة البحث هادئا، وناظرا بحكمة من ورثونى الحكمة؛ بقصد تعرفى على ذى القرنين، كأننى بلا احتفاء رأيت التى فى بيتها أنسل منها نسلا يفيض بفيض الله الذى لم يخلق الأرض وحدها، والذى لم يسترح، فأختلطُ بظله وأمتشقُ فى يدى خلودى الذى قرأتْه لى فى طالعى امرأة جوابة وأنتهى بأننى حاولت وصل دمى بدمه متأملا جسده الخصيب فى جرن الخراب أمام مَثوانا، وأننى - وأنه - من فرط تشابهنا ومنذ صبانا عند ذات الشعر المستحمة فى دمنا، أتأمله بدهشة النظر مجسداً على غابر الجدران التى هى من صخر يخطو مرفوع الهامة فى مواكب الملوك الذين يجلسون تحت الشجرة المقدسة على عروشهم، التى تخجل الشمس فى فجر الطلوع الأول، فى انتظار تسجيل أسمائهم على أوراقها التى تهب عليها من أبد الآبدين عاصفة تراتيل التمائم، التى طوقتُ بها عنقك قربانا؛ لستر عورتى وفضيحتى يوم أن أموت، وتسير أمامى فى موكب روح «بتاح» إلى منف البعيدة القريبة، جاراً عربة الملك فى وقت اقتراب الروح من الجسد؛ ليعم الوادى حزنه المقيم وينتهى كهنة الجرم السماوى مبعثرين تحت السحب الراكضة ناحية الشمال، سائرين فوق الماء الذى يأتى بفيضانه من الظلام إلى النور؛ والذى يأتى فى وقته، والذى يذهب فى وقته والذى لم نكن نعرف إن كان أنثى أو مخصبا؛ فالبجعات والحروف والمفاتيح والأهلة المقلوبة وخط المسمار ينقش على لوح العاج النوبى، والأكف القابضة

على مصائرها وأنت وسطها تدفع بعظام رأسك المشْرَعة الخوف عن طلعة الشمس التى تحاذر الاقتراب من المغارب التى سوف تشرق من مطلع ا لنوم حتى بدر التمام، والتى سوف تشرق فى ظلام الليل وفى النهار الطالعين بحتمية دورة الكون؛ ليقص الأفضلون من سبقونا الذين تثغو نعاجهم عند المزاود، للذين علقوا على أخشابهم، والذين وعدوا من وقعت الكرة بكم ثوبه بإرث ملكوت العالم؛ حيث يضربون بالمنايا على طريق رمح الجياد؛ لتتفتح البحار على المثاوى الجديدة وتنفرج أبواب السموات لتنزل الملائكة المجنحة بالنور وتهتف بنا. هو المقدس جلعنا حراسا لطبقاته الملونة التى أجلس تحتها فى حقل قطننا القديم؛ أختبر بلوغى فوق طين المراوى وتحت الخروعة، وألعن صبى أيامى ورفيق رحلة الشؤم من بدء جمع نور القمر فى الحارة، الذى جعلنى أشعر بالإثم من لذة الدهشة الأولى واكتشاف مَنىٍّ على ثوبى، وصرختى فى البراح عندما رأيتك فى قطعة النهار تناوش مرة ومرة ومرة؛ فأدرك بادئ ذى بدء، أن المجد فى الخصوبة التى تجلس على يمين الله؛ الذى عرّفتنى به جدتى وقالت لى انتهى للسجود فلم أسجد؛ لأننى منذ البدء حلمتُ بامتطائك أيها الأسود المرقط بالبياض، لتشرع عظام رأسك وتنطلق قبل الغبش لتمسك بذكرى الراحلين الذين تركوك صبيا عند المدار بين اليد التى تجعل من حبات الذهب عدواً للطوى والمجاعة؛ حيث تدور الحارات وأزقة الظلام والوحل وجسور المصارف ساحات القرى وصحن المسجد الجامع ورواق كنيسة الأم العذراء بالأقدام الصغيرة المخالب وزغب الطيور الأخضر فى دفء الأركان داخل البيوت المظلمة بظلال مصابيح الغاز القديمة، والتى هى منذ الأزل مراقد لجُنوب الآلهة المتوجين، والتى لم تكن أبدًا مثاوى لجُنوب الفقراء الذين تدب أقدامهم فرحين عندما يسمعون صوت خوارك فى

أزمان العشار؛ فتفض الطبيعة سترها وتنفضح عروق الدم عن عشق الولد والفسق بالمحارم وضرب أعناق الرجال بالفئوس والشقارف والبلط اللامعة المسننة، ويرون سرسوب اللبن وخرطة الجبنة القديمة التى تسكن بيت الفخار من ألوف السنين، وعمتى، عمتى التى هى فى ضميرى ـ أراها خارجة من شفافية حلمى عابرة جسور أيامى، المهيضة رأسى على عظام فخذها، فيما أصعد معراج النجوم أقطف حباتها؛ نجمة للنار ونجمة للتراب ونجمة للماء ونجمة للهواء ونجمة لحكايا العمة وللرواة أهل السكك والطرق وعبدة صنم الصحارى حول ركية النار، وضرب عصف الشتاء للشيش الخشب وقطف حزن عيون الصغار المندهشة بالعجب، وجمعها حروفا أتوكأ عليها فى شيخوخة زمانى وأواجه بها الدعى والظالم والكاره الحقود والخدام وخصى السلطان والفقير الشرس والمدمن الأهتم قليل الأصل، الذى يود أن يدفع بخيباته إلى ضميرى، هاربا منهم، ضاربا جنبك بمهماز الريح مندفعا إلى آخر المصائر، باحثا عن طلة الموت المستقر فى بئر حديقة الدار بجوار حدائقك الملكية، التى يحوط مزارعها عباد الشمس؛ لتنطلق تراتيل المصلين الحروف الطيور وينفتح عندها النظر الخئون برؤياى فأمشى خلفك، بيدى تميمتى وخبزى وغموسى، أخاف من أن تتبعنا ذات الهامة المديدة، من تعيش خرافتها وزمن خصوبتها بعد أن فارقها من كانت تحلم به فى حلمه قبل أن يفارقها، والتى أحسستُ بها خلفى بعد أن مشينا فوق صفحة النهر خلفنا الساسبان والحلفاء وبوص الشطوط ورأينا هجرة الحمام من بيوته ذات السموق، سمعتها تهتف: القمر عند شباك النبى أين تذهبون؟! وعاودنى خوفى حينما انطلقتْ بالماء تملأ البيادر بالقوت وتكسو البدن بالكتان وغزل البياض الشاهق، وتنتح بجرار الطين الماء لتسقى فلوح الأرض بأنين الحديد، الذى يعب

من بحر يوسف النبى طينا وسمكا وخبزا وأحلاما حيث يشد جسدك إلى النير وتفصد الدم على المدار دورة ودورة ودورة، والعين للأدهم تحت الغومة فى ظلام العمى دورة ودورة ودورة، تنتح الماء من بئر يوسف النبى الذى انبجس من بين أصابعه العشق والدم وأول الخراب، وتخط خطط القرى نبتة وشجرة وحارة وضريحا لأبى، الذى رحل ممتطيك يلتف بكفن الكتان لا تبدو عيناه ناظرتين إلى من هجر دياره لسنوات، والذى لم يودعه حينما دفعه جنونه للرمل والمدن البعيدة، وتسلله عبر أسوار الخصيان واللواط ومحدثى النعمة ومواجهة المدى المطلق للموت، والسماء تبدو بلا غيم لأن البحر بلا غيم - ينطلق حاملا نعش أبى ناحية المغارب؛ حيث تطير طيور بمناقير من نحاس، تصيح فتذكرنى بأيام كنت أعشق فيها النهر والحارة وجوادى الأشهب، وأسمع نداءها فى الفجر: المُلْك لك لك المُلْك؛ أنتظر، أنتظر، أنتظروأرفع القناع عن وجهك فهو قناع الحكمة ولا تحدث بعينيك تحاول قراءة فصل الغواية من قلبى، وأنصتُ لصوت الماء الذى يخر ويرسم على التراب المصائر ويصلصل جرسك فى السكون بالصدى الجليل، حيث الخطو على التراب أنْتَظِرْ، أنْتَظر، أنتظر، فمن يحلم بعودة الوثن وانطلاق الغرائز والإنصاتَ لصوت زخات المطر فوق قبة الجامع، ورؤية قيعان البيوت المدهونة جدرانها بالطين والتبن، والمكبوسة بدخان نار الشتاء التى فقدت المؤانسة؛ حيث تجلس عمتى تخيط ثياب من غابوا وتكوّم كسواتهم فى انتظار عودتهم غير سالمين، المجروحين فى قلوبهم يأتون فى زمن الذبح الموروثة بأيام الجوع والسطوة من الخصيان والجند كل تلك الألوف من السنين، انْتظر، انْتظر، انتظر ودعنى أتبعك حتى سطوع آخر شموس جمع الثمار ورَىّ الأرَض وظهور الأقمار السبعة ومثاوى الرقاد زبيدة زبيدة زبيدة ضوء

قبل المغيب وآخر اختيار للموت والصعود المبكر ناحية سلالة الدم، والتى من طين ولبن يضرب دمك بلغة الريح، والحلم مذرىّ بها فى الأنحاء بالموشح والموال والشفاعة وحلقة الذكر فى المواسم، وتعلو على القباب المنوّرة بألق البيارق وصفوف الدراويش أصحاب الكرامات والأجساد الهزيلة الملمومة فى لمة متآلفة بنثار من صراخ المغنين والمصروعين المركوبين بالجن والشيطان والعاشقات المغنيات أهل الطرق، وناس السكك وأصحاب الخطوة وطقس السرادق والصوارى الملوّنة الرايات، احتفالا بالميتين الطيبين الأوفياء أصحاب الذكرى السابقين، الذين لم يمح «أوقيانوس» الماء عطر ذكراهم. انتظر، انتظر، انتظر أيها المندفع، لقدرك قدرى هناك عند المغارب؛ لأنك رأيتها تخرج حيّة عارية من رمسها من غير ثوب يستر بدنها، محاطة بنسلها الكثير فى المرادة من ألوف السنوات، تفجر الخصوبة عيالا وثيرانا وطيورا ونملا وثعابين طالعين من الدم يحذرون حقيقتك - حقيقتى - انْتَظِرْ، انْتَظِرْ، انتظر.

تجرد من ثيابه فيما كان يطلَع النهار، لم يكن أنثى ولم يكن ذكرا، ينتشى بذاكرته الحية وينتهى إلى ما اعتقده بيقين لا يعرف الخوف منذ طفولته، بأن الرؤية غير الرؤيا، وبأن ما يوجده الخيال غير ما يوجده النظر، وأنه أمضى طوال عمره باحثا فى البراح عن عمار لروحه، وسكنا لاعتقاده، وحينما ابتسم فى الضوء الوليد وقبض على ثديه الأيمن وضغطه بعشق الحياة والموت؛ فاندفع - حيث التخوم البعيدة - سرسوب اللبن، فغشيت الدنيا بغاشية البياض.

كل تلك الفصول

فيما بين الظلمة وطلة الفجر، تدرج النسوة صاعدات إلى سطوح الدور ينشرن طرحهن السوداء فى الريح، وينظرن من خلالها فتبدو الدنيا مكتسية بسواد الطرح الخافقة.

كانت تقرع الكفوف النحاس فيتردد صدى الطرق على الأبواب: «ولدى يموت، وينتزع كبدى. افتحوا الدور».

هبطت النسوة الدرج. كن حاسرات الرءوس، يضربن صدورهن بأياد كالمخالب، ويغصن فى ليل كالعمى، وعلى السطوح لا تزال تضرب الريح الطرح المنشورة.

«يا إلهى القدوس! هذه ليست صرخة، لكنه الوجع».

انزاحت حملان الصوف المعبقة بالعرق، وانتزعت الصرخة الأجساد من مراقدها.

«ادفعوا الموت عن ولدى».

بدا أول النهار على أرض المجاز، الذى يفصل الدار عن سياجها، نعش من خشب أصفر بأربعة أذرع وظل، ومصباح صفيح كتميمة قديمة يستقر فى نهشه بجدار الطين. من بطن النعش تفوح رائحة شيح قديم، وعطر رخيص باذخ، وذكرى لموتى راحلين.

«ولدى»!

ولم تذرف دمعة.

قبضت بيدها على خناق جلبابها، ودارت فى البيت برأس مشعث، وكف مفرودة وهى تصرخ: «آه»!

شلشلت بطرحتها، وتحركت ناحية النعش فزحف خيالها حتى استقر فوق الكسوة الحرير. طفقت تصرخ بلا دمع فى وداع ابن الثلاثين.

بعد تجهيز الجسد للدفن بمراسيم الشريعة، استند ضرير للجدار وتلا الآيات بصوت كسول: ولدى!

دقت صدرها بقبضة الذئبة الثكلى، صاح أحد الرجال: «إكرام الميت دفنه، والدنيا هذا النهار حارة».

توقف قارئ العتب عن اهتزازه، وانبجس ضوء الشمس خيوطًا.

ألبست النعش طربوش ابنها المفارق. سوت زره بيدها وابتسمت. أحاطت الطربوش بلاسة من حرير أشهب، وبسلسلة فضية تنتهى بساعة جيب متوقفة، وبحزمة من الخوص، وبزهرات بيضاء وضعتها فى مقدمة النعش.

سكنت لحظة مطأطأة الرأس فوق الكسوة، ثم رفعت عينيها للجمع وحدقت فيه؛ حيث كان يتوزع نفر قليلون بجوار السور، وعلى أرض المجاز وبجانب النخلة، وصاحت فيهم: «ولدى أزفه للموت»!

أطلقت زغرودة جلجلت كالجرس.

انبهت المشيعون الذين أخذتهم المفاجأة، وتمتموا آسفين.

«ابنى الوحيد الذى من صلبى، يذهب؛ حيث أبوه».

وأطلقت أخرى.

«جنت المرأة»! قالها رجل فى عبه، ومسح دمعته الساقطة.

عادت بعد أن وارت وحيدها التراب، وفى ذيلها نسوة البلد. كانت صامتة، مزمومة الشفتين، تنظر إلى الأفق البعيد؛ حيث البراح على الأرض البور المتوحدة فى ذلك الزمن البعيد.

وقفت أمام بابها وشدت جسدها الفارغ ونظرت حفنة الدور. بيوت عشرة: بيت على الترعة وخمسة فى الجوار، وثلاثة فى حضن بعضها البعض، ثم بيتها بالقرب من المسجد الصغير، فيما تبدو ساقية بقواديس من فخار موروثة، وعلى البعد تلوح أخصاص تصفر بقشها الريح البدائية، ومن خلفها يطل شاهد قبر ابنها الوحيد.

دخلت دارها، وأغلقت الباب.

مرت من الأعوام عشرون، وهى مسجونة بإرادتها. خدمتها أختها كل تلك السنين؛ تذهب إليها مرة فى الصباح، ومرة فى المساء، فتطعمها وتسقيها، ثم ترد عليها بابها.

فى العشرين سنة الأولى تمادى النيل فى الزيادة. كان ذلك فى شهر «صفر» الذى يوافق شهر «مسرى» القبطى، وظل يفيض حتى ثالث أيام النسىء، فاختفى الزرع وبدت البلد كقوارب عائمة، وهبت فيها ريح القبول ففسد طلع النخيل، وكسفت الشمس مرة، واختنق القمر مرتين؛ وذلك لاختلاط البروج. وحوطت الدور الجديدة الدور العشرة القديمة. وشق طريق يصل البلد بالمركز، وسمع دق أجراس

مدرسة أقيمت على عجل. واختير للبلد عمدة وشيخ للغفر ومأذون. وسار على السكة أول طالب علم.

وعندما ودعت أختها الدنيا، ومع آخر لقفة نفس، أمسكت بيد بنتها وهمست لها: «وصيتى خالتك».

خدمتها بنت الأخت من السنين عشرين، فكانت تزورها مع الغروب، حيث تخطو متلفعة بطرحتها بجانب الجدران كشبح.

فى العشرين الثانية وقعت بالكفر أول جريمة ثأر، واعتدى أخ على أخته فقطعوه بالبلط، وراح دمه، وولد طفلان من سفاح، وعمت الدودة الغيطان، وسرحت على الأوراق وعلى شطوط الترع، وزحفت حتى باحات الدور، لدرجة أن الخلائق كانت تجدها لابدة فى المراقد وعلى المخدات وداخل فرش المنام، ولما ضاقوا بها استعملوا السموم؛ فبادت طيور كانت موجودة فى الكفر منذ الأزل، وشرع فى بناء المسجد الجامع بقبة، وخلاوى عشرة، وحمام وطلمبة بعجلة من حديد وصهريج على السطح، ولما تم البناء توفى العارف بالله الشيخ «أيوب»، ولما ظهرت له كرامات خارقة، ومعجزات تحير الألباب، دفن تحت القبة داخل ضريح مزدان بالنقوش، وصار الجامع مزارًا، وامتد على شاطئ النهر شريط لقطار أسموه «الفرنساوى» والذى كان يطلق صفارة فى المساء وصفارة فى الصباح، وتسورت البلد بالشجر، وبدت الأرض فى ذلك الزمن مضيافة وطيبة القلب.

وكنت قد تجاوزت العشرين، أحلم دون أترابى بالمستحيل، وأعشق الخرافة والحكايا القديمة، وأرغب فى الولوج خلال الأبواب المغلقة، بابًا بعد باب، وأحاول ـ بكل الصدق ـ التعرف على أحوال الناس، وأحوال الدنيا.

وكانت تأسرني حكاية السيدة التي بلغت التسعين من العمر، والتي كانت تمت إليَّ بقرابة من بعيد، والتي حاولت أن أطرق بابها مرة فحذرني شيخ المسجد وقال: «إياك، المرأة مخاوية». .

ولأنني تخلصت من الخوف بالمعرفة؛ سخرت من الرجل، وعزمت على أن أنتهك وحدة العجوز مهما كلفني الأمر. وعندما قابلتني بنت بنت أختها، سألتها: «ما أخبارها؟!!، فنظرت ناحيتي بنظرة عدائية وتجنبت طريقي، وفي مرة ثانية قلت لها: «خذيني معك». ولما ردت على «إلى أين؟»، قلت لها: «عند العجوز»؛ دفعتني في صدري وقالت لي «لا تطاول وحاذر» ولما انصرفت من أمامي ووصلت إلى الباب نظرت ناحيتي فهرولت تجاهها، لكنها أغلقت في وجهي باب الدار.

ولما كنت مغرمًا من صغري بتسلق النخيل لذا تسلقت نخلتها المائلة من فوق السور؛ حيث هبطت على سطح دارها. بيت نصف سقفه من السعف، تقشر كلسه وضربت الرطوبة جوانبه. رأيت على السطح صومعة للغلال، وحمامًا لا يطير، وأرانب انفلتت مختبئة، وصف الطوب المركون للجدار شعرت برجفة، فإلى أين يقود هذا السلم الهابط؟!

فتحت باب السطح ونزلت الدرج ينتفض قلبي. كان أول ما أحسست به رائحة شيخ، ثم هبت نسمة رطبة وأنا أهبط الدرجات.

فجأة توقفت، عندما شاهدت ضفيرتين مجدولتين من شعر أثيث أبيض، ورأسًا غافيًا على أول درجات السلم، همستُ: «هي»! أحستْ بي فانتبهت، وحركتْ جسدها، فيما يستقر على صدرها صندوق من خشب تحتضنه كفاها في إصرار. تحرك الرأس تجاهي؛

فرأيت الوجه وقد كسته التجاعيد. تبرق العينان ببريق لم تطفئه كل تلك السنين. قلت: «ازيك»، فأطلقتْ نباحًا ومدتْ يدها ناحيتى، وكأنها تدفعني بعيدًا. فذعرتُ وشعرتُ كأننى مدفوع إلى فراغ مخيف. رجعتُ بظهرى حتى النخلة التى أخذتنى وأسلمتنى للأرض. تنشقتُ الهواء، وعند مرورى بالوسعاية، تطلعتْ إلى النسوة بشك وبشىء من الريبة.

بعد انقضاء ثلاث من السنين، هبتْ ريح السموم من الغرب، وعتمتْ الدنيا، ثم أظلمتْ، وهطلت أمطار فى غير أوانها، واهتزت الأرض هزة خفيفة، فسقطت دار من الدور العشر الأول.

سمعت من يصرخ: «فتحت العجوز باب دارها».

عبرت القنطرة عدوًا، ظهرى إلى سبيل الماء المبنى على شط الترعة. تساءلت: «هل آن الأوان لأسبل عينيها وأواسيها لحظة أن تحتضر، أنا الذى جئت بعدها بعد انقضاء هذه السنين؟»!

وكانوا لفرط دهشتهم قد رأوا الباب يفتح من غير توقع، وتهب من داخل الدار رائحة بخور وصندل محترقين، ويسقط من منور السقف حصيرة من نور، مفروشة على أرض مكنوسة ومرشوشة بماء خفيف.

وصلتُ واجف القلب، كانتْ تقف بالباب حاملة على ظهرها سنينها، محلولة الشعر الذى كان يصل حتى فخذها، تطوحه ريح مواتية، وكنت أرى فى عينيها ذلك البريق الذى خوّفنى، تحتضن صندوق الخشب المصدف، والمطعم بالعاج. سمعتها تفلت صوتًا كالنذير، أتى إليَّ عابرًا العتبة: «آن الآوان»! لم أفهم، واقتربتُ منها مستفهمًا: «يا إلهى! لقد انقضى زمن طويل».

قالت بصوت واضح: «احضروا الشيخ «رضوان» اللحاد».

قالوا لها: الشيخ «رضوان» مات.

قالت: «احضروا ولده».

قالوا: «لحق بأبيه»!

قالت: «وحفيده؟».

قالوا: «هجر دفن الموتى».

ردت بلا انزعاج: «ومن يوارى الموتى التراب بالكفر؟».

قالوا: «إسماعيل زايد».

قالت: «احضروه، حتى لو كان عظمًا فى قفة».

قبل أن تختفى داخل حجرتها، نظرتْ ناحيتى وكأنها تعرفنى، وسمعتها تتمتم: «مثلى من سلخ عمره من الزمن، لا يموت إلا عندما يريد»، واختفت خلف باب حجرتها.

اجتزتُ المجاز، ووطأتُ ظلال العريشة المبرقشة بزهرات اللبلاب البنفسجى، ورأيتُ قرب السور قطًا يغتسل بلسان من ورد. حدجنى بنظرة خضراء، وماء ناحيتى، كاشفًا عن مخلب ونابٍ.

عندما وصلتُ كانت مسجاة على ظهرها، وكنت قادرًا ـ فى الضوء الساقط من النافذة ـ على رؤية آخر ومضة من عينيها، وفى قلبى يهدر صوت: «سلام على الريح، سلام على التراب. تلك امرأة من أيام خلت».

سمعتها تقول: «الولد.. الولد.. ابعدوه عن النهر».

أدركت أنها ارتدت لأيامها الماضية، وأنها لا تزال تعيش أمومتها الأولى.

قالت لى: «إنها سوف تذهب»، فقلت لها: «بدرى»، فقالت: «بدرى من عمرك»، وابتسمت عن أسنان من لبن. قلت: «كأنما لم يعد شيء يفرحها، ترحل مدركة أن امتلاك العمر حلم مستحيل».

بدأ الشيخ يتلو بصوت ضمخه الحزن، وبعد أن انتهى لقنها دعوات عجلى، وتنحى جانبًا.

أعطتنى الصندوق وقالت: «هذا لك»، وغامت الحياة فى وجهها. تتبعتْ عيناها الشاحبتان خط الموت الذى يشق الآن طريقه، تدركه الحواس بإرث الفناء، يخطو من فوق القنطرة الخشب، التى يجرى من تحتها الماء إلى مستقر بعيد، طامسا آثار أبناء آوى المنطبعة فى وحل المراوى، هناك؛ حيث تجثم الجبانة التى انتشرت فى أعداد كثيرة، تفصلها دروب مزروعة بأشجار تتعرى من أوراقها المصفرة. سكنت المرأة القديمة، فقلت: «ماتت».

تأملت الصندوق، له رتاج من فضة، وعلى جوانبه فصوص العاج والصدف تنتشر تحت زهرات ملونة: «من أين جاءت به؟»!

فتحتُ الصندوق وأخرجت ما فيه:

صابونه عرس، حق من رمال بيضاء، خصلة من شعر أسود. مكحلة من فضة مرودها على شكل نجمة المساء، صورة باهتة لولد مبتسم على رأسه طربوش، ورقة مالية بمائة جنيه، خضراء ومشروخة من الوسط، ملصقة بورقة امحت حوافها، وبان من تحتها القدم. على الورقة رسم لمئذنة تسبح وسط الخضرة الباهتة. أسفل المئذنة تاريخ قديم

وحروف لكتابة منتظمة، وأرقام تشى بأن الورقة ذات المئذنة ضربت فى عهود مضت، وأنها لم تستبدل فى عهود تلت، ومن ثم توقف التعامل بها من زمان، حيث كانت داخل ذلك الصندوق الذى رافقها كل تلك الفصول، مدخرة للزمان القادم أجراً لنسيج الكفن، وأجراً لسرادق عزاء، يتلون فيه القرآن على تلك الروح القديمة.

الأرض البعيدة

ـ مناخل وغرابيل . . مناخل سلك وحرير طبيعى .

انتهى النداء للحارة، والزقاق، والبيوت المكبوسة بفضلات الآدمى والحيوان .

مكر الحمار منه فشده من حكمته وشخط فى خلقته، «ما تحاه: أنت هتتلبد . . ما تصطبح وتقول يا صبح» .

وعاد ينادى الفتى الفارع البدن، الذى ورث عن أبيه طوله، وعن أمه عينيها الواسعتين، ووجهها الباسم، الذى لوحته شمس الدوار على القرى، فبدا كرغيف العيش المقمر .

ـ مناخل وغرابيل .

وعبر بالحمار قنطرة، ودخل فى زقاق ضيق ينتهى بمسجد قديم يطل على وسعاية كالجرن .

ـ يا بتاع المناخل .

ـ نعم يا ست .

ـ عندك مناخل؟!

وضحكت بنت القرى معابثة، وشدت ثوبها الشيت على وسطها

فـحـددت الشـدة الردفين الهـائلين، وغـادرت باب دارها وتوجـهت ناحيته. بلع ريقه ورد عليها ساخرا.

ـ لأ. عندنا بطيخ.

ضحكت المليحة وزغدته فى صدره.

ـ يوه. جتك إيه يابتاع الغرابيل. أنت هتهزر يا ولد؟!

ـ هنعمل إيه بس، ما هى حاجة تفقع المراير. أمال المدعوق ده شايل إيه؟! قلايط؟!

دام ضـحكهـا، ودارت حـول الحـمـار المحـمل الذى يطأطئ رأسه ويتشمم بقعة على الأرض لبول قديم.

ـ وبكام الغربال؟

ـ ببلاش علشان الحبايب.

ـ دا يبقى غالى.

ـ الغالى يرخص لك.

ـ بعشرة.

ـ عشرة؟! يا أخى عشّرت من قرد. إنت يا ولد فاكرنا عُبْط؟!

ـ يا ستى متفرقش، وبين البايع والشارى يفتح الله باب.

ولكزته فى صـدره بـحنية، وبصت فى عينه بصـة دوخت الغشيم، وقالت:

ـ نزّل.. نزّل نشوف البضاعة.

وضع على الأرض بضاعته فانحنت تختار، وضرب الفتى دمه حينما تمسحت به، وساومته حتى طلعت روحه، فباع لها بأبخس ثمن، وسار ينادى حتى توسطت الشمس السماء البعيدة.

ربط حماره فى سنطة عجوز مزهرة بزهرات صفراء، وجلس على مقهى أكله البلى، وطلب شايا وكرسى دخان، أمامه شادر تجميع خضار الجبل وفاكهته.. أقفاص طماطم وخيار وبسلة مصفوفة، وعربات كارو، وسيارات نصف نقل مركونة على جانب الجسر فى انتظار التساهيل.

حط الذباب وانشال، وهبت ريح جافة ضربت سقف المقهى المعرش بالقش وفروع الشجر.

قال فى نفسه:

ـ السوق ميت، والزبون شاحح، وصاحب الشادر واقف ينش الدبان. شد نفسًا من الجوزة وملأ صدره. سأل جاره:

ـ هى الساعة تيجى كام دلوقت؟

ـ تيجى لها واحدة.. قطر الظهر لسه فايت.

عزم عليه بالجوزة؛ فلقفها من غير حمد ولا شكر، وشد منها النفس حتى صهللت، وطرد الدخان فصعد فى خطوط ودوائر.

ـ الأخ، ولا مؤاخذة غريب.

ـ أبدًا.. أنا بياع غرابيل ومناخل، سبوبة بنتسبب منها.

ـ يا راجل، وقاعد هنا؟! قوم اتوكل، وغوط ناحية الأرض الجديدة. الرزق هناك واسع، وأكل العيش يحب الخفية.

ـ ودى بعيدة؟ . .

ـ ساعة زمن على الحمار . . هناك فى الجبل . وأشار بيده ناحية الشرق .

دب الحمار على الجسر المخدد للترعة الجديدة وغوّط .

سحبت الأرض الحرارة من الشمس ورمت بها الفتى ، وأثارت حوافر الحيوان الغبرة وأفزع (قطاة) بلون الرمل ، فهفت طائرة ، ثم حطت داخل نبات الصفير و«الشيح» وبعض شجرات جبلية أ خرى نمت فوق الأرض الحرجية على مطر الشتاء .

نفخ من الزهق لما وجد عين الشمس فى عينيه ، وخلع طاقيته ومسح بها عرقه وتأمل من حوله كثبان الرمل .

لمح فى البعيد الأشجار ، مصدات الرياح ؛ فانحرف ناحيتها هامسا لنفسه :

ـ مشوار مطين . أنا عارف إيه اللى رمانى فى القطعة دى؟

لكز برجله الحمار وشخط فيه : «حاه»! فأنَّ البهيم ووسع من خطوه .

بدت الأرض الجديدة مسورة بالجازورين والكافور ، معزولة ومتوحدة . بين كل غيط وغيط مشوار لافح ، وحر يسيح الحديد ، وفلاحين فرادى كالغربان تكافح شح المياه ، وقطعة الجبل . رأى البيوت المبنية بطوب الأسمنت ، واللبن الأخضر ، ومعرشه بخشب الشجر ، وفلوق النخيل . أطلق صوته بدون داع .

ـ غرابيل ومناخل سلك وحرير طبيعى .

بدا صوته فى المكان بلا ألفة، كالغريب، فصمت، ولعن فى سره رفيق المقهى، صاحب الشورة الهباب.

انحرف على اليمين وسار على مدق من تراب أحمر.

أصبح فى عزلة حيوان فى فخ، يتوسط أرضًا شبيهة بالحمى، تشمها شتلات لزرع عجوز لا يستر صفرة الرمل ولا يبشر بخير. بدت له الشمس عالية، والسماء بعيدة.

اقترب ورأى أمام البيت شجرة جوافة، ونخلات ثلاث وقناة ماء صغيرة وسورًا من خشب وطين.

ـ هش.

وقف الحمار ونزل من فوق ظهره، ولمحت عينه امرأة تقف على العتبة. تأملها وكانت مليحة، وغريبة على المكان.

كانت تلبس ثوبًا ملونا ذا تفصيلة مدنية محبوكة على بدنها، فيما تركت رأسها بدون طرحه، تنسدل على ظهرها ضفيرتان طويلتان من الشعر السرح.

ـ العواف.

قال وبلع ريقه.

ـ الله يعافيك!

ونزْلت درجة من الدرجات الثلاث.

ـ نريح فى ضلكم حبة؟! المشوار طويل والحر يهرى البدن.

ـ اتفضل. . أرض الله واسعة.

ورمقته بعينين فى خضرة البرسيم.

ـ أنت بتبيع إيه؟

ـ مناخل وغرابيل.

ـ وإيه اللى رماك هنا؟!

ـ شار علىّ واحد، وكانت شورة مطينة بطين.

لمح ابتسامة على شفتها؛ فاستأنس.

ـ يا سلام، دا انتوا فى المنافى. الواحد هنا يربط القرد يقطع.

انتبه على صوت ماكينة رفع المياه، فقال لها:

ـ بالإذن.

وسحب الحمار وسار ناحية بئر الماكينة، ورأى المياه تفور وتبرق بخَضَار فى عمق البير اللازج بالريم. دفس الحمار بوزه فى الماء البارد الصاعد من الغور وملأ كرشه، فيما شمر هو هدمته بعد أن ركن مداسه جانب ضلع البئر. نتح من الماء وعبّ عب عطشان حتى ارتوى، ثم رش وجهه ومسح على رأسه ورقبته وبلل صدره.

كانت المرأة الواقفة أمام الدار تتأمل عوده الفارع، وهو يحزم وسطه بذيل جلبابه، والريح الصحراوية تلعب برجلى سرواله الطويل.

عاد وربط الحمار فى الجازورينا وعلق فى رقبته مخلاته؛ فبدأ يأكل علفته.

جلس بالقرب من قناة الماء الصغيرة وفرد منديله المصرور على غذائه وأخذ يزدرد لقمة فى صمت، وبين لحظة وأخرى يتأمل المرأة متعجبًا.

قطعـة . . مـن هنا رمل، ومن هـنا رمل، وعلى مـدى الشـوف يلوح بيت غريب، وشجر عال لا يرد حر الشمس ولا يأتى بظل . . جبل ولا غير . . دارت برأسه أفكاره: أرض عـاوزه صبر أيوب، ومال قارون، وهمة الرجال .

تأمل عوارض السور الخشب ولمح لبلابة سارحة، يناوش زهراتها الصفراء نحل العسل .

احتوى المرأة فشعر بألفة للمكان، وأطلق زفرة عندما طوح هواء الجبل شواشى الشجر .

سأل :

ـ أنتم هنا من زمان؟

ـ من تلات سنين .

ـ بحالهم؟!

ـ آه . . أصل جوزى باع ورثه من أبوه، وجه هنا اشترى عشرة .

ـ متسجلين؟

ـ لأ . . لسه وضع يد .

ـ أمال هو فين؟

ـ مين؟

ـ جوزك .

ـ فى البلد . بيبيع جمعة طماطم .

لمَّ رجله ولمح جنب الجدار بقرة مربوطة فوق مربط موحول، زهقانة ومنكسة الرأس كمن يحلم، تهش بذيلها ذباب الجبل الذى تستثيره رائحة الدماء.

قامت وانحنت تسحب جوال السماد إلى داخل الدار.. نهض الجدع بعافيته، وقال لها «عنِّك»، ورفع الجوال بين ذراعيه، ومشى داخلاً من بوابة السور، ولما قالت له «هنا»؛ ألقى به حيث أشارت وخرج.

ـ متشكرين.

ـ لا شكر على واجب.

وفرك يده.. سألته.

ـ تشرب شاى؟

تردد لحظة، ثم أجاب:

ـ مالوش لزوم.

ـ خير ربنا كثير.

ـ يجعل بيت الخيرين عمار.

روحت على النار التى كانت قد خمدت فى الكانون، ونفخت فيها فأحيتها، والتهب الجالس على قرافيصه كذئب البرارى، وظل يحدق فيها، بيدها براد الشاى، وعلى ظهرها ضفيرتان كالسلب. أفعمت روحه رائحة الريحانة الطالعة بجوار السور؛ فشد بدنه وقاوم.

شعر بغريزته تتحرك فلعن الشيطان وتفل عن يمينه.. تأمل من

حوله الخلاء، وقطعة الجبل، وسمع ضربات ماكينة المياه. . تك، تك. . تك. . انتبه، وتأكد أن الشيطان يقف خلفه. . عن يمينه، وعن شماله يوسوس له بالكلام الحلو. ارتعش الفتى وخاف، وهمَّ واقفًا لما سمع الريح تدمدم حاملة غبرة الجبل، وحزمًا من السيقان الجافة. . قال: «هو الشيطان»، ونبح من بعيد كلب، صرخ فى العلا طائر، وذلك الفتى ابن العشرين ذو القلب الجامح، والخبرة القليلة، قد وقع فى سحر الخلوة، وحلم وهو يقظان بالمرأة التى قابلها من غير موعد. . منَّى نفسه بظهرية ولا فى الأحلام!

عاد وتفل فى وجه اللعين وهمس: «اللهم اخزيك يا شيطان» وأخذه من قرنيه ومرغ وجهه الكالح فى الرمال.

سمع غناء ينبجس من داخل الدار بكلام حلو؛ فانفرط عقده.

انتهى من الشاى ولم ينته من وسواس الخناس.

نهض بحجة إعطائها الكوب، وعندما دخل الدار شم رائحة صابون بعطر، ورائحة لبن، وفوح خبز جديد.

لبث يتأمل المكان: صندوق خشب ملون بتلاوين وصور، مسامير على الحائط كمشاجب. . وصورة لبراق النبى الكريم فاردًا جناحيه وله وجه حسن. . وكنبات ثلاث من خشب، عليها مراتب مكسوة ببياضات نظيفة مطرزة بسنابل وزهور. . رف بالحائط فوقه راديو صغير، بجانبه صورة لرجل مبتسم فى أواسط العمر بإطار من خشب قديم، تأكد أنها صورة الزوج الغائب.

عندما خرجت من الداخل فوجئت به، فسألته:

- خير. . عاوز حاجة؟

ـ لا . . بس كنت باقول أيها خدمة؟

ضحكت بنعومة، واهتزت فى عينيها أوراق البرسيم وبرقت. فقال فى نفسه: «أدفع عمرى للى يشترى، وأرمى جتتى تحت قطر، وأمشى على السكك كالمهابيل، لو فلت منى الطير».

وهبش صدرها فأجفلت، وصرخت فى وجهه:

ـ أنت انهبلت يا جدع؟! جرى لعقلك حاجة؟!

لما اقتحمها؛ ملكها. ولما أحس بها فى حضنه طار عقل الفتى، ودفع بها للجدار؛ فقاومت القطة وخربشت. ولما لسعتها ناره استعطفته:

ـ اعقل . . جوزى بيجى على غفلة!

ورقتْ عيناها، وحلت مكان خضرة البرسيم شموس صغيرة تبرق، ظل يتبعها إلى آخر عمره، ورأى نفسه عند المنحدر الأخير للحلم، يجمع أمنياته المستحيلة من فروع الشجر.

تبعها للحجرة قابضًا عليها؛ حتى لا تفلت منه وتسقط فى فراغ الجبل، مثلما الشمس أدركها الغيم.

كان الجو فى زمتة الظهر، فأسال عرق الآدمى وانتشت الأرض المصدوعة بصهد جوفها، وحلت فى الخلاء المحيط بالدار كركرة ضحك، وهسهسة، ومواء كمواء القطط له رجع كالصدى، فيما قوقأ دجاج الدار فى احتفال النهار على الأرض البعيدة.

* * *

ربط الزوج حماره فى خشب السور ودرج داخلاً من الباب . .

سمع من داخل حجرة نومه؛ فلم يصدق ما سمع؛ لذا اندفع بعزمه وضرب برجله الباب فانفتح ورأى الرجل ما لا يرى. . خاف أن يشل أو أن تطير رأسه، وقاوم ضربة البلطة المفاجئة ورجع بظهره وجرى ناحية الحجرة وانتزع بندقيته من رقادها الطويل.

كان الفتى قد نهض، مكشوف العورة لا يستر جسده سوى فانلته. يقف وسط الدار يشر منه العرق ويضرب قلبه كطبل، وقد بدأت تزحف إلى عروقه البرودة.

صرخ الزوج.

ـ يا أنجاس، يا أولاد الزوانى!

وجذب زناد البندقية للخلف.

تأكد الفتى من دنو أجله حينما تأمل شدق البندقة المشرعة، وانتظر الضغط على الزناد، ونظر فى عينى الزوج فوجدهما مريعتين وبهما شرار كالحمى، حاول أن يفلت لكنه لم يستطع.

تمهل الزوج لحظة تمكن فيها الفتى من لمح «الشرشرة» بجانب الحائط فانحنى وقبض عليها، وبعزم الخائفين ضرب ضربته فجاءت أسفل الضلع الأيسر للزوج، فشدها الفتى لأسفل برعب الخلاص من الموت.

مزعت «الشرشرة» البطن فانفتق، واندلق حشا الآدمى يسبقه الماء، ومن بعده الدم. اختلجت يمينه فسقطت البندقية، فيما امتدت شماله ولقفت جوفه وحاولت باندهاش المفاجأة أن تعيده إلى ما كان.

غامت الرؤى، واختلط براق النبى الكريم بصورة الزوج على الحائط.

صرخ بصوت حيوان فى فخ:

ـ آه . قتلتنى !

رمى الفتى «الشرشرة» وضغط أضراسه، فيما يجرى قلبه بالشوط، يقاوم غثيانه وطعم فمه المر كالتراب، تأتيه صرخات المرأة من خلفه: «يا خرابى»، «يا خرابى»!

وصرخ:

ـ كان عاوز يقتلنى، يا روح ما بعدك روح!

ارتخت عينا الزوج المخضلتين بالعار والأسى وقلة الحيلة، وتأمل قبل أن يغيب عن وعيه عورة الفتى المكشوفة وقال له:

ـ لو كنت بس صبرت . . لو . . .

وساعده إدراكه الأخير أن يقول ما قاله، ثم طوى جسده فى كرب، وأذعن لثقله وهوى فى هبدة جدار قديم.

صرخ الفتى الغشيم وهو يدور حول نفسه، ضاربًا الأرض بقدمه:

ـ كان عاوز يقتلنى . . ياروح ما بعدك روح!

ثم نظر من النافذة فرأى ريح «برمهات» تسوق أمامها سحبًا كدخان كوانين المآتم، وتدور بالرمال، رمال تلك الأرض البعيدة.

الرحى

ـ اللى خلق الأشداق، يتكفل بالأرزاق.

خرج الاتكال على صاحب الرزق من حلق جاف، استندت صاحبته بكفها الشمال على الأرض، وباليمين على فخذها وهمت واقفة، وقد أطلقت آهة مديدة كعمرها، وهبت عليها من الجهة الغربية ريح عتيقة برائحة رماد أول الصيف.

مشت تعرج بجوار سياج القش الخارجى، يصحبها نور شاحب لا تكاد تعرف مصدر سطوعه. وصلت قبلى الدار؛ حيث «الرحاية» الحجر موضوعة هناك عند حزم القش، والوقيد بالقرب من حظيرة صغيرة لدجاج ينبش الأرض، وماعز مربوطة بجوار حائط من طين النيل تجتر طعامها، ناعسة ومغلقة العينين.

«لو تقطع يد الزمن الطويلة، ويغلق فى وجهنا الباب. لو يستريح منا ونستريح منه.. لو...».

تنهدت وحملت مقطف الأذرة الصغير ووضعته بجانب «الرحاية»، واحتضنتها برجلها وأخذت تصب حبات الأذرة فى الفتحة العلوية. وقبضت على اليد بكفها التى تشبه المخالب، وأخذت تدورها، تطحن الحبات التى تنسال وقد انطحنت تماما.

صوت «الرحاية» فى سكون الصبح دجدجة على أرض جامدة، غير قلقة. هزيم لحشرجة مكتومة، ومنضغطة لها ضروس تطحن، والمرأة الكهلة تدفع اليد بعزم عزمها، والتى طالما قبضت عليها سافحة الدمع والعرق.

قالت:

ـ اللى نبات فيه، نصبح فيه!

وتذكرت الذى له وجه الرماد، الذى ضحك على الزمن وسرق منه مائة عام، مشى بها من البر إلى البحر، وشارك فيها الشمس والقمر «مائة عام»، يتدثر الآن بكفنه قابعا فى حضن الطين. وأدركت ـ هى ـ التى تصغره بثلاث عشرات من السنين أن العمر طال، وباخ، وأن حياتهما ثوب تهلهل، وأصبح من الرميم.

قالت:

ـ أقوم أفطره.

ووجدته يعتمد حصيرة من سمار، متآكلة، بجسد من ضوء كأنه لا يرى، يميل بفخذى طفل صغير كجريدتى نخلة، ورأس غراب نوحى، يدخل فى كتفيه اللذين تلمسهما أذناه، متجليا لها فى قعدته كميت من زمن، يدندن بكلمات لا تعرف لها معنى، عن... الحجر، والطاحون.. والمأوى الأخير للطير.. وعيناه اللتان بهما آخر ومضة لحياة مفارقة؛ حيث تنظران إلى الأشياء لا تود أن تفارقها.

صاح فى وجهها بكلمات متكسرة، وذاكرة مختلطة:

ـ أنت مين؟! هيه.. أنت مين؟!

ـ أنت صحيت؟!

رماها بنظرة، وأكل خديه بفكه، وغادرها إلى التخوم البعيدة للضباب.

قالت:

ـ لو ربنا يفتكره، ويريحه من الدنيا؛ ده بقى رميم!

لم تكن عيناه من رماد، كانتا بصة من ألق تسكن مقبرة من عظام.

رد عليها بكرشة النفس:

ـ إن شاء الله أنت. إن شاء الله أنت يا حفيظة!

أرادت أن تقول له: إن الحياة صعبة، وأنها تود أن يذهبا معا، وفى يوم واحد، ودفنة واحدة؛ لأنها تعبت، ولم تعد تستطيع شيل الحمل وحدها، هى المقطوعة من شجرة، وهو من فاته زمانه، لا ابن ولا أخ.

عليها الآن أن تقوم؛ تسرح الغيط فتلتقط سنابل القمح المتبقية بعد الحصاد والجمع، تأتى بها فى جوال من الخيش فتدقها بالدرس، وتذرى بها فى الريح على الجسر، ثم تغسلها فى النهر، وتنشرها فى الشمس حتى تجف، وتخزن الباقى فى صومعة الطين على سطح الدار؛ خميرة لأيام الشح والجوع، وبالليل تذهب إلى الأجران، لجمع زكاة الغلة رحمة وشفاعة من أهل البلد، وفرضا واجبا على الناس الطيبين.

تأملته: هو وهى نائيان فى الزمن القديم، يسكنان داراً من غبار، تسهر عليه بذاكرة متهرئة، وجسد نحيل كخيوط شمس الشتاء.

قالت لنفسها، متسائلة:

ـ أتركه فى قاعة الفرن وأقفل عليه؟!

صاح فيها:

ـ القاعة لأ.. القاعة ضلمة.. فيها عفريت.. أنا بخاف من الضلمة.. أنا عاوز أبص على الدنيا.

بدا لها على نحو غريب ـ كأنه يطفو على النهار، فى حجم صرة صغيرة من عظام ـ عيل وليد فى لفته.

كانت رائحة أول النهار تدفعها نسمة متبقية من زمن الربيع، محملة بطعم نوار البرسيم، وروث البهيم، وزناخة البيوت، وحرق طواجن اللبن، وزهرات ساقطة لثمار البرتقال.

ـ لو سبته نايم مكانه يمكن الفراخ تنقر عينه، ولو حبسته بيعيط زى العيال!

هبط عصفور من المنور، وحط على العتبة. نظر تجاه المرأة، حرك ذيله، ثم غادر.

ـ القاعة لأ.. ضلمة.. بره نور. الدنيا نور.

ضاقت به وبالدنيا، فدخلت إلى وسط الدار وأحضرت قفة متهرئة من الخوض، وحملته بعزمها ووضعته فى القفة، ثم رفعتها بلقفة النفس وعلقتها فى عقفة خطاف من الحديد يتدلى من سقف الدار أمام بابها الخارجى، ومضت.

كانت رأس الرجل الصغير تطل من القفة على الدنيا، يرى أمامه الأشياء، وهى تنبض بدبة الحياة الأولى، فيما تشع عيناه بألق عينى صبى.

مجرى العيون

كان بائع الورد (رحمة الخميس) الذى يقف تحت «البونسيانا» التى تزهر فى الربيع زهرات حمراء، والتى لها الظل يفىء تحته البشر، كان يرتدى ثوبا من الكتان، يعمم شعره الطويل بشال أبيض. كان يقف فى الشارع الذى ينتهى بالسواقى الأربع عند النهر، والذى يبتدئ بالقبور القديمة فى حضن البلى، خلفه السور الحجرى العالى، الذى كان فيما مضى مجرى للماء، أمامه أقفاص من جريد رصت عليها حزم من ورود بيضاء، وحمراء، وصفراء؛ تحية لمن ماتوا، ورحلوا قبل الأوان.

ـ ورد.. ورد للميتين.

كعادته كل خميس ينتظر الأغنياء ناظرا للسور الحجرى، مراقبًا الشمس التى تعتمد حرارتها، راجعة بظهرها، مخلفة على الأسفلت حرارة تلسع نضارة الورد.

ـ ورد.. ورد للميتين.

الخميس عزاء من «ماتوا قبل الصباح»، وهم فى جوف موتهم ينتظرون من العائدين.. رحمة ونور.. آية من الذكر الحكيم.. دمعة تحيي ذكرى مشتركة، نصفها غاب ونصفها حى.. زهرة ترفع عن التراب رائحة الرميم.

ـ ورد . . . ورد للميتين .

«يا إلهى! كأنهم ينقطعون اليوم عن الزيارة . هؤلاء الأغنياء الذين يمتلكون الورد» .

نتح من الدلو بكفيه الماء ، ورش وجه الزهر الذى ابتدأ فى الرحيل لنعاس الموت .

ـ ورد . . . ورد للميتين .

ابنه وبنته طفلان يحزمان السنين حزمة من تراب ، ويلقيان بها تحت مجرى السور القديم ، ويلعبان بذاكرة مضببه ، وحزن مقيم ، ينظران من غير ما بهجة إلى المقابر الألفية ، وقد فارقت قلبيهما المسرة ، ويتأملان خيبة المسعى ، ومنتهى النهار للخسران .

أراد أن يحيى فيهما الأمل ، فقال لهما : «سوف يمرون» . نظرا إليه بعينين منكسرتين وواصلا ذر التراب .

ـ ورد . . ورد للميتين .

تتقاطر سيارات من كل نوع . تأخذ أنفاسها لاهثة فى إشارة المرور ، ثم سرعان ما تتحفز وتنطلق ، لا يشد انتباها الورد ، ولا رائحة تراب الميتين .

«وكأنهم نسوا موتاهم ، هؤلاء الذين كانوا فى الأيام الخوالى يضعون الورد زينة على جبهة المقبرة» .

امتد ظل السور بعد أن رمته الشمس على الشارع فقفله ، وهبت ريح محملة برائحة الغياب ، وسمعت صرخة لامرأة توارى وحيدها التراب .

لم يعد يرفع عينيه عن زهوره التى لم يعد يحييها الماء، وأدرك أنها تذوى.

عاد بأمله، وتذكر أنهم كانوا يتقاطرون عليه فيحملون عنه حزم الزهر ويدفعون. كان يرى الولد والبنت فى تلك الأيام التى انقضت يغنيان، ويطاردان العصافير.

ـ ورد. . ورد للميتين.

«مجرى العيون، لا يطول السحب التى تبدو كصرخات».

يتبدل من ممر للماء، إلى مجرى للدموع. لم تهدأ الريح بسبب من غياب الشمس، لكن الرجل الذى يلبس ثوب الكتان، الذى يحزم شعره الأشيب بشال أبيض، والذى كسد ورده، لم يعد ينتح الماء من الدلو، ويرش وجه الزهر، إنما صار يخاف من وحدته.

كان ـ لما انقطعت الرجل ـ قد أدرك أن العائدين (الذين يشترون الورد لذويهم) لن يأتوا.

كان عليه التسليم بأن النهار قد ولّى، وبأن الليل يتهيأ عند «مجرى العيون» ـ أن يمد كفه ليشعل فتائل مصابيحه.

عند ذلك، وبآخر عزاء لروحه التى تحاول الآن أن تطفو على الغمر استطاع أن يحمل إلى صدره حزم الورد كلها (البيضاء، والحمراء، والصفراء) ويعبر الشارع مخترقا أزقة المقبرة الضيقة، والتى من سبخ، يختار منها مقابر الفقراء: أهل السكك، المحرومين، منكسرى القلوب فى دنياهم، الذين يعرفهم بأسمائهم، هؤلاء الذين رحلوا قبل الأوان، ليضع فوق كل قبر من قبورهم زهرة واحدة مروية بدمع العين.

ساعات فرجينيا الأخيرة

كانت تخرج من الباب إلى الحديقة المزهرة، مصارعة وجودها المكثف فى ريتشمون، كانت ترتدى معطفها الرمادى، على فستان من القطيفة الزرقاء وتلم شعرها فى حزمة خلف ظهرها، وتشرد عينها إلى بعيد، بنظرة زائغة مثل باحث عن شىء ضاع منه، ثم تضغط على شفتها فى ألم.

هى متأكدة أنها ستُجن، لذلك عندما نظرت إلى زهرات المانجوليا الحمراء؛ همست لنفسها أن عليها أن تقتل شخصا آخر.

صرخت مثل حيوان حبيس، حين رأت زوجها المحب يرجوها باستعطاف ذليل أن يعود بها.

كان القطار يغادر المحطة، وصلصلة الجرس تروّع الهدوء الذى يحاصر المكان. ثمة عائدون من لندن يغادرون المحطة، يتوحدون فى ملابسهم التى تشبه ملابس الحداد.

حين صرخت فرجينيا: «إننى أموت هنا. إن هذا المكان يقتلنى»، لم يجد الزوج من فعل يمارسه إلا أن يربت على ظهرها، آخذاً بيدها نحو كابوسها المروّع: «سوف تتحسن الأمور، وهنا أفضل من لندن لأشخاص يعانون من الألم».. كان حزينا من أجل فرجينيا، وكان لا يعرف ما هو الشىء الذى يؤلمها.

عادت الأصوات إليها حين جلست تحت ظل الشجرة . . كانت تلك الأصوات تخصها وحدها، تنبع من دمها هى ؛ ذلك لأنها ومن قديم تمارس جحيمها الذى منحته روحها كل عاطفة .

قالت : «إنه لا بديل من قتل شخص آخر» .

بدت فى صمتها ـ وهى جالسة على المقعد الخشبى فى حديقة المنزل، وحيدة الروح إلى الحد الذى جعلها تتشبث بأحلامها القديمة وممعنة الإصغاء لتلك الأصوات التى تنبثق مع الضوء فيتردد بداخلها ذلك الرنين الذى يأتى من عند قوس الباب الذى يطل على الهاوية . تود فرجينيا النفاذ من أفق الرصاص المحاصر ؛ لتهرب من أبديتها التى تستدعيها فى كل يوم . . ضربات البيانو الصاعدة وسطوة نغم الكونشرتو الحزين، الذى يجلل مشهدها اليومى بتلك الشفافية التى تعكس فى روحها جريان النهر نحو أبديته .

لم تستطع أبدا ـ وعبر سنوات من وحدتها ـ أن تدفع عن نفسها إحساسها الدائم بأنها جُنت، وتعيش الآن اختلاط حياتها . . تلك الطفولة على عشب لندن، والمكوث على البحر مع أختها، وتجلى شمس المغيب على الموج . لم تعد قادرة على مقاومة صوت داخلها، الذى تجيبه كل يوم : «لقد منحتنى كل السعادة الممكنة»، وعادت تضغط شفتها بقسوة، ناظرة تلال الضوء الذى ينير الزهرات .

حين كانت تهبط سلم البيت الداخلى متأملة الكتب المبعثرة، والكراسى المنزوية فى الأركان، وتصغى بإمعان لصوت الموسيقى المنبعث من الجرامفون الموضوع بالقرب من النافذة، وترى خادمات البيت يقطعن اللحم بضربات السكاكين الحادة، وتسمعهن يهمسن عن جنونها ؛ قالت لهن : «إن البلد التى تبيع التوابل بعيدة كأنها آخر بلاد

الحلم»؛ صمتن، ولم يجبن عليها، ونظرن ناحيتها بنظرة المحبين، ابتسمت من أن فزعها الدائم شيء طبيعي لمثل من في حالتها، وربما كان جزءا من القانون الأزلي للطبيعة، وأنه وعلى نحو لا تستطيع التحكم فيه ينبع من وعيها بأن الحياة والموت شيء واحد.. صمتت، وفكرت: لقد خانتها الظروف، وتلك الصور التي دائما ما تجسدها الكلمات، وسحبتها من حياتها التي كانت تتسم بالألفة إلى ذلك العالم المحتشد بالجنون.

عادت تكرر بين نفسها: «عليّ أن أنجز يوم هذه السيدة التي تود إقامة حفلها المريع»، نفرت فيزيقيا، واضطربت رأسها، إلا أنها عادت تحادث نفسها بصوتها الهامس: «إنها الساعات التي عشتها، ومضت حاملة الحنين، وكلمات ذلك الكتاب الغامض».

فردت رجلها على الأرض المعشبة، وبدت كأنها في غفوة، وهي تستند برأسها على جذع الشجرة.. رفعت رأسها وألقت بها على حاجز المقعد الخشبي. تذكرت أنها كانت قد قالت لزوجها: «إنها عثرت على الجملة الأولى لكتابها الملتبس».

وسمعت نفسها تهمس: «إنها لا تعرف أين تذهب بها الكتابة؟». لحظتها أعطاها الزوج ريشة الكتابة، وأخبرها: «أن عليها أن تكتب مادام الأمر يخلصها من قلقها».

كانت وحيدة فرجينيا المعذبة، جالسة تتأمل آخر نهارها. الأشجار في حديقة المنزل، تجلس مسالمة، مدركة بعمق قلبها معنى: إنك لكي تعيش مع الآخرين، عليك أن تتخلص من إحساسك بأن من مهامك أن تغيّر العالم.

فكرت فى أختها التى عذبتها كثيرا . . الحجرات المقبضة، والنزهات على شاطئ البحر . . والرغبات المحرمة . «أنت تؤذينينى»، الحفلات المسائية بحشد النساء الجميلات، وهى منزوية هناك فى لندن تتأمل لوحة على الجدار، وتراكم الثلج على النافذة، وتسمع صوت الريح . كانت تنفصل عن العالم وتتعاطى عقاقيرها لتقاوم اكتئابها المزمن . همست : لن يتركنى أحد، علىَّ أن أكف عن أحلامى، وأن أذعن آخر الأمر لتلك الأصوات التى تأتى من حيث لا أعرف .

أختها فى البيت تجهز حقائب السفر . . وتقف أمام المرآة متأملة نفسها فى زهو، وتعدل قبعتها الإنكليزية، وتسمع من الخارج صوت صغارها : خالتى فرجينيا . . خالتى فرجينيا، تعالى معنا إلى لندن . لا تزال الأخت تتأمل نفسها، واثقة من إحكام سيطرتها على تلك المسكينة بالخارج التى تعرف أنها تعيش أسيرة لأصواتها الداخلية، وتعيش بذهن مشوش طوال ما تعيشه من عمر .

صوت جرس الكنيسة فى الظهيرة الأبدية «أى صوت هذا؟»! همست فرجينيا، لم تعد تبكى طفولتها القديمة، لكنها لا تكف عن التفتيش فى عمق روحها، تلامس جسد أخيها المحرم الذى كرهته كثيرا، وحرّم عليها الرجال، مغادرة متعتهم، نافرة منهم، كل هذا الألم جعل روحها تعيش ألمها الدائم، فيما بقى لها من سنوات .

نظرت أولاد الأخت قادمين . . الولدان الخنزيران والبنت الصغيرة الملاك .

نادت بصوت نحيل واهن :

«أنجليكا» .

خيل لهـا كـأن البنت تحلق فـوق أشـجار الحديقة . . هى ترتدى ثوبا أبيض من الدانتيلا مثل عـروس صغيرة ، وتركب على ظهرها جناحين مثل الملائكة .

الأخ المحشو باللحم مثل جسد متخم يحمل على كفيه طائرا ميتا ، وكـانوا قـادمين نحو فـرجينيـا وهى تذعن لمشـهـدهم ، وتغـادر شـرودها وتتأملهم .

صرخت أنجليكا الملاك :

«خالة فرجينيا ، الطائر مات» !

لا أحد يستطيع أن يحرر روحها عندما سطع الموت على الحديقة ، **موت طائر** هو حالة تبعث على الحزن . . نهضت من على المقعد ، ثم خطت مسلوبة الإرادة ؛ حيث الطائر الميت . . كان طائرا صغيرا مثل لعبة ، يستقر على جنبه ومستسلما لقدره ، رافعًا رجليه ناحية السماء . . أخذت فرجينيا الطائر ، ثم تهاوت على العشب عندما داهمها الموت المفاجئ ، كأننى أقبض على مصيرى . . غاصت بكل جنونها فى لحظة قداسها الجنائزى ، وعادت أجراس الكنيسة تقرع من فوق ، من هناك بالقرب من القبة ذات المعمار البولوڤينى التى تشرف على الحى القديم بالمدينة البعيدة على النهر ، والتى كثيرا ما تقرع أجراسها فى السكون فجأة ؛ فتضرب القلب بالخوف والمواجع .

وضعت الطائر على الأرض المعشبة ، وظلت تتأمله بشغف الفراق ، وكأنها تود دفع الموت الفاجع الذى فاجأها .

قالت إنها لم تنتبه إلى الوقت جيدا ، وإنها لم تحترس من الموت أبدا . قالت دعونا نصنع قبرا للطائر ، ثم أكملت ، هناك وقت للموت .

فى الخلف تمثال لامرأة عارية تقف بين أشجار الحديقة المزهرة، كمن يطوح الريح بشعرها . . التمثال فى النهار الرصاصى مشبع برائحة الموت. قالت البنت ذات الجناحين :

«مات الطائر ليصنع قبره . . هيا لنساعده على أن يصنع قبره» .

دخلت فرجينيا إلى داخل البيت عندما سمعت رنين الهاتف يتواصل فى الصمت، وشعرت بصوت هادر لخطيئة متوقعة. بعد قليل سوف تضرب اليد المدربة أصابع البيانو بألحان جنائزية لفيليب جلاس.

اتكأت على ألمها وقالت : «إنها قضت عمرها كله لا تعرف سوى الكتابة. وكانت تدرك أنها من وقت بعيد قد جنت، وأنها كانت تستر هذا الجنون بذلك الصمت، وذلك الهدوء الغامض، الذى يتجلى فى مظهرها، حين تضع يدها فى جيب معطفها الرمادى الذى سوف تموت بداخله» .

ظلت تفتش عن عناوين فى دفترها، وعن أرقام لهواتف بعيدة لكل هؤلاء الذين تود أن تهاتفهم. راجعت كل الأسماء، وحين لم تجد أحدا يستحق المجازفة؛ أغلقت الدفتر ومضت تصعد إلى الدور الثانى، كانت تستمع لخطوتها مثل لحن رتيب فوق الدرج الخشبى . . حجرات مقبضة، وجدران بيضاء شاحبة. كانت عيناها مفتوحتين عن آخرهما. همست لنفسها : «ابكى قليلا . . البكاء يغسل الروح»، وعادت تتأمل السجادة المفروشة على الأرض برسومها الأسطورية . . وعادت، وبكت وسط الحجرة، وتذكرت أنه بعد سنين من لحظتها سوف ينهض من كتابها ذلك الشاعر الذى نحره المرض، والذى تحدثه السيدة ذات الاسم المشهور، والتى أقامت على شرفه حفلة لم يحضرها، والتى تنصت الآن لإحدى أغنيات شتراوس الحزينة عبر هؤلاء المحتفين،

الذين يرتدون البذلات السوداء، وينظرون من خلال نظاراتهم إلى الأضواء الخفيفة المنبعثة من الجدران. خطت ناحية حجرة نومها وتأملت فراشها، الذى لم تنم عليه من سنوات بجوار زوجها الطيب. تفكر الآن فى ذلك الشاعر، وتتأمل مصيره، وتعرف أنه سوف ينهض من فراشه ويتجرد من ملابسه ليلقى نفسه من النافذة. تندهش فرجينيا من تقاطع المصائر، وتدرج على نحو حزين مدركة أن طرائق الموت متعددة، لكنها تفضى إلى فعل واحد. عادت تهمس لنفسها: كان علىّ ألا أكتب هذا.. فتحت خزانة بالحائط، تأملت كل أشيائها بحنين غامر، وسمعت المطر يهطل فوق أشجار الحديقة. شغلت الفونوجراف فصدحت موسيقى باخ بحزنها الجليل. التمع أمام عينها وميض من ضوء خفى؛ همست لنفسها: لا بد أنه هناك. وطاف بخيالها شبح أختها المغادرة، والتى دائمًا ما تترك رماد سجائرها فى الأركان. هبطت ثانية إلى الحديقة، ورأت البنت ذات الجناحين وكأنها تتهيأ للطيران، وعادت تتأملها بحزنها الذى يليق بما هى فيه.

هطل المطر بغزارة، وأرعدت السحب، فيما برقت السماء من ناحية الشمال.

سماء سوداء، تحلق فى جنباتها طيور متخبطة تقترب من الأرض، وسرعان ما تعلو مروعة بصوت الرعد والتماعات البرق.

سألت البنت فرجينيا: «ماذا يحدث عندما نموت؟».

أجابتها:

«نعود للمكان الذى جئنا منه».

قطفت فرجينيا ثلاث وردات من الحديقة وضعتها بجوار الطائر، ثم

أسندت رأسها على الأرض تتأمل عين الطائر المحدقة على الفراغ، واستسلمت للحظتها وبدت كأنها غافية، أو كأنها تحلم بتلك السيدة التي ترتدي معطفها الرمادي على فستانها ذي الزهور الملونة، وهي تحث خطاها، حاملة على ظهرها تاريخا من الوحدة، والنوبات، وفقدان الوعي، وموهبة الخيال التي لا يباريها موهبة. . سمعت نفسها تهمس: دائما السنين بيننا. . الموقع. . الساعات. . صفير القطار، السيدة دالاواي.

تتجه الآن ناحية النهر - بمعطفها الرمادي وفستانها المزهر - لتلاقي مصيرها، وحين تكون على الشاطئ تجمع الأحجار الصغيرة وتدسها في جيب معطفها؛ حتى يقاوم طفو جسدها ويكون أثقل على الماء ويهزمه، ويخترق الطحالب وأسماك القاع الضالة، والنباتات الهائمة، وصوت قرع أجراس الكنيسة، وعزف موسيقى «باخ» في شهر الموت الأخير، سمعت نفسها تهمس لنفسها:

«ألم أقل إنني على أن أقتل أحدًا»!

يوم بسبعين سنة

للمصريين وطن، نصفه من حقيقة، ونصفه من خيال.

اعتصر دماغك بدلا من السنة ألف، فلسوف تستدعى من تواتر الحكايات ما يحفظ للآدمى ذاكرته، ولسوف ينتهى بك الأمر - كالعادة - واقفا عند مزار لولى من أولياء الله الطيبين، المقيمين فى أضرحتهم الجاثمة هناك عند شطوط الترع، أو عند الصحارى الموغلة، أو فى قلب جبانات المدن؛ بركة وشفاعة، لكل بلد وليها وحافظها، تطلب بركته فى كشف الغمة، وحمايته من شر العين، ومخاطر الطريق. لسوف تجد نفسك واقفا عند «هرى» ساقية، أو غافيا على بلاط مستعجلة مسجد، أو ساندا ظهرك إلى ساق توتة قديمة تصغى إلى أنين ساقية، مقاوما نعاسك، ومستسلما لأصداء صوت بعيد لامرأة تناديك فى الحلم، أو خائفا من حارة سد، يسكنها الظلام فلا يكون دليلك إلا صوت أذان الفجر، عطوفا فى قراره الأخير «الصلاة خير من النوم»، أو تكون مسترقا السمع لرجل يهارش امرأته؛ حيث تسرح يده الخشنة فى غيط جسدها المربرب؛ أو لابدًا بجانب مصطبة من عمر البلد؛ تسمع حكايات المربوطين بسحر أهل الأرض السفلية، الذين ينقلون الحيط على الحيط، ويكتبون العمل على ظهر القراميط ويطلقونها فى الماء الجارى، وقيعان الأنهار، ويدفنون الأعمال داخل الجبانات، ويشبشبون للقمر الذى يسبح فى كشفه مزهوا بجنونه؛ لتقليب أحوال

المحبين بما كتبته حروف الطلسمة، وأخبار النجوم، أو تلبد تحت ضرع بهيمة يتفزز باللبن، تدور على نفسها، متناشة فى رأسها، جاحظة العينين، وقد لونتهما حمرة ألم الولادة، وقد أطل خطم وليدها منزلقا من الظلام إلى النور، وأنت تجذب الرأس، ومقدمة القدمين، زاعقا بأعلى صوت :

«شد ياله . . شدى يا بت»، فيما ذبالة مصباح معلق على الجدار تخايل الظلام بنور شحيح مصَرْوَخ، وأنت تعوم فى ماء الميلاد، ينشق صدرك بالفرح وأنت تستقبَل بركة حلول الروح على الأرض، سواء كانت عيالا أم عجولا .

عندما تمتلئ روحك بكل هذا التراث القديم، سوف تنتبه فجأة، أن هذا الجنس من البشر ـ والذى أطلقوا عليه اسم المصريين، وبالرغم من كل ما جرى له ـ لا يزال يمتلك وطنا من الحكمة، يعج بالرموز، والسحر، وجمال الصدق، ومعرفة الغيب، والنوايا الطيبة، وما زال يمارس هوايته فى تسخير الزمن، وإنه ويا للعجب! ما زال مفتونا بتوالى دورة الميلاد والموت. فقط، تكة صغيرة وتعود الأحوال إلى ما كانت عليه .

تضحك؟؟!!

اضحك .

ستقول لى مشوحا فى وجهى :

يا ابنى دماغنا . . من تتكلم عنهم . . هؤلاء . . تخصصوا فى صناعة الطواغيت . . يا عم بطل دردبه، وراجع ما كتبه مؤرخ من هذا الجنس حين وصفهم : بأنهم شعب قليل الصبر والجلد، وسرعة الخوف

من السلطان، ويشتهر أهله بالجبن، حتى قالو: إن كلاب مصر أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان.

اضحك يا عم، فكم دقت على الراس طبول، على كلٍّ، أنت حر، صدق أو لا تصدق، هى أمور حدثت ولا تزال باقية، وكل المسالك مفتوحة أمامك، وهى حسبة، إما أن تكون معه، أو تنعل سنسفيل من جابه.. وهذا ما جرت به المقادير.

دعنا نحكى؟

لنقص القصص.

الحكى شفاء للروح، وصدى صوت الحكاية فى زمن مكبوس بالهزيمة مثل الجرس.

وعمى الذى سوف أحكى لك طرفا من خبره، والذى يشم على جبهته اسمه «أحمد عبد الغفار الكفراوى»، والذى جلست تحت قدميه طوال طفولتى أتلقط صدى صوته، وأعى أحاديثه التى ظلت فى الذاكرة مثل طقس مقدس، وظلت على لسانى مثل لهطة القشدة فى صباح شتوى، جلسة أفعمت باصرتى على الكون، وعلمتنى ـ فيما قدم من سنين ـ معنى زمان الكدح، ووطن الخيال، ومعنى الإحساس بالمقضى، والمقدر، والمكتوب، ومعنى حكمة الصبر على الشدة، عندما تتبدل الأمور من سيئ إلى أسوأ، وتندس قطة مشعللة بلهاليب النار فى كوم القمح الصائف على أرض الجرن فتلتهم ـ بلا رحمة ـ رزق العيال، وخزين العام، وأبى وأعمامى على العتبة ليس أمامهم من فرصة لإنقاذ شىء، تلتهب وجوههم بالنار الموهوجة العالية والتى تصفر فى المحصول الصائف.

عمى الذى أمضى عمره المديد كله فى يوم واحد . . عاشه بتقلب أحواله وزحمته فى شبه يوم . . يوم من خيال . . منسوج من الساعات والأيام والشهور والسنين . . إلا أنه يوم . . بدأ من مخاض الميلاد على سطح فرن قديم يتوسط قاعة مكبوسة بالعتمة، ودخان المحمة، وانتهى بالموت فى نفس القاعة التى لم يتغير فيها سوى فتح طاقة نور صغيرة جهة المغارب . أحكى؟!! . سامع؟!!

حين مات جدى ترك من العيال خمسة، وبنت اسمها «مريم» . يقودهم أبى الذى كان شابا، وكان مثل حجر الرحى، يرعى تلك الخراف الصغيرة مع جدتى «هانم» التى كانت عقل الجماعة وضميرها . . وعمى ثالث الأولاد، صغيرا مثل عود أخضر . . من طفولته، وعبر عمره كله، ينهض من منامه قبل طلوع الفجر، يؤدى الفرض على المصلية المقامة على الترعة أمام الدار، ويخطو ناحية الزريبة، ويأتى بكرسى صغير من الخشب لابداً تحت بطن الجاموسة، فى عتمة ما بعد الفجر، يحنن ضرع البهيمة التى ترفع ذيلها وهو يطبطب على الضرع بحنية، بعدها يسيل اللبن مثل ينبوع فى طاجن من الفخار، يحمله؛ حيث حجرة اللبن فى الدور العلوى . . يفطر من رزق الله، أرغفة لينة وخرطة الجبن، ويفك مقود الحيوان متجها إلى الأرض القريبة . . يربط البهيم ويحش البرسيم، أو يقصف الذرة، أو يملأ المزاود بالتبن ويخلطه برشة الفول . . إن كان هناك رى يروى . . أو عزيق يعزق . . أو حرث يحرث . . أو بذر يبذر . . فى الظهر يستقبل القبلة، يدور بقية النهار فى أرجاء الحقل تسمع صوت غنائه مطاردا النبتة الغريبة، والحشرة المؤذية . . وفى المواسم يحصد، ويجمع، ويعود فى الليل مثلما ذهب فى الصباح، يحلب حلبة المساء، مع الأذان يركع، ثم يسلم جسده للرقاد .

مثل ساعة ركبها الزمن داخله .

لم يكسر هذه الدورة شيء طوال عمره . . دورة مثل دورات الفلك ، أو الكتاب المسطور فى الأزل . . مثل وقت الأذان . . أو اكتمال المحصول فى ميعاده . . أو عشار البهيمة فى موسم طلب العشار . . أو حلول الليل والنهار ، وشروق الشمس وغروبها ، ونزول الروح فى الزرع والضرع ، ولحظة تكوين جسد البكر وبروز الثدى تحت الثوب .

مواقيت ومواسم ، وتعاقب الفصول ، علمته أن فى «مسرى» يفصل الحيوان عن طلب العشار ، ويزرع البرسيم ، وتكثر ريح الشمال ، وآخر الشهر أيام النسىء . . وفى «توت» يعتدل الليل والنهار . . وفى شهر «ربيع» مات النبى محمد مثلما ولد . . وفى «بابه» يحصد الأرز ، وتزرع حبة البركة . . وفى «هاتور» يحكى أمام المسجد الجامع أن «كسرى أنو شروان» فطس وحشر فى نار جهنم . . وفى «طوبة» يغرس العنب والتين ، وبه ليلة الغطاس ، التى سوف تشتى فيها الدنيا حتمًا ؛ بهجة واحتفالا بتعميد «عيسى بن مريم» عليه السلام . . وفى «أبيب» تظهر الشعرى اليمانية ، وأوان جمع القطن ، وكبسه فى ساحة الدار الواسعة .

وكنت وأنا صغير أستلقى على حمل القطن الأبيض مثل اللبن الحليب ، وأنا أراهم يرشون القطن بالماء ، ويكبسون الأكياس ، وأرى عمى وقد غطس لنصفه فى كيس ، يشد أطرافه ويدك القطن بقدميه . وكان نور الكلوب المعلق على الجدار يغمر وجهه ، وكنت أسمعه يطلق الموال مستدعيا البلاد البعيدة ، ويفتح أمامى السكك على النعمة ، ورنين المال الذى سوف يهل على الدار بعد بيع المحصول ، فيمتلئ الكيس الفارغ ، وتعمر القاعات بخيرات المحصول المجيد .

سنوات طفولتى كلها معقودة فى يديه، يسحبنى للصلاة، وبعد العشاء نركن فى زقاق «الزوايدة» الضيق مثل شق ثعبان، مع أصحابه يستمعون للراديو الوحيد فى البلد، والذى وضعه صاحبه فى شباك بيته يغنى بصوت «أم كلثوم» فيلتهبون من حلاوة الصوت، وجمال اللحن، وحين يركب عفريت الانسجام أحدهم؛ ينشال وينهبد ضاربا الأرض برجله، مشوحا بيديه فى الليل، صارخا: على الحلال من مراتى زكية، كل ما تحل تحرم، إن «أم كلثوم» دهيت بيسمعها الجن، وأهل تحت الأرض من عباد الله.

وأكون قد رحت فى منامى، يحملنى الصوت إلى بعيد، ويرجنى الهرج، وأشعر وأنا فى لحظة من إفاقة بيد عمى تحملنى حيث دارنا آخر العمار، وكنت أسمعه بين الحلم واليقظة يهمس لى: بقى أنت نايم يا مكار؟!

حدثنى عمى عن والده الذى هو جدى، والذى لم ألحق بأيامه، ولكن تواترت على أحواله، مرة عن أبى قليل الكلام، وكثيرا عن عمى صاحب الخيال الجميل. جدى الذى كنت أتلمس خطواته، واستشعر أنفاسه، حينما كنت ـ وأنا بعد طفل مثل جدى من جديان الدار ـ أسمع جدتى تطلق ذلك العديد المنظوم بالفراق، والرحيل المبكر، فأتأكد من لحظتى أن جدى حاضر فى المكان بالروح وسلطة الموت. وعندما أفزع من عديدها؛ أسألها متوجسا: هو جدى كان هنا يا ستى؟ وكانت تنظر تجاهى مدهوشة ولا تجيبنى، وأسمعها تهمس لنفسها: الواد ده ممسوس! لحظتها أتكور على نفسى، وأستلقى على حمل قش الأرز على سطح الدار، ناظرا ناحية شمس الخريف المعتمة، مثل كرة من ضوء، تؤذى العين. يأتينى صوت العديد مخترقا قلبى بحزن أليف، لا يزال حتى يومى هذا مستقرا فى حبة القلب مثل شريان الدم.

يهبع عمى مثل الجمل، ويشوح بيده:

ـ ما هو جدك دهوت انهبل آخر أيامه، وكنا نربطه على سطح الدار في عرق خشب، وكان لا يكف ولا يهمد، لا ليل ولا نهار؛ يغني بالموال، وفي الفجر يرتل القرآن، وبين الغنى والقراية كان يعيط مثل جمل محبوس، ويصمت:

ـ كان بيصعب علينا لما نسمعه بيعيط عند الفجر. ويواصل الكلام:

ـ لما طال سجنه فزع أبوك في ليلة، وطلع السطح وفك قيده، وأطلق سراحه للبراح. جدك خد في وشه وقال يا فكيك، واستمر يغني ويقرأ القرآن، وبعد تلات ليالي جابوه من الغرابيل، غرقان وشبعان موت.

أنتبه، وأطرطأ أذني، وأقترب من عمى الذى يسند ظهره لذكر التوت القائم يظلل مربط البهيم، يفرد رجله ويضرب سمانتها بيده. كنت ألمح على تقاطيع وجهه حزنا مثل سحابة. وكنت أعرف أنه كلما حكى لي هذه الحكاية؛ يشخص ناحيتي بعين قد انطفأ بريقها، وكان يعود وقد غلبه حماس الكلام.

ـ أصل الحكاية: إنه لما طلب من الخواجة «مزراحى» صاحب زريبة القطن سلفة الجمع؛ رفض الخواجة وعنفه، وقال له: إنتم فلاحين ما عندكوش دم. عاوزين تعيشوا ببلاش. ساعتها رد عليه جدك: عيب يا مزراحى، متبقاش خواجة وناقص. والمحصول جايلك، جايلك، وابقى براحتك اخصم سلفتك. فز مزراحى من على مكتبه وهبد جدك قلم طيَّر حمامة عينه. جدك ركبه ميت عفريت، وقفز على ابن اليهودية ولم يتركه إلا وحبة عينه كابشها بين صوابعه. في السجن راح منه

عقله، ولما أفرجوا عنه كان على دى الحالة. مات غرقان ووحيد. وزى ما طير عقلنا فى حياته، هبلنا عفريته بعد مماته.

حين تحضر سيرة العفريت، أنشال وأنهبد. أجلس على قرافيصى، وأكبس طاقيتى الصوف فى رأسى، وأقترب من عمى الذى يفتح لى أبواب العالم المسحور، ويشير بأصبعه ناحية مكامن الجن، وخرائب البيوت المسكونة، ويحدثنى عن شجرة الجميز عند النهر فى أرض الساحل؛ حيث تعقد تحتها ليالى السمر ومغانى الجن، وتدق الطبول، وتصدح المزامير، وينطلق الغناء على شاطئ بحر شبين الجارى مثل سرسوب من لبن تحت قمر منور، ومزهز فى اكتماله، وويل للعائد وحده فى الليل من سفرة، أو غربة، أو لقاء حبيب، فلسوف تسحره الطبول، ولن يعرف لروحه طريق جرة.

أمضيت عمرى حتى خريفه، أسمع الهمس فى الأركان بلغات غريبة علىّ، وأرى فى الزوايا أشباحا تتشكل مثل خيوط الدخان، وأسمع وأنا أصعد درجات السلالم فى الظلام من يهتف باسمى، واسم جدى، ويأتينى من بعيد، صوت الغناء البعيد، فى الصحو والمنام؛ حيث يتجسد لى هذا العالم الذى حملنى إليه عمى، والذى كبر معى، وأخذ أشكالا أخرى، والذى كثيرا ما أفزع منه فى الليل، فإذا ما سألتنى زوجتى: مالك؟! أجبتها بوجل: خير، اللهم اجعله خير.

من بداية الوعى بالدنيا وعمى لا يكف عن حكى الحكايات لى. كان يحكى لى عن الآثار المدفونة بقرية «أبو صير» المجاورة للبلد، والتى لا تخرج من دفنتها فى الأرض إلا بعد قراءة الأوراد، وسورة النور. زلع ملآنة بالذهب، ومساخيط على شكل فراعين بادوا،

وأوانى فيها الحشا حى كأنه مات البارح، ولصوص تعبئ فى قفف وغلقان تماثيل، وأحجار من المرمر عليها كتابة برسم الطيور، وتشق طريق الغيطان بليل حتى البلد الكبيرة مصر، تبيع وتشترى، وربما لا تعود أبدا.

عمى أحمد عبد الغفار الكفراوى.

السرح مثل نأز التوت، يلبس ثوب الدمور المصبوغ بالنيلة الزرقاء فى مصبغة «مسعد»، يقف أمامى بوجهه المليح الأسمر مثل شقفة من رغيف قمح هندى، ويتعمم بمنديله المحلاوى الأصلى، مفنجلا عينه التى تضوى بلون العسل، قابضا على يد فأسه بكف تلوح عقلها الشهباء أمامى، مثل حبات عقد الكارم.

يشوح قائلا:

ـ أنت فاكر آه!! كل دار فى أبو صير دى مبنية على سرداب طويل، يغطس فيه الفلاح من دول ويطلع باللى فيه النصيب. بلد قديمة وعمرها من السنين ألوف.

يضرب فأسه فى أرضنا الباء، وأسمع من ضربة الفأس صوته آهه.. نغمة رتيبة مثل لحن مصاحب لضربة الفأس فى رحم الأرض الشراقى. يرتفع ظهره سامقا، واضعا يده فى وسطه، ساندا الفأس لركبته، مهيئا الأرض للرى فى الصباح البدرى.

ـ هو أنت فاكر إن عمك الحاج مصطفى المنزلاوى اتغنى أونطه!! أبدًا.. هو كان حيلته اللضة.. وهى فدادين الفاكهة، ومحلج القطن، وأماين الطوب، وبوابير الحرت، وبهايم الحليب، وعجول الأنية، كل ده لقاه ع السكة.. ورحمة جدك أبدا.. كل ده من الأثارات.

يهرش جنبه، يواصل:

- بيقولوا لما نزل السرداب انقفل عليه بالضبة والمفتاح، لكن ابن اللئيمة كان حافظ سورة الفتح، قراها وانفتح الباب، وعتق منه، صاغ سليم.

يتفل فى يده، ويواصل عمله، ثم يرفع ظهره مشوحا بذراعه:

- حكمتك يا رب، تدى الخلق للى بلا ودان!! بلد عايمة على كنوز، وكفر المتاعيس اللى احنا فيها دى شراقى زى ترعة ناشفة.

تكون البهيمة دايرة على مدار الساقية، ويكون الماء قد أطل برأسه من البير، ونباتات صغيرة خضراء تهتز بفرح الأفراخ الصغيرة، وترف بأجنحتها.

وأنا خلف البهيمة أدور، ناظرا عمى بسرواله الطويل حتى صابونة رجله مثل فارس. فجأة نسمع الصوت الغريب من خلف دغل الشجر:

- هم الكفاروة فاكرين نفسهم آه؟! طلاق بالتلاتة من مراتى، لنهارهم أسود ويشهد علىَّ الخلق.

يرفع عمى ظهره، مصغيا للصوت وناظرا ناحيته. يبرز «يحيى أبو لاشين» بجسده الرفيع، ووجهه الأحمر يكاد الدم يبك منه تسبقه زيطة، وسباب من كل لون. يرتدى جلبابه الكتان الأصفر، وعلى رأسه طاقية بيضاء. سلالة أتراك باد أهلها من زمان، تتواصل فى الجعجعة والتفاخر والوجوه البيضاء بعيونهم الزرقاء حفدة من ناس خرعين لا حول لهم ولا قوة. صوتهم أعلى من أفعالهم، راحت سراياتهم، وأراضيهم بيعت فدان وراء فدان، ولم يعد باقى لهم إلا

الجعجعة والستر. يصل «أبو لاشين» إلى البر الثانى من الترعة. صوته يجلجل فى فراغ الغيط:

ـ والله نهارك ما هو فايت يا أحمد يا كفراوى. معنته آه تروى قبلى، ودورى النهاردة فى الرى؟!

يرد عمى بمسايسة، وطيبة قلب:

ـ يا عم يحيى، استنيناك من صباحية ربنا لغاية ما الشمس ما ملت الدنيا، ولما ما حدش جه؛ علقت البهيمة ورويت.

تبرق عين «أبو لاشين» الخضراء بالغضب، ويشوح بيده ضاربا الهواء!

ـ دورى يتحفظ لى. تسبقنى فى الرى قلة قيمة. إنت فاكر إننا الحيطة المايلة بتاعت الكفاروة. يمين تلاتة إن احنا أسياد البلد.. يمين تانى أن ما حليت بهيمتك لأكون مفخَّت نواضرك ومشيك أعمى تقول لله.. ناس رم زيكم يسقوا قبلى، تبقى هزلت. الله يرحم أبوك اللى مات غريق وفقير دقة.

تضرب الكهربا عصب عمى ويرمى الفأس إلى شاطئ القناة، وفى لمحة عين يقفز الترعة قابضا على طوق جلباب الرجل آخذا بخناقه، وبكفه الأخرى يغرز أصابعه فى سوسة قفاه، ويجذبه جذبه فينكب فى الترعة مثل غبيط السباخ، وفى الماء يشنه، يغطسه ويطلعه، حتى يقطع النفس، ثم يسحبه إلى الشاطئ يرميه وقد تهدل شاربه الرفيع الذى كان مبروما من لحظات. أخاف أنا على «أبو لاشين» ليفطس فى يد عمى فأرفع صوتى راجيا:

ـ خلاص يا عمى ليموت فى إيدك.

يتركه زاعقا: ناس تخاف ما تختشيش.

لعمى علاقة بالحيوان معلومة للجيرة وجيرة الجيرة: يعلفها، ويحممها، وينقى القراد من جلدها، ويترب تحتها، ويفيض عليها بكرم أكثر من اللازم. تشم رائحته فتعرفه من بعيد، فتطلق نعيرها فى نداء من مودة، فإذا ما اقترب منها لحست كفه بلسانها الخشن. جاموسة بعينها لا تحلب إلا على يديه، وإن غاب لظروف قاهرة صامت عن الحليب حتى لو جابوا لها وليا من أولياء الله الصالحين.

أذكر أنه كان عندنا جمل، سماه أبى «أبو الحمول»: أشهب يميل للبياض، بعينين مكحولتين بليل، وله قامة مديدة مثل تل، طيب كولى، ومطيع مثل أجير يشتغل بلقمته، وكسوة بدنه. لكن يا ويل البلد لو صفرت الريح فى أذنه، وركبه الزنان؛ يقطع شحاطه، ويهيج ضاربا بالقلة، مثل جبار فقد عقله، وعبر الدروب والحوارى يندفع رامحا، مثل ريح خرجت من عقالها، رافسًا فلانا، وباركا على علان.

فى الجرن كنت أقف على كوم الردم، وكانت أختى «الطاهرة» وبنت عمى «فوزية» تلعبان فى ساحة الجرن؛ طفلتان تحبوان. اخترق الجمل أرض «المصاروة» مزهوا بجنونه، وما إن وصل إلى جرننا حتى توقف بالقرب من البنتين اللتين تلعبان قريبا من أرجل الجمل. تجمعت الناس حول الجمل مثل يوم الحشر، ولا أحد يمتلك جرأة لخطف البنتين أو الاقتراب من الجمل الهائج. كنت أرى الناس من فوق التل وقد اختل توازنهم، واشتد هياجهم، والجمل فى الوسط مثل سيد كريم. لا أعرف من الذى أخبر عمى، الذى رأيته قادما يعدو من ناحية الغيطان، يقبض على ذيل ثوبه بأسنانه. بدا لى من خوفى كأننى أراه يطير ويصعد ناحية السماء كمن نبتت له أجنحة، حتى إذا ما وصل جمع الناس

اخترقه، متوجها ناحية الجمل؛ حيث قبض على خزامه متبادلا معه النظر، مكلما إياه بصوت حنون:

ـ مالك . . جرالك آه؟!

يسحبه ويمضى، والجمل يسير خلفه، ذلولا، فى طاعة العيال البررة.

حكايات تتواتر فى القلب مثل دفق الينبوع. لا يمحوها اتساع الأرض، ولا تقلب الأحوال، ولا صفير القطار المسافر إلى البلاد البعيدة. أقتات منها لأواجه بها المرئى وغير المرئى. وأجدها فى كل أحوالى فى الذاكرة مثل ضوء، تحفظ لى ديمومة الأشياء فى الحل والترحال. عم من حنين الماضى الآخر، الذى أواجه به ذلك العماء المحاصر؛ حيث لا أعثر لنفسى عن مخرج.

فى أيامه الأخيرة، وكنا نجلس على نفس المدار القديم، بالقرب من الساقية نفسها، وكان عجوزا، هدَّه الزمن، يلتف بعباءة من الصوف مغادرا البلد التى تغيرت بما يضنيه كل يوم. . رحل الأحبة، وطفا على السطح من طفا، وغاب بالموت من غاب، وأنا تحت الشجرة القديمة أحمل شيبتى على رأسى، وأسمعه وهو يحدق فى وجهى قائلا:

ـ والله وكبرت يا سعيد يا ابن أخويا!!

ـ يلاَّ يا عمى، ما دايم إلا وجهه.

ـ فاكر لما كنت بتتنطط على المدار ده وأنت صغير. يومها وقعت فى البير، كانت الساقية واقفة. لو كانت شغالة كنت رحت فى شربة ميه.

يضحك وأنا أنظر له بقداسة، وأرى رأسه وقد صغر، وخطوط العمر على وجهه. . يلوك خديه الأدردين بفكيه ويسألنى:

ـ إلا أنت يا سعيد يا ابن أخويا، عندك كام سنة كده؟

ـ كتير. ويلاً حسن الختام.

يضحك، ويسعل ويقول من بين فكيه:

ـ وكمان بتتكلم على حسن الختام.. دنيا!!

تدرج السيارة على الطريق الزراعى مكروشة النفس.. يدفعها جنونى على الأرض المستوية، بطريقة غير طيبة، تحت سماء الصباح المشبرة بدخان تتنفسه الأرض فى البواكير، وبقلبى تدوى صرخة الهاتف: قوم؛ عمك تعيش أنت!

أتوجه ناحية البلد وقد زلزلنى خبر الرحيل.. عمى.. أبى البديل.. الأول والثانى والأخير.. لقد أمضيت من عمرك السنوات دون أن تحصيها! أم كنت تعرف عدد السنين، وتنتظر يوم الحساب؟! لقد عشتها منذ صرخة الميلاد، وحتى الرحيل الأخير نحو منيتك مثل يوم، وعشت طول عمرك تواجه الزمن بتلك السخرية، وتلك الحكمة القديمة، الموروثة.. الأعمار أمانة تعود لصاحبها، والله جاب، الله خد، الله عليه العوض.

كان مسجى على دكة الخشب مطمئنا، وكانت القاعة التى ولد فيها على حالها. ضوء شاحب ينفذ من طاقة المغارب. وأنا أقبله وأقاوم بكائى.. هل أبكى الآن أو أحتفظ به عندما ألتقى بك وحدى فى الليل؟! أو عندما أراك تنبع من الصفحات البيضاء، فأجلل رأسك بحروف الكتابة، صانعا منها تاجا للزمن وللأيام؟! عمى.. أبى البديل، الأول والثانى والأخير! وفى نفس القاعة، وأنا صغير أدس

يدى فى سيالتك وأسرق النصف فرنك . . وأسمعك تنادى أمى : الولد مسافر جهزى له زوادة خير تنفعه فى الغربة .

أشم رائحة القاعة، وصابون الغسل، وأتلمس الكفن، وأنت تتهيأ للرحيل، مغادرا الدنيا بوجهك المغمور بطمأنينة ما بعد الحياة، وأنا أنصت للأصوات الضائعة فى الفراغ خارج الدار .

فى المسجد صلينا عليه العصر، وخرجت البلد خلف النعش، وكنت أسير خلفه، (لقد صرت وحيدا بالفعل)، فجأة حدث هرج كبير، واختلت الجنازة، وبدأت الأصوات تعلو : الله أكبر . . الله أكبر . ورأيت حملة النعش يركضون بسرعة وكأنما يسحبهم النعش نحو المقابر . ورأيت ركض الجنازة، وعفرة التراب، والغيمة التى حجبت الشمس لحظة . عند ذلك ضاعت منى روحى، وأجهشت بالبكاء!

عشب مبتل

أغلقت النافذتين، وبابى الشرفتين، وأطلت من خلف الزجاج فشاهدت النهر ومشهدا من المدينة.

خفق قلبها وهمست: «الليل حل»!

سمعت أغنية على النهر، وضرب الجناح وأحست بمسرى الليل. تأملت وحدة النجوم البعيدة، أخذها الحنين.

أسدلت الستائر فاختفى النهر ومشهد المدينة.

بجلال دقت ساعة الصالة دقتين، وضاعت من رأسها الأغنية وكذلك خفق الجناح.

رجعت بظهرها وتأملت السيدة المصورة فى الإطار الذهبى، والتى تمسك بضفيرتها المحلولة، فيما يضوى خلفها لون أحمر كالنار يفرش أرض اللوحة ويشتعل.

مسحت بيدها الزجاج، وتنهدت، ثم سارت حتى تجاوزت ممر الشقة الطويل.

آخر الممر مرآة مصقولة معلقة على الحائط، مثبت فوقها مصباح يرسل ضوءا خفيفا.

وقفت أمام المرآة وشدت بدنها الطويل؛ فبان جيدها العاج على

صفحة المرآة المصقولة، ثم رمت بشعرها خلف ظهرها وفتحت أزرار طوق الثوب وتحسست الثديين النافرين فتسلل للقلب الحنين.

تذكرت زوجها المسافر فتنهدت بحزن، وابتأست.

قبضت على أكرة الباب؛ لتدخل غرفة النوم.

«أجلس على الكازينو ذى السلالم الحجرية، والتاندة الصيفية الزرقاء، وآنية الزهر المصفوفة فى الممرات، وأرمى برجلى على البلاط الملون فى استهانة، وأرفع خلف رقبتى ياقة «الجينس». ما إن ألمحها خارجة من باب بيتها فرسة فى ثوب، تخطو على الأرض المعشبة حتى أرتجف. تلقى بالتحية للبواب العجوز الذى يقف على عجل ليفتح الباب الخارجى للسور. تقف لحظة أمام الباب فتهب ريح النهار، وتطوح خصلات شعرها الفاحم، فتمد يدها تسوى الشعر النافر، وتنظر ناحية الشمس، ولا تنظر تجاهى أنا المتربص، المحدق فى الردفين، والبطن المدورة. أنا العاشق، الصياد المنتظر، يضربنى دمى، وتنتفض عروقى بالشهوة الفاسقة».

انتبهت أنها لم تطفئ نور الصالة فتركت مقبض غرفة النوم. عادت وضغطت مفتاح النور، وتركت مصباح المرآة المصقولة مضاء. عادت وتوجهت ناحية غرفة النوم وتنهدت: «تأخر الوقت»!

«زوجة مفارقة، تجدل ضفائرها وتُودّع صباها، وأنا أرقب هذا الصبا فى مهب الريح (أنا الريح). أحل بها بالقدر الذى أثق فيه أننى سوف أستيقظ بعد حصولى على فاكهة البستان فلا أجد ضريحا لموتى، ولا عباءة لشيخى القارئ، ولا حتى فرستى فى كل الأحوال أمتطيها فى الحلم».

تأملت صورة الزوج المبتسم فى الممر، وقد انحرف إطارها. عدلت

الإطار، وبادلت الصورة نظرة. تذكرت . . . مشهد الجسر . . وحديقة الياسمين . . والسفينة المبحرة . . وأول رسالة . . وآخر وداع .

عادت وقبضت على أكرة الباب .

«أتبعها خطوة بخطوة، أترصدها كغرائس الصيد، هذا ما قدر لى أن أفعله، تعبر الرصيف، وتسير بجانب سور الحديقة؛ حيث يتضوع مسكها، ويملأ الشارع بالأريج . تصعد مع النهر فيصعد منى دمى ويهبط إلى أوردتى . توهمت أنها تبتسم لى فا بتسمت أنا . ولما خاب ظنى قلت : «إنها تملك فى عينيها فيروزتين» . ووسعت من خطاى عند النهر . عدت وهمست لنفسى : «هى التى لا أنام إلا وهى فى حضنى كل مساء» . أنظرها الآن تملأ الشارع بحضورها الجليل غير قادرة أن تخفى حيوية الجسد ـ له المجد ـ عن العيون المستنفرة لمشهد تجليها، أعلم أنك غير مكترثة بى، وأن قلبك لا يعرف العداء؛ حيث إننى وبكل ما كتب على منذ مولدى، لا تعرفينى ولا يعرفنى جسدك . له المجد» .

تنهدت، وواربت الباب، وهمت أن تدخل .

«ولما غادرت الميدان واجتازت الشارع الرئيسى؛ سقط كيس نقودها فالتقطته وقدمته لها وأنا أبتسم، ولما رأيت البحر ينظر ناحيتى، أزرق وعميقا؛ غصت فيه أبحث عن عناقيد اللؤلؤ وفروع الشجر الملون، وأستحم فى القاع الحميم .

فارقتنى وفاح عطر الياسمين . أدركت وحدتى، وبأنها بلا قصد، لا تَعرفنى، وأننى وبكل ما عانيته لكى أقطف الثمرة علىَّ «أن أقطفها ولو بحدَ السكين» .

عرف موعد مرورها من أمام النصب التذكارى؛ حيث النار

المشتعلة، والورود الجديدة، وحكمة الماضى المنسى، وصورة الجواد الأشهب المتكلسة.

ولأننى مستذل، وعلى درجة مروعة؛ لم أعد أعرف إن كان ما يحدث، يخصنى، أم يخص ذلك العاشق الآخر الذى يقتعد مقعد الحجر، والذى طالما يهتف لنفسه: إن ما سيقع سوف يقع، طالما أمتلك أنا نصل السكين الذى سوف يفتح لى الطريق لامتلاكها، ومن ثم سيأتى اليوم الذى ستستأنف فيه قراءة الحكمة، ويدرك الذى يجهل، أننى ـ ولفرط ما وثقت فى دمى، الذى ورثته عن جدودى الصيادين ـ سوف أرى فرحتى ـ فرحته ـ لأننى ـ لأنه ـ حاول أن ينشغل منذ عرفها بالعشق الحرام حتى يتم حلمى ـ حلمه ـ الآتى إليه من طفولة زمانه؛ حيث كانت هى قبل ذلك الزمان لأحصل ـ ليحصل ـ على فاجعته».

خطت داخلة لحجرة النوم. مشطت شعرها، ودلكت كفها بالكريم المعطر، ورشت رائحة الياسمين. تنشقت ملابس الزوج الغائب، المعلقة على الحائط، وأخرجت من الدرج ربطة الرسائل الملفوفة بشريط القطيفة، تأملتها، ثم وضعتها داخل الصندوق.

اتجهت ناحية باب الشرفة لتغلقه، ما إن سحبت الشيش حتى برز هو من خلفه بسترته «الجينز» وشعره المهوش، الساقط على جبهته.

ارتاعت وقبضت بلا وعى على الشيش، وفغرت فمها تود أن تصرخ. كتم أنفاسها وسحبها داخل غرفة النوم وأغلق الشرفة، وأحكم الرتاج.

خفف يده فنظرته بذعر:

ـ سأصرخ.

فتح السكين فسمعت تكة الترس ، والتمع النصل تحت نور الحجرة المتوهج . حدقت فى السلاح القادر ونظرت للجدار فاصطدمت بصورة المسافر ، المبتسم ، وقد كست ملامحه طمأنينة ، فيما تشيع بعينيه محبة الأيام الخوالى .

رجعت بظهرها متوسلة حتى اصطدمت بحاجز السرير :

ـ سأصرخ .

نشق رائحة الياسمين ، وعذاب انتظار ، فانفجر الدم فى شرايينه .

ـ لا تفضحنى . . أنا امرأة وحيدة .

«أخرج خالعا أيامى ، مجتازا أيام التربص الطويلة ؛ لأصل لآخر مدى من نواياى ، مخلفا أسرار وهنى الذى حرمنى من الفعل ومحاولة قطف الياسمين ؛ حيث أجتازه لثمر التفاح» .

ـ سأنالك ، لن تفلتى .

جفلت ممدودة اليد ، لكنه وضع على العنق العاج النصل المشحوذ وضغطه ؛ فشعرت بألم الوخزة المدببة ، وحاصرها عجز الأسر والتهديد فى الحجرة المحكمة الرتاج .

صرخت ؛ فكتم أنفاسها وظل يضغط حتى رأى عينيها تجحظان .

ـ أنا جاد فيما عزمت عليه .

رفع يده ؛ فملأت صدرها بالهواء .

ـ لا مهرب ، ولسوف أتم ما بدأت .

جَثتْ على ركبتها وتوسلت :

ـ مالى، مصاغى، خذ ما تريد!

ـ أنت ما أريد.

ـ نزوة ستخلف العار، يا للعار!

التفت ذراعاه حولها، فأزاحتهما. هجمت عليها أنفاسه كالنار، واندفع ناحيتها كذئب، وقد أسرها فى حضنه.

كانت فى حالة من عدم التصديق، وكأن ما يجرى لها يحدث لأخرى، أو كأنه يحدث فى الكابوس.

أسرها فشعرت بغريزته، شق فتحة الثوب حتى الذيل. نفر الثديان خارجين؛ فجُن ابن الانتظار الطويل. صفعته، وخمشت وجهه بأظافرها فرسمت وشمًا من الدم على الوجه الوسيم. ضغط بسن السكين فتأكدت أنها بمواجهة رجل يائس، خارت قواها وماتت المقاومة وهى تنظره، قادرا على العشق حتى الموت.

ألقى بها وأطبق بشغف على الفاكهة الحرام. التذَّ بطعم الرحيق. كانت الدنيا حارة أكثر مما يطلبه الحب، وتركته ينض ما تبقى من ثيابها، وأن يتحسس مواضعها، ولما قالت له: «راجع نفسك»! رد عليها: «إنها لم تجرب الانتظار» و«النظر إلى الشمس الحارة».

بكت. ما الذى يضنيها هذا الضنى؟!

آمن للرضى المفاجئ؛ فترك السكين على «الكومودينو» بجوار السرير، وأحس ببداية لهاث يخرج منها، ورأى على البعد ألق مجارى المياه يضوى فى العين، ونشق رائحة الياسمين التى أخذت تختلط بعرق ذكورى يفوح عبر غيط الأزاهير، الذى يهبط تجاهه الآن صقر البرارى، مشرع المخالب، خاطفا من أرضه فريسة يتيمة الأم.

«كأننى سأعتذر عن ضغائنى»، همست لنفسها :

«ما هذا الذى يحدث لى؟ أعجز أنا السيدة الفاضلة عن أن أسميه».

ودت أن تمد يدها وتقبض على السكين، فرصة مواتية لتحفر فى الجسد طريق خلاصها، وترى الدم ينبثق من البطن العرقانة. ودت أن تنتهى من تلك الخشونة الحنون، إلا أنها لم تفعل، واستسلمت لما هى فيه، وأسبلت عينيها وكأنها تحلم.

واجتاحتها الضغينة. لم تكن تعرف على من تلك الضغينة؟!

مدت يدها ولامست ظهره، فيما قابلت اليد الأخرى التى امتدت وضغطتاه معا.

عادت تفكر بالسكين، لكنها لم تفعل، وبقى الأمر على ما هو عليه، جميلا، وغير مبتذل.

وراق لها ما هى فيه.

أبدًا لم تفعل، وهمست لنفسها :

ـ يا للعار!

الجمعة اليتيمة

ما الذى يبرر وجودى فى الجبل هذا النهار المخاتل، البارد؟ هو إذن، صهيل الجواد . . حسن . . ليكن . . علىّ أن أقبل ما وضعت فيه وأتنزع من قلبى شغفى بماهوآت .

تصطدم موجات هواء الشتاء بالقباب الأيوبية . . هى إذن، روائح الأزمنة القديمة . . حسن . . مد قدميك ولا تخش الليل . تستطيع بلا خوف ـ أنت خائف بالطبع ـ رفس كومة القاذورات؛ لترى شعاع البرق من نافذة الحديد .

هو قط الممرات الأسود ذو العين الصفراء، ساكن الأقبية والسطوح . . يهبط ودمى درجات السلم العلوى شاحذا أظافره، تجول عيناه الصفراوان بالممر الصخرى، تلتهم الأبواب المحنية، فوهات المقابر . . العجيزة اللوطية تهتز وأنا أراها؛ حيث أبدو متحجرا من الخوف .

صاح به الرجل الذى ينتعل الحذاء ذا الرقبة ويرتدى البالطو الواسع الأكمام، وقال له : «بس» وخبط الأرض بقدمه اليسرى . . توقف القط الأسود ومال برأسه ناحية الرجل الذى ينتعل الحذاء ذا الرقبة ويرتدى البالطو الواسع الأكمام، وحدقه، وماء بوحشية، ولما خاف الرجل واستند للجدار؛ اهتزت عجيزة اللوطى وسارت على أرض الممر .

فردتُ رجلى على الأسفلت . . جالت عيناى عبر الكتابة والنقوش المحفورة على الجدران الأربعة ، **(أن تولد وسط الناس فهذا دافع جيد للدفاع عنهم، وهو دافع لاقتلاعك من تربتك)** . . التواريخ الغائرة خلف الباب . . عن الساعة واليوم والشهر والسنة . . حساب السنين والمشيب .

رأيت بعينى رأسى كيف يضمحل الزمن، وينتهى ككائن هائل ، يعود فيتجمع مرعبا ، والزمن فى الذاكرة غير الزمن خلف الجدران . . **فى إمكانك أن تكون حرا عندما تهيم فى الشارع وتتعرف على الحقيقة الصغيرة المدهشة.. يمكنك أن تشم الهواء بحرية أو لا تشمه.. أو يمكنك أن تتذكر لينين أو السهروردى أو حتى ابن جلا، فى الشارع تستطيع أن تصيد السمك أو تغنى بصوت أجش، ولا أحد يمنعك.**

هنا تستطيع أن تتذكر أيضا . . ذلك الحامل الحديدى النافذ فى الجدار الخلفى ، يبدو لى أنا كمشنقة . . الحلم بالحبل المتدلى والجسد المتطوح بلا نسمة هواء . . ما زالت أظافر القط أحس بها تخمش جلدى . . فزعت وحدقت فى الفراغ الضيق المحاصر بعينيين مذعورتين .

مزلاج الصباح والمساء الحديدى فى رحلة الانسحاب إلى الخلف ، يصرخ صرخته الصدئة التى تنفذ إلى رأسى الواقع على صدرى . . يد مدكوكة ، سمينة ، ذات أصابع مدربة ، تدفع المزلاج إلى أذنى فيخرق لى طبلتى .

(آه لو أننى تنبهت لقول جدتى العجوز فى اللحظة التى مررت فيها أخطو أمامها، كأننى كنت فى الحلم أو اليقظة، لم أعد أدرى.. عندما قالت

لى: إنها لم تعرف عن جدى سوى أنه مات ودفن فى جسر النيل، وأنه قبل أن يموت غاب سنوات طويلة لا تعرف له مكانًا، وأنها ظلت تبحث فى الجهات الأربعة لوادينا السعيد، ولما يئست هى؛أخذت تندبه بعد ذلك).

وكنت دائما أسمع جدتى وهى تصعد سلم الدار الخشبى تطلق ندبا حزينا لا أعيه، وكنت أسألها: لماذا هى تبكى فى النهار وفى الليل؟ وكانت تنظر إلىَّ صامتة.

اندفع ضوء من فتحة الباب، غمر المكان المظلم، وظهرت تشكيلات الرسوم وحروف الكتابة.. فى فتحة الباب وقف الرجل الذى ينتعل الحذاء ذا الرقبة، ويرتدى البالطو الواسع الأكمام (فى الليل يسير الحذاء ذو الرقبة رتيب الصوت، يبعث ذلك «الأطيط» الذى يتناهى إلىَّ من الطرقة التى تفصل الحجرات، باعثا بداخلى ونسا عطوفا؛ حيث أرى ذلك المصباح الأعور يتنفس ظلالا شاحبة ميتة، وأرى على الحائط خفاشا هائل الجناحين من ظلال، محتضنا الحائط فيما تهزه رياح الشتاء).

قال لى: (دورك فى الغسيل اليوم).

نهضت، ونظرت فى عينى الرجل.. مددت يدى، ثم سحبتها، قلت له: (لماذا تتجه ـ دوما ـ زهرات عباد الشمس تجاه الشمس؟)، جلست ومددت قدمى، والتقطت قطعة من الخبز الجاف.. ضغطتها بأسنانى فتكسرت.. سمعت صوت تكسر العظام.. كانت فتحة قدميه تشكلان رقم ثمانية، خلفها يتألق ضوء النهار.. نفذت من خلال الفتحة، وركبت الهواء، كنت هناك.. فى غيطنا القديم، فى حديقة برتقالنا فى عز نضجه.. كنت هناك على شاطئ البحر الشديد الزرقة، فى ذلك الوقت من العصر.. كانت المياه تصفق الحصى

الصغير، والمحارات تبدو ساكنة تحت الماء. . شوارع مزدحمة بالمتسكعين، وتلك الوقفات العبثية، والأصوات التى تحمل الفحش. . والتى تبدو سعيدة.

عدت أحمل سكينا، وضعتها على الطاولة المدقوقة فى الجدار وانتظرت مجىء الأحذية ذات الرقاب، والبلاطى الواسعة الأكمام.

مواء القط فى كل البناء، وأظافره وردية لكنها فى لون الدم.

- انتهى فى نصف ساعة.

نهضت - ظهرى يؤلمنى - جمعت أشيائى المتسخة، وضعتها فى الإناء البلاستيك، ومعها صابونة ميرى وليفة خشنة. . لففت فوطة صفراء حول رقبتى وأسندت الإناء إلى صدرى. . وسع لى الرجل الذى ينتعل الحذاء ذا الرقبة، ويرتدى البالطو الواسع الأكمام. . هبطت إلى الضوء الذى يغمر الممر. . الذى يغمر العالم. . كانت الشمس راقدة فى نعومة على أرض الممر فى شكل مستطيل تستحم فيها بعض العصافير، وكان الرجل الذى ينتعل الحذاء ذا الرقبة، ويرتدى البالطو الواسع الأكمام يتبعنى، وأنا أرى تلك العيون خلف ثقوب الأبواب تتطلع ناحيتى وناحية الشمس - يا إلهى الطيب - اليوم هنا مستقل بالتأكيد، منفصل عن نسيج الحياة بالخارج، يوم لا يبدأ بشمس الصباح الراقدة على بسطة السلم الثالثة والتى تظل تتسع حتى تنير البناء كله، القلعة كلها، إلا تلك الحجرات؛ حيث تنبعث الأشواق فجأة، ثم تموت فجأة، وتلك الأطياف للذين أحبهم (هل ماتوا، أو لا يزالون أحياء؟).

تخطيت مستطيل الضوء، وصعدت ثلاث الدرجات السفلية،

سـرت خطوات على البسطة الوسطى ، قـرأت كلمـة على حـائط دورة المياه بعثت فى نفسى السخرية . . دورة المياه فى الصباح تتنفس روائح كريهة . . صعدت ثلاث الدرجات العلوية . . تتدفق المياه من الصنابير الخـربة . . وضـعت الإناء البـلاسـتيك فى الحـوض ، وبدأت أدعك مـلابسى بالصـابون الميـرى ، كنت أدس رأسى فى (كلبـوش) صـوفى يتدلى طرفه حتى رقبتى . . هبطت الدرجات العلوية وسرت خطوتين على البسطة السفلية ، ثم هبطت الدرجات السفلية . . خرجت من باب دورة الميـاه . . نظرت جـهـة اليـمين إلى السلم الذى يقـود إلى سطح الأرض، خطوة واحـدة وأكـون فى مـستطيل الشـمس . . الآن ، أنا فى **مستطيل الشمس . . تغمرنى وتتسلل إلى مسامى ، أعدو فى أميال الضوء الكاشفـة عن درة الأماكن التى حـرمت من التطلع إليـها.. أجلس فى سـاحة القرية، أنا والصـبيـة الصغار، رفـقائى.. أستلقى علـى شاطئ الرمل معـرضا جسـدى العارى لـلشعـاع الهابط.. أندفع بجـسد نشط ملىء بالحـياة؛ حـيث أحـتسى كـوبا من (البـيرة) المثلجـة، ها أنا فى رحم جلبـة الأرض، ولا شىء يستطيع أن يجذبنى خارج مشاعرى التى تفيض.**

عـاد يجرى الرجـل الذى ينتـعل الحذاء ذا الرقبـة ، ويرتدى البـالطو الواسع الأكمام ، وكان قد خرج من المنطقة . . هرول نحوى هامسًا :

ـ أنت مجنون . . ادخل الدورة .

ـ اتركنى أغسل هدومى فى الشمس .

ـ ممنوع . . ممنوع!

ـ سنة من غير شمس تعنى الكثير .

ـ ادخل الدورة!

قلت له : إننى غالبا ما أسمع تحت الأرض أنينا لا ينقطع طول الليل . . قال لى: إن الذى قبلى فى نفس المكان قال مثل هذا الكلام، ولما نقلوه لمكان آخر كان يسمع نفس الأنين، قلت له : ألم تخف أبدا؟! قال لى : إنه كان يخاف وهو صغير . . قلت له : إننى كثيراً ما أخاف بالليل، عندما تتحسس يدى صخر الجدران، أو عندما أسمع آخر يبكى من فرط شوقه لولده، وإننى لا أنام ليالى بطولها من مواء القط الذى يحاصرنى . . قال لى : إنه لا يعرف عن هذا الموضوع شيئا، قلت له : القط بالأمس كان يهاجم قطة وكانت تطلق مواء شبقا، لكن القط لم يستطع أن يفعل معها شيئا سوى نهش رقبتها . . قال لى : يبدو أنك خرفت . . قلت : أغسل هدومى فى الشمس؟ . . قال : سأبلغ المسئولين .

سحبت نفسى من مستطيل الشمس، صعدت الدرجات الثلاث السفلية . . سرت خطوتين على البسطة الوسطى، وصعدت ثلاث الدرجات العلوية . . بدأت أعصر ملابسى فى صمت . . وضعت السروال المثقوب والقمصان الداخلية فى الإناء البلاستيك . . فكرت فى الاستحمام، لكن نصف الساعة انتهى . . تسلقت الحوض، وكنت أود لو نظرت من خلال ثقوب نافذة دورة المياه على الخارج . . هاجمنى القط الكامن خلف النافذة . . كانت مخالبه تنفذ من خلال ثقوب السلك الصلبة، وردية ولكنها فى لون الدم . . سقطت من فوق الحوض . . بعد ذلك منعت من الخروج إلى دورة المياه .

كنت أنا والجدة العجوز نجلس على سطح الدار.. كان وجهها المتغضن يعكس ذلك الحزن الذى ورثته عنها، والذى دائما ما أجده بداخلى.. أسندت رأسى الصغير على رجلها المفرودة، ويدها الصغيرة تعبث بشعرى الطويل..

كان ذلك فى يوم الجمعة اليتيمة، وكان الله يغمر الشوارع بضياء شاحب وهواء عاصف.. بينما رجل يعزف لحنا تحت شجرة الكافور على ناى قديم.. كان الغلمان الصغار يصعدون المئذنة، التى من قبل أن أولد ومن قبل أن تولد الجدة.. كانوا يلقون بالأوراق المطوية والتى تخفق كأجنحة طائرة، مكتوبا فيها آيات لم تتغير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ (الفرقان: ٤٥) ساكنا.. سا.. كـ.. نا»، أوعية فخارية تحت النافذة الشرقية للمسجد تتصاعد منها أنفاس البخور.. ونسوة ينتظرن الغائبين، منكسات الرءوس زائغات النظرات ــ الحر فى الظهر ــ والنسوة فى ظل المسجد ساعة الخطبة يقبعن منكسرات، والشارع يمتد إلى بعيد، والأفق يسقط عبر الحقول ولا أحد يأتى، لا الذى راح، ولا الذى سافر.. قالت لى جدتى: إن جدى كان شهما، وكان سيد الرجال.. قلت لها: يا جدتى، لماذا هذه الجمعة يتيمة؟! قالت جدتى متنهدة: فى ليلة جاء رجال غرباء وأخذوه من حضنى قلت لهم.. متى يعود؟! حدجونى ومضوا به.. قلت لها: لماذا هى يتيمة تلك الجمعة يا جدتى؟.. قالت: إنها ظلت تبحث عنه وعندما أجابوها قالوا لها: إنه سافر مع السلطة ليحرس جسور النيل البعيدة..، صرخت فيها مستفزاً.. جدتى أريد أن أعرف لماذا هى يتيمة..؟ نظرت جدتى لقرص الشمس وقد كساه الغبار، والشمس تبدو بيضاء شاحبة.. قالت: إن جدى لم يعد أبدا، وعندما مات لم يعرفوا قبره، وإنهم دفنوه فى جسر النيل فى قبر من الطمى.. تحرك الهواء الراكد وأقعيت أنظر فى عينيها الخابيتين، وخطوط الزمن الزاحف تطوى جلدها.. قالت لى: إنها من يومها وهى بلا رجل.. استعطفتها قائلا: لماذا هى يتيمة؟! نظرت نحوى وفردت رجلها وقالت لى: إنها لا تعرف أيضا لماذا هى يتيمة؟!

تحركت النسوة من تحت جدار المسجد . حملن الأوعية الفخارية . . كانت نارها قد باتت رمادا، وهمدت أنفاس البخور

تماما . كن صامتات وحزانى . . حزن قديم لافح كهجير القيلولة ، يمتد عبر الأزقة ، والظلال المنكسرة ، والحر ينفث رائحة طين الجدران .

عندما فتحت عينى كانت ستة أقدام تحوطنى . . كانت الأحذية بلا رقبة . . لفت نظرى أنها لامعة ومن مقاس كبير . . كانت العيون الست تنظر إلىَّ من مكان عال قرب السقف .

ـ عامل إيه يا ٢٣ ؟

ـ كما ترى .

ـ قم استعد . . مطلوب فوق .

قالها ، ثم انسحب من الحجرة وتبعه الاثنان . . حطت علىَّ كل مخاوف العالم ، وهبت ريح آتية من داخل أقبية عفنة ، رطبة . . كان منتصف الليل شديد الظلمة ، وظل الخفاش المحتضن الحائط يتحفز للطيران . . بدا البناء فى تلك اللحظة هائل الجرم . . تذكرت القلاع المنسية على سواحل البحار ، والأمواج تلطمها وتحدث بجدرانها فراغات . . كانت أشياء تتبعثر وتضيع . . أحكمت معطفى القصير حول رقبتى . . عندما خطوت خارج الباب كان الثلاثة يقفون فى صف واحد . . سرت فى الممر الذى فى الظلام . . والصوت يأتينى . . لماذا تلك الجمعة يتيمة يا جدتى . . وجدى ، لماذا لم تعثرى على قبره ؟ ! والرجال الذين راحوا ، لماذا لم يعودوا ؟ ! وصلت منتصف الممر ! كانت زهرة عباد الشمس ذات التويج الأصفر مشدودة نحو الشمس تتبع مسارها فى رحلة الشروق والغروب ، وهبات الهواء عبر فضاء الحقول تطوحها ، لكنها أبدا لم تنحن . . عندما صعدت الدرجات السبع ودلفت يمينا سبقنى أحدهم . . كان الليل شديد البرودة . . اشتد مواء

القط، واندفع يذرع الممر الصخرى فى هياج بدائى، يخمش الأبواب ويدور متحفزا . . كان الصقر ساكن المئذنة العالية، التى أعلى من الجبل، والذى أستأنس بصوته كل ليلة . . كان فاردا جناحيه قرب النجوم، دار حول المئذنة العالية والقباب الصامتة . . انقض على الممر الصخرى وهو يطلق صرخة، اقشعر لها بدنى . . وأنا جالس أمام الذى لا يأتى إلا والخوف فى ركابه . . الصقر على الممر . . عينا الرجل المحدقتان فى وجهى تعكس لمعة خاطفة . . سرداب محفور بالأرض، وأجنحة تهف فى خرابات مهجورة . . أهرب من عينى الرجل . . المخالب المشرعة تقبض على جسد القط وتعلو به، فيما كان ـ بفراغ الليل ـ يتردد صوت كالعويل، كان القط فى ظلمة الآفاق يموء بفزع العلو، يموء بفزع السقوط.

لابورصا نوفا

كان أبى الشيخ قد عمدنى ثلاثا فى بحر النيل . . كنت طفلا صغيرا أعشق النهر والحارة وجوادى الأشهب . . شرقت بالطمى وصرخت مفزوعا وأنا أغطس فى النهر . . صاح بى أبى : اجمد يا ابن الناس، ماء النيل يرم العظام، ولا يروى القلوب كمائه . . كان ذلك فى زمن الفيضان، شربت الماء بطينه وعلى جوانب الصدر تكونت جزر أسميتها (الوطن) .

النيل يأتى من الجنوب حاملا الطحالب وورده وجثث المغضوب عليهم . . شاهدت فى الليل قمرا قرويا يلوح مختلطا بدخان، يركض خلال السحب الشاحبة، فوق الأزقة العتيقة . . بعدها حلمت، وفى الحلم بكيت وأخذتنى جدتى فى حضنها . . دفعنى أبى أمامه فرأيت فى شحوب الليل ولمعة النهار الأولى جوادى الأشهب مشدودا إلى ساقية يدورعلى مدارها المترب، يثير فى القلب التراب والأحلام . . حول (ركية) النار حكت لى جدتى عن جنية شابة تظهر فى كشف القمر على شط النيل تمشط شعرها وتغنى : يا عروسة يا عريس . . قال لى أحد العارفين : إنها تطلق نفس النداء من ألوف السنين . . قلت له : ألم تتعب؟ قال : لم تتعب . . وكان عندما يغيب النهر رجلا، يقولون : إنه العريس . . لكنها سرعان ما تغنى من جديد . خفت وهربت من عتبة الدار إلى باب الحظيرة، وجلست أرقب جدتى وهى تحلب بقرتى

الصفراء ونادتني وحلبت فى فمى لبن بقرتى وكنت أشعر بدفء اللبن وأسمع وشيشه . . بعد الحصاد أخذنى أبى الشيخ إلى المولد ووشمنى على صدرى . . حمامة وبئر معين ومزار لولى الله وأسد يحمل سيفا وينتظر . . على ذراعى اسمى واسم موطنى . . كان الوشم أخضر كورقة القطن وكان يزهو لونه فى زمن الربيع ، وكنت أسمع آلة الوشم تئز ، وفى ساحة المولد أرى نساء ورجالا وأطفالا كثيرين ، وكانوا يغنون وعندما يكفون أشعر أنهم تعساء . . فى المرآة الصغيرة رأيت على صدغى حمامتين تتأهبان للطيران وتنضمان إلى سرب الحمام العائد والذاهب تجاه المغارب ، والذى كنت أنتظره عند القنطرة الخشبية ، ولما سألت أخى الكبير عنها قال لى : إنها طيور مهاجرة ولما سألته إلى أين؟ قال لى : إنه لا يعرف . . لحظتها انتفض قلبى وعرفت معنى البكاء ، ومسنى الحنين ومعنى الهجرة .

ميدان يعج بالخلق ليل نهار . . تمثال قديم من الصخر القديم لآله قديم . . محطة بخطوط طوالى . . كلوبات آخر الليل تضىء صوانى واسعة مليئة بغذاء فقير وشارع تبدو نهايته مسدودة وحالكة الظلام .

تعثرت فى الأحجار الملقاة على جانب الطوار . . هبت ريح يناير الشتوية وطوحت بفروع شجرة وحيدة مستسلمة لماء المطر . . كان الشارع مقطوعا ، وخفت وحدى ، سبق وعرفت الخوف لكننى فى أيامى الأخيرة أخاف من الموت والغربة والاعتقال . . عادت وهبت الريح الشتوية من زقاق جانبى كالرصاص تحمل عفن الزقاق . . انكمشت فى معطفى القديم وحلمت بالشمس . . سمعت صوت أقدام تتبعنى ؛ فخفت وصعدت سلما صخريا يقود إلى شارع (الجمهورية) . . سرت فى الشارع وحدى ، وقلت : الليلة طويلة والمطر

لن يتـوقف وآخـر قطارات (عين شـمس) ودع المحطة من سـاعـة . . عـصرت مـعطفى المبلل . . قلت : الآن لا قـروش ولا مأوى ، والمقـهى أنزل أبوابه واستراح .

توقف المطر قليلا . . خرجت من تحت البواكى وسرت يمينا محاذيا شريط الترام، ولم يكن ثمة دليل على أن الجو سيصفو وتظهر النجوم، لكننى رأيتـها تقف هناك بجوار حائط الصـخر تلوذ بشرفته العالية ، لم أتبينها أول الأمر لكننى رأيت ثوبها المنقوش بالورود والسنابل الخضراء (تذكرت وأنا صغير أننى كنت أقطف هذه السنبلات وأحرقها وأفركها بيـدى وأذروها فى الريح ، ثم آكل حبـاتهـا) . . خـرجت من الضـوء الشحيح سائرة نحوى . . كنت أسمع صوت حذائها وهو يغوص فى وحل الشارع .

توقـفت أمـامى لحظة ، رأيت عـينهـا وشعـرها المبتل وظل ابتـسامـة مسائية . . كـانت دقيقة الملامح ، غريبة فى تلك الليلة الممطرة . . قالت لى : مساء الخير .

قلت :

ـ مساء النور .

تأملت وجهها فى الضوء الشحيح وشعرت بذلك الدفء المفتقد ، وكان علىَّ أن أواصل المسير .

قالت :

إنها تأخرت . . قالت أيضا : إن الفيلم كان طويل جداً . . وإن بيتـها بعيـد والمواصلات توقفت . . سارت بجانبى وكـانت تتكلم بحـماس غريب ، لكنه حماس يختلط بمساحة من الحزن ، تصل قلبى .

ـ تصور أن الفيلم كان ٢٤ كيلو، وأن رجل البوليس الأمريكى كبس على البيت وكان صاحبه غائبا؛ اعتدى على الفتاة بالقوة. . صمتت قليلا. . ثم قالت لقد كان شيئا فظيعا.

قلت لها: إن الجو بارد جدا. . وإنها لا تزال تمطر.

قالت: كان العساكر يمسكون بالفتاة بينما كان يعتدى عليها، لكنه حينما صرعها كان وحده.

(ذكرتنى عينها بالنخلات الثلاث والبئر المعين وصوت جدتى والمزار القديم وفرسى الأشهب).

قالت: شقتك بعيد؟

أخذتْ كفى بكفها وسارت بجانبى.

قالت الليلة باردة. . سكنك بعيد؟

كأننى عشقتها فى صباى الباكر، وكنت أتطلع إليها طول الوقت وكانت تحدق فى وجهى بطريقة غريبة وكانت ملامح وجهى تثير فيها الرثاء. . مدت يدها واعتصرت معطفى المبتل.

قالت: البالطو مشبع بالمطر.

(لو أننى أستطيع أن أنام معها هذه الليلة)

قلت لها: إننى أسكن بعين شمس الغربية. . وأن حجرتى تقع على غيط تين شوكى وبالقرب من قرية تسمى (عرب الحصن) مبنية على جبانات قديمة، وأن أهل القرية ينبشون هذه الجبانات، لكنهم لا يجدون فيها سوى حجارة عليها كتابات قديمة وغير مفهومة. . قلت لها أيضا: إن الشمس فى هذه المنطقة لا ترحمنى،

وتظل تحدق فى عينى طول النهار . . وقلت لها أيضا : لو تطلع الآن . . قلت لها : إن آخر قطار قد فاتنى وإننى لا أملك إلا بعض القروش القليلة وإن والدى لايزال مغروزا فى الطين، وإن آلة الوشم تئز على صدغى وإن الرجال والنساء والأطفال ليسوا سعداء بدرجة كافية وإن الليلة باردة وإننى أود أن أذهب معها هى، وإننى أكره هذه المدينة بدرجة مروعة .

أعمدة رومانية الطراز تحمل كنيسة قبطية تظللها أشجار كثيفة مظلمة يستقر فوق قبتها صليب حديدى . . ينبعث ضوء خفيف ويسقط على ملاك مفرود الجناحين . . تذكرت أنه فى أيام الآحاد تدق أجراس الكنائس وأنه فى أيام الجمع تدوى مكبرات الصوت وأن المدينة تروع فى هذين اليومين .

قالت : إنها ترانى يائسا جدا .

أخرجت علبة سجائرها، وأشعلت سيجارة ولى أخرى .

قلت لها : إن صديقى اسمه (عفيفى مطر) وإنه شاعر مجيد، وإنه له ولد وبنت، والولد اسمه لؤى، أما البنت فقد نسيت اسمها؛ لأنه هاجر وإننى كنت أحبها بدرجة كبيرة . . قلت لها أيضا : كلهم هاجروا .

قالت لى : إننى مسكين . . وإننى أشعر بالبرد .

قلت لها : إن عمرى ٣٦ عاما وإننى عشت خمسة حروب، وإننى وأنا صغير كنت أقف على تل عال على جسر النيل وأرى كشافات ضوء فى السماء تكشف طائرات العدو المغيرة، وإنهم كانوا يقولون إن جلالة الملك فاروق سيدخل تل أبيب غدا، وإنه قد مرت كل تلك السنين ولم

ندخل تل أبيب بعد، قلت لها أيضا : إن اليهود يجلسون معنا الآن بالمقهى .

وسط المدينة الساهر . . ميدان التوفيقية بقعة من الضوء التى تضوى فيها البضائع . . سيارات لمهربين وفنانين متوسطى المواهب . . تجار سوق النهار فى زوايا المقاهى يحسبون مكسب المسعى الحرام، أكشاك رفوفها وسقوفها طافحة ببضائع من كل لون ووطن . . قنينات ويسكى مستوردة . . حمالات صدور وفوط للعادة الشهرية . . ثمار أناناس أخضر كأنه مقطوع من شجره الآن . . سواح آخر الليل أهل المتع المحرمة . . لعب أطفال وحبوب مخدرة من أول عقار الهلوسة حتى أرخص حبوب أراذل المسطولين . . داخل حيز الضوء الباهر كانت تجلس السيدة العجوز فى آخر الليل بين فوح رائحة الطعام وزحمة أقدام السكارى، متشحة بثوبها الأسود، ملقاة بجانب الرصيف تمد يدها تطلب الإحسان فى آخر ليل القاهرة .

سبقتنى ودفعت بابا خشبيا كالح اللون . . انفتح الباب على حانة رخيصة يعبق فى جوها دخان أزرق . . رجال عجائز ينامون على طولات خشبية ويسعلون بصوت مشروخ . . بينما امرأتان تجلسان بجوار الجدار المعلق عليه مرآة قديمة وصورة لفاكهة غريبة وقارورة خمر . . كان الصمت هو المسيطر وسحابات الدخان تتلاحق . . بين الحين والحين يطلق عجوز قابع وحده آهة متألمة، ثم ينخرط فى البكاء، ثم يصيح بأعلى صوته (لقد مات وحده) فتنهض إحدى المرأتين وتأخذه إلى صدرها، وكان يكف عن البكاء .

خلف الساقى اليونانى مرآة كبيرة وقديمة أيضا . . راعنى شكلى وشعرى المهوش وعينى المحمرتين . . بدفعة واحدة استقر الروم النارى

فى أحشائى وسرى الدفء فى بدنى المقرور . . أحسست بأذنى تلتهب ويتدفق فيها الدم، بينما عيناى مركزتان على العجوز الذى تأخذه المرأة السمينة إلى صدرها؛ حيث يده تسقط على عجيزتها .

خرجنا من الحانة . . كانت مياه الأمطار تندفع بجوار الطوار، كانت المشاهد وملامح الأشياء قد أخذت تتوازن بفعل تأثير الروم الذى يتشربه بدنى؛ حيث يتسلل إلى روحى انتشاء مفاجئ . . داخل الممر التجارى، وفى فتحة العمارة الكبيرة أخذتها فى حضنى وقبلتها على شفتيها . . استجابت لى وألقت بنفسها فى حضنى . . كانت تقبلنى بنهم وعشق آخر الليل مشبوب بوهج مشتاق، حنين بينما شفتاها لا تكف عن مطاردة شفتاى فى ظلام فتحة العمارة المظلمة . . كانت تبحث عن الأمان فى الليل الموحش الغريب وكنت أنتظر هبوب الرياح فى عصر الأيام التى لم تظهر شمسها بعد . . انطلقت بداخلى صرخة . . عاودنى الخوف من الاعتقال ومن قراءة الشعر ومن أصدقائى ومن اليهود . . عاودنى الحنين إلى السفر وإلى الطواف على الشواطئ البعيدة والعبث بالرمال . . باخت رغبتى تماما وأنطفأت، وعدت للصمت، قالت لى :

ـ مالك؟

قلت لها : إننى أكره إبراهيم الوردانى . قالت : إنها لا تعرف إبراهيم الوردانى . . قالت أيضا : إنها من مدينة السويس وإنها مهجرة وإن والدها كان يعمل بالبحر وكانت توصله كلما سافر وكانت ترى الشمس رائقة جدا، وطيور بحرية تطير فيها ،وكانت المركب تذهب إلى بعيد . . (من يومها لم يعد ولا زلت أنتظره وكنت كل يوم أذهب إلى البحر وأمسك بيدى الماء وكان يتسرب من بين يدى) .

أحطت خصرها بيدى، ثم سبقتها بخطوات (كنت أرى فى عينيها ثلاث نخلات وبئر معين وصوت جدتى وفرسى الأشهب وصوت أبى الشيخ).

سرت بظهرى مواجها لها.. قلت لها: إننى أجلس على مقهى اسمه (لا بورصا نوفا) وإن ذلك المقهى يقع فى ممر ضيق.. وإننا جماعة نتكلم فى الفن وفى الثورة وعن الوطن... وإن ماضى كل واحد منا مثقل بسنوات فى السجن.. قلت لها أيضا: إن الحكام لم يضطهدوا جيلا مثل جيلنا.. وإنه فى الظهيرة يأتى رجل له ذقن بيضاء يحمل تحت إبطه حقيبته الجلدية المتآكلة، ثم يجلس.. يخرج من حقيبته الجلدية المتآكلة قلم الفحم ويظل يرسم المارة. قلت لها: إننى كنت أنظر لحذائه وكنت أراه متآكلا جدا وكان يطلب من الجرسون طعاما؛ لأنه جوعان وكان الجرسون يرفض أن يعطيه.. قلت لها: إن المقهى يكون حارا فى الظهر وكراسيه تكون خالية، بينما فى الليل يزدحم بنا وتعلو أصواتنا ونتكلم فى الثورة والفن ونحكى عن الوطن.. ثم يغيب منا البعض فجأة، ثم يعودون ويتكلمون عن الرجال فى نواصى الشوارع أو عن النسور والعقبان، ثم يصمتون ويرحلون.. وتلوح بلاطات المقهى كمربعات الشطرنج وكنت أنظر فى عيونهم وأراها مليئة بالأسى.. وكنا نبكى فجأة، وكان الجرسون أبيض وسمينا ويشتغل عند الحكومة مخبرا.. وكنت أقص عليهم حلم الليالى الماضية عن جفاف النيل حيثما لن يكون زرع ولا ضرع، بعدها سيأتى الرجل من الشرق حيثما يخضر الوادى وكانوا يضحكون منى وينصحوننى بأن أتغطى جيدا أثناء النوم.. ونفهم أن كل ما يحدث له معنى واحد.. أن أمس كاليوم واليوم كالغد.. بعدها نقوم وتغيبنا الشوارع.. قلت لها: فهمت حاجة؟! قالت لى: إنها فهمت وإنها تعرف إبراهيم الوردانى.

ها هى القاهرة الفاطمية، حيث سكنها بالحى العتيق. . دخلنا زقاق جانبى. . أتت زخومة الأشياء المكدسة داخل الدكاكين والحجرات المكبوسة بالأنفاس. . بلاطات الشارع قلقة يعلوها الوحل ومياه المطر. . محلات عطارة تطفح برائحة نفاذة مقفلة على ضوء أصفر شاحب. . يتسرب من أسفل الأبواب وتأتى السعلات المشروخة، المريضة. . عربات يد مستقرة على الحيطان القديمة الشائهة ذات الحجر الصخرى. . مآذن مجلوب صخرها من الصحارى البعيدة منتصبة من مئات السنين.

باب بيتها وطىء ومترب وتحت بسطة السلم تجلس نسوة عجائز حول نار مشتعلة يستدفئن ويثرثرن. . عربجى يدرج على أرض الزقاق غير المستوية متخذا طريقه فى البدارى إلى السوق البعيد، تطلعت عيون النسوة ناحيتنا وصمتن. . مررنا بهن، ثم ارتفع لغطهن، انفتح باب شقتها على ظلمة خفيفة. . أتى الدفء إلىَّ من الداخل أضاءت النور بحجرتها. . سرير خشبى عليه ملاءة بيضاء نظيفة ومرتبة. . مائدة صغيرة وراديو صغير ودورق مياه ولقيمات معدة للعشاء. . ستارة بيضاء على نافذة مفتوحة تطل على ليل الحى العتيق بجوارها صورة لعصفور كناريا يقف على شجرة جائمة عن طريق يلوح بلا نهاية.

خلعت قميصها فبان صدرها الناهد. . أتي الحنين وجاءت سكة السروح فى الأيام الماضية من العمر المنقضى والتى لم تبرح مخيلتى أبدا. . تتفتح الزهرات ويتضوع النوار فى الربيع. . لم تكن النسوة والأطفال والرجال سعداء. . بينما جوادى الأشهب لا يكف عن الرمح فى فراغ الحقول. . سنبلات القمح فى غيطنا الموروث يحوطها هواء بئونة الحجر. . تتفتح الجروح التى لم تندمل يوما. . رياح العصر تدفع

إلى قلبى بالحنين. . لو أدرك الآن ما مضى. . لو أمسك بالشمس مرة ولم أفارق أيامى التى عشتها.

ـ تأكل؟.

ـ شبعان.

سقطت عيناى على كتفها وصدرها المستقر فى سوتيان الدنتلا البيضاء. . موانئ بعيدة ونوارس مجنحة وخلجان لأوطان مجهولة. . وحدى أعبث بحصى الماء، أندفع يائسا مقاوما تيار البحر، بينما موجه يلطم الصخر، ثم يعاود انحساره ليلطمه من جديد.

طفا الليل من النافذة المشرعة. . قبلت صدرى وعاودنى الحنين، كان حنينا عطوفا. . مرافئ الأمان وحدود الزمن المنقضى (لو يتوقف الزمن فى لحظته النهائية). . أرض الوطن جسد منطرح تحت ضوء القمر الغامر. . أشجار الشطآن الممتدة عبر الزمن يطوحها الريح بعد زخم الصحارى وأيام الهجرة.

قالت لى: خذنى الآن. . خذنى.

لكنه جاء. . لم يكن بشريا أول الأمر. . خرج كحشرجة ميت، استقامت نبراته ووضحت حروفه. . صوت بشرى يخرج من الكهف. . كهف الليلة الممطرة.

ـ ناديه. . أنت هنا؟

اندفعت واقفا، وأنا أصيح:

ـ بالشقة أحد؟!

خرجت من الحجرة إلى الصالة. . أضاءت النور وكانت تجلس

هناك . . على مرتبة مفروشة على أرض الصالة . . كومة قديمة من اللحم تنظر إلى لا شيء ، ويدها ممدودة على آخرها .

انفتحت بنفسى كل السراديب المخيفة بسجن (القلعة) واجتزت كل الأدوار الواطئة المتربة متخطيا كل الحيوانات الزاحفة تتلوى بجوار الجدران . . اندفعت خارجا من الباب . . صاحت بى :

ـ لا تتركنى ، ارجع يا مجنون ، إنها لا ترى وهى أمى .

انزلقت قدمى وهويت من بسطة السلم العليا إلى صحن الدار ، كانت النسوة لا تزال تتحلق حول النار ورءوسهن تتجه نحوى صامتة ، لم يكن هناك صوت فى اللحظة إلا صوت أقدامى . . كنت مندفعا فى أى ناحية تبدو مفتوحة أمامى . . كانت قدمى اليسرى قد أصيبت ، وربما كسرت . . تساندت على حائط وتمنيت أن يذهب الألم بكل مخاوفى . . خفت من الشرطى وتذكرت أننى لا أحمل بطاقتى الشخصية . . كانت أذنى قريبة من نافذة منخفضة وأتانى صوت ينتحب . . كان لشيخ عجوز وكان شبيهًا بصوت أفزعه الظلام ، وتذكرت أبى الشيخ ، والليل مدى هائل لا يريد أن ينتهى . . استلمت الشارع المؤدى إلى المحطة . . كان المطر قد توقف وشبورة خفيفة تسبح فوق الوحل ، بينما الألم فى قدمى حافر جواد يدب فوق لحم حى .

الميدان يستقبلنى بأنواره البرتقالية ، وأكشاكه مستسلمة لبرد الليلة . . كانت البنت تبكى وحدها والأم فاردة يدها فى النور الشحيح وكان الوشم أخضر على ذراعى باسمى وباسم موطنى وكانت الطيور مهاجرة وكنا نتكلم فى السياسة والفن وعن الوطن وكان مكتوبا على الحائط بلون أحمر ، يحيا الوطن ، الموت للأعداء ، وكانت تلوح مقهى (لا بورصا نوفا) فى جانب منها فترينة من زجاج معروض داخلها

لوحـات وتماثيل ووجـوه من كل لون وصنف . . أمـريكان ويهـود وفرنسيس وإنجليز . . ناس بكروش وناس صفـر مهزولين . . صالة مـزادات وقـرع أجـراس . . تماثيل للملائكة وتمائم وقـلادات فـرعـونيـة منهـوبة . . أثاثات بيوت الأغوات وتحف لمماليك . . وصف تراحيل على طرق المصارف فى عز شهر أمشير . . حيوانات محنطة داخل واجهة زجاجية . . بندقية صيد، وأفعى ملتف على عمود يطلق فحيحه فى الوهج المعادى . . عصفور ونسر ويمامة بعيون مفقوءة . . كلاب مدربة وصحارى تحتضن بقايا عظام بشرية . . كانت فترينة الصور كأرض الوطن، وكانت كل الصور ملونة وتحت الرؤية وكانت أعلى الصورة شمس باردة مخنوقة، وأناس كثيرون تخرج من الأزقة تحمل العلم المصرى . . وكنت أنا التعس المعذب . . أرقب صورة العذراء مريم بوجهها القمرى . . لها ابتسامة كابتسامة أمى . . شعاع يهبط من أعلى صورتها وهى لا تكف عن الابتسام . . وكنت أناجيها من وقفتى هذه . . أول النهار، آخر الحياة . . ولمعة خيوط النهار تسحب الناس إلى الشوارع .

«يا عدرا.. يا أم المسيح.. كيرياليسون.. يا رب ارحم،

كيرياليسون.. المجد لله فى الأعالى، وعلى الأرض العوض».

(القاهرة فى يناير ١٩٧٤)

قمر معلق فوق الماء

«إننى أحبك.. يا سيد الماضى»

مالك حداد

(١)

رويت شجر النخيل، ونظرت ما وراء النهر ولم أكن راغبا فى مفارقته . . أحزم وسطى بثوبى المبلل، وأرى قدمى ملوثتين بالطين والتراب . . هى أمى النحيلة بثوبها الأسود، واقفة على سلم الدار تنادينى : (عبد المولى . . تعالى يا ضنايا)، لما سمعت نداءها ركنت دلو الماء على ساق النخلة المائلة عبر النهر، وفككت حزامى فانطرح ثوبى المبلل . . غسلت قدمى ورششت وجهى بالماء ونظرت شمس الصباح المتوجة بالعصا والصولجان .

يجلس على حافة مقعد من خشب قديم، يرتدى جلبابا من الصوف المخطط بخطوط بيضاء، يليق بتاجر محترف . . تبرز من فتحته أزرار صديريته الصدفية التى تلمع فى ظلمة (المندرة) الخفيفة، زاول التجارة بالقرية زمنا، ولما امتلأ كيسه بالمال رحل إلى المدينة .

هو عمى الذى يربينى بعد أن مات أبى، وتركنى وأمى فى منتصف عمرها تكدح من طلوع الشمس حتى طلوع القمر .

انحنت أمي تشد لى خيط حذائى . . أرى طرحتها تسف التراب، وأرى متاعها مبعثرا فى حجرة المعاش . . أمشط شعرى بمشطها، تكلمنى محنية الظهر : (عمك هياخدك معاه ياضنايا، تطاوعه، وأنت مبقتش صغير . . هناك هتلاقى اللقمة الطرية والهدمة النظيفة . . ربنا يفتح عليك يا ابنى . . الأمانة يا عبد المولى، وأوعى تنسى أن عمك فاتح الدار) .

ربطت كمى ثوبى ودسست بداخله متاعى وملابسى . . كتاب الحكايا الصغير . . حصان من خشب بقوادم ثلاث وذيل مقطوع (نحلة) بخمسة ثقوب، كانت مشهورة بين أترابى بصفيرها وخيطها الملون . . مرآة صغيرة مشطوفة الحواف أرى فيها وجهى كل صباح، مشط مكسور الأسنان .

عندما سمعت أمى تقول : (أعمل لكم حاجة تخدوها يا حاج؟)، ورد عليها : (مفيش وقت)، ونهض وأخرج من جيبه نقودا ودسها فى يدها وقال لها : (خدى بالك من نفسك يا أمينة) وهى ردت عليه : (ربنا المنجى يا حاج) واستندت بيدها على الباب الموارب . . برمت ذيل ثوبى على متاعى وحملته على كتفى، ولما كنت أعرف أنها تبكى بعد أن تقول (ربنا المنجى) ؛ لذا سارعت بالخروج من الدار أسبق عمى، وسمعت نهنهتها وهى تقول خلفى : (مع السلامة يا عبد المولى، خد بالك من نفسك وطاوع عمك) !

مشيت أهز متاعى وأرى الشمس عبر النهر، يستقر فى قلبى بكاء أمى . . لحق بى عمى وجعلنا نمشى ونسمع خطواتنا تصدر صوتا ونحن نعبر الزقاق الضيق والمترب .

هى البلد أبتعد عنها، أنا ابن السنوات التسع تنقلنى من شط البلد

إلى شط المدينة مركب مشدودة إلى بكرة من حديد يدفعها جنزير له صليل ؛ حيث تستقر المدينة التى لم أزرها ، وعالم لم أدخل أبوابه السبعة بعد .

(٢)

شقة عمى لا تشبه بيتنا . . لها باب مغلق بضلفتين أعلاه جرس يصلصل فى الفراغ المحبوس . . تنسدل على النوافذ ستائر من قماش مزهر بزهور ملونة . . على الحيطان سور من الذكر الحكيم . . صورة لعمى شابا ، فقير الملابس والصحة . . أخرى بعد أن متعه الله بالثراء والعافية يلبس نفس النظارة البنية ويمشط شعره فى وجاهة التجار المستورين ، ويرى مستريح النفس داخل الزجاج اللامع والإطار المذهب . . فى الصالة كنبة من خشب . . على الأرض سجادة من صوف حائل . . اختفت رسومها وأزهارها تحت بقع الطعام والإدام ، حجرة لعمى وامرأته وأخرى لطفلتيه الصغيرتين . . حجرة بصالون قديم ، لها شباك صغير لا يفتح على الشارع . . عرفت لحظتها أن هذه الحجرة مثواى ، أنام على أرضها وحدى . . تحت رأسى وسادة من قطن كالحجر ، تغطينى بطانية رمادية ناسلة الخيوط .

وكنت فى ليال كثيرة أنام متأخرا ، بسبب تلك الأصوات التى أسمعها تأتينى من منور المنزل والتى كانت تختلط بضحكات شريرة قصيرة وتستمر حتى وقت متأخر من الليل وحتى أنام . . وكنت أنام كل ليلة وأنا خائف حتى تمنيت أن أعود إلى أمى ؛ حيث لم أكن أخاف .

(٣)

ألحقنى عمى بمدرسة تبعد عن المنزل . . وكنت أسير بشارع (الحنفى) عابرا سوق الثلاثاء إلى شارع (البستان)، وبسبب خوفى من أن أضيع ؛ علمت رءوس الشوارع والميادين بلافتات مكتوبة، ونافورة مياه، ومنتزه عام، وقسم للشرطة، وضريح لسيدى (المتولى) الذى يجاور مدرسة (محب) التى هى مدرستى، والتى كانت لها بوابة كبيرة خلفها جرس من نحاس معلق وكبير . . وكانت المدرسة لها حوش فيه زرع وأشجار عالية، محوطة بسور من الحديد المشغول بالحراب المدببة والمرسومة بزهرات ذات أفرع تتجه للشمس .

تعرفت برفقائى أولاد المدن، وكانوا خليطا فى مثل سنى . أشقياء وأذكياء، تجمعهم شراكة الفقر . . انزعجت أول الأمر ووقفت بجانب السور ؛ أخاف على بنطلونى الذى اشتراه لى عمى، وعلى كتبى وأخاف قلة تجربتى . . بعدها ألفت العيال وصاحبتهم، وكنت أسعد معهم طول اليوم .

فى مرات كثيرة كنت أعود إلى سكن عمى متأخرا، وكانت امرأة عمى تعنفنى، ولم تكن تعرف أننى أتأخر بسبب وقوفى أمام نافورة المياه، فى انتظار أن يضوى ماؤها بتلك الألوان البهيجة .

(٤)

وقفت أستدفئ بشمس الشتاء على الشرفة، أنظر إلى الشارع وأرى بهجة المدن فى صباح الإجازات . . خلق كثيرون . . هاهم فى الخارج . . تفتح الأبواب بنبض الصباح . . يبدءون عابسين، ثم

يدمدمون ويتضاحكون . . تعلقت عيناى بطائرات ورقية يطيرها الأولاد فى هواء الصباح، مشدودة إلى خيوط طويلة . . تمنيت أن أمتلك واحدة أطيرها فى الساحل على النهر بقريتى .

سمعت رنين الجرس . . خرجت من الشرفة مفارقا الشمس وطائرات الورق . . جاءنى صوت امرأة عمى : (شوف مين ياعبد المولى)، فتحت الباب فارتمى ظل البنت بشمس الشتاء داخل الشقة، قالت : (صباح الخير) . تلجمت ونظرت ناحيتها وسمعتها تضحك لارتباكى . . تنبهت ـ أنا الصبى القروى ـ وأجبت : (صباح النور)، قالت لى : (أم فاطمة موجودة) . . تناهى لى صوت امرأة عمى : (مين يا عبد المولى؟)، فقلت لها : (واحدة ست) . . تعالت ضحكتها مجلجلة، وخرجت امرأة عمى من المطبخ ورأتها فصاحت بدهشة مختلطة بشوق وحب قديمين : (مين! نبيلة . . والله زمان . . عاش مين شافك!) . . أخذتها امرأة عمى فى حضنها وقبلتها على خدها . . انسحبت وجلست على الكنبة فى الصالة، أرقب هذه البنت الحلوة التى تطرق بابنا فى الصباح الشتوى . . لعلها كانت فى العشرين من عمرها، تفوح منها رائحة طيبة، وجهها أبيض كاللبن الحليب، وخداها أحمران كالوردة .

من تكون البنت التى رأيت؟!

خفت . . وسمعت دق قلبى ومشيت ناحية الشرفة، لكن زوجة عمى نادت علىَّ : (تعالى يا عبد المولى، سلم على نبيلة . . دى جارتنا . . ساكنة تحت . . بنت الست أم فاروق، كانت مسافرة ورجعت) .

مددت كفى فضاعت فى كفها . . ضرب الدم وجهى وأطبقت هى

كفها بحنو زائد . . ارتعشت ورفعت عيني ؛ فتلاقتا بالعينين الزرقاوين وذلك الوجه المدور ذي الحاجبين المقوسين . . تذكرت امرأة ببلدي يسمونها : ذات العيون الزرق، وأنها من نسل أغراب بادوا، وأن كل البلد تحب النظر في عينيها التي في زرقة البحر . . قالت لي : (أزيك يا عبد المولى)، فقلت لها : (كويس)، ثم أخذت رأسي في حضنها . . جلسنا على الكنبة، أتأملها ـ أنا الصبي القروي ـ في ثوبها المنزلي المرسوم بأوراق الشجر وألمح من خلال باب الشرفة سربا من حمام يدور قبل أن يستقر على برجه .

تكرر لقائي معها، في مرة رأيتها عند باب شقتها فابتسمت لي وداعبت شعري . . مرة رأيتها أمام المنزل تشتري أغراضا . . حملت عني حقيبتي وقالت : (فينك يا عبد المولى . . محدش بيشوفك!)، وأعطتني كيسا من الحلوى . . وكنت أنزل عندهم حاملا أشياء ترسلني بها امرأة عمي، وكنت أطرق بابهم فأسمع كلمة حاضر فأعرف أنها بالداخل وأراها في المكان نفسه أمام مرآتها بملابس بيتية خفيفة تكشف عن نحرها، وجزء من أعلى ثدييها . . قبلتني مرة على جبهتي وسألتني : (مبسوط عند عمك؟! ابقى انزل عندنا)، ولما قلت لها إنني مبسوط لأنني بشوفك . . ابتسمت وخطت ناحية الشرفة، وأطلت منها، ثم عادت وضمتني إلى صدرها وقالت : (أنت حبيبي يا عبد المولى) ولما وجدتني في حضنها ؛ امتدت يدي وأمسكت ثديها فضحكت وابتعدت عني وقالت لي : (آه يا عفريت!) . . وكنت أنظر في عينيها وأسبح فيهما وأتذكر المرأة التي في بلدنا والتي من نسل أغراب بادوا، والذين لم أكن أعرف بلادهم وكانت كلما ضحكت أمامي كنت أعدو على شاطئ مزروع بالعشب وأشم رائحة الياسمين .

(٥)

لم يكن المساء قد أتى بعد.

عندما انتهت من زينتها، كنت قد انتهيت من تصفيف شعرى، وألقيت على نفسى نظرة أخيرة فى مرآتى مشطوفة الحواف.. خرجت من الشقة أعدو، ونظرت أسفل السلم وقلت لها: (حالا).. أعطتنى امرأة عمى قروشا عشرة، ونزلت أدرج على السلم بوجدان جياش.. رأيت سرب الحمام يطير؛ نشوان من فرط عشقه للبراح.. أتانا صوت امرأة عمى: (متتأخروش.. خدى بالك منه يا نبيلة).

رأيت المدينة ـ وأنا أسير بجانبها ـ كفى بكفها ـ جميلة، وشارع (سعد) مظللا بأشجار مزهرة.. رأيت نافورة المياه الملونة وبرج الساعة القديمة يدق قبل المساء والزجاج الملون لكنيسة (الآباء القديسين). وصلنا النهر ومشينا بمحاذاته، سرنا على الكوبرى القديم ورأيت زوارق صغيرة، يدفعها تيار هادئ، بينما الصيادون الفقراء يجلسون ساهمين ناظرين إلى الماء، والبنت تنظر لصدرها الناهد.

هذا ما كتب علىَّ أن أراه وأنا أسير معها.

قالت لى: (دى مدينة كبيرة، متقدرش تشوفها فى يوم).

دخلت بيتا قديما، له حديقة وسلالم من رخام، وفسقية مياه معطلة تحوطها نباتات مهملة.. فى الجانب الآخر تكعيبة عنب وبعض أصص الورد المركونة بجوار سور الحديقة.. سألتها: (أحنا رايحين فين؟) فردت علىَّ: (هانزور واحدة صاحبتى) ولما قلت لها: (لكن أنا

معرفهاش) ضحكت منى وجذبتنى من يدى وقالت لى: (دول ناس ظراف خالص).

انفتح الباب على صالة مكدسة بالأثاث، قابلتنا صاحبتها التى اسمها (منال) ودخلنا حجرة جلوس دافئة ورأيت أرضية الحجرة وكانت من خشب لامع، وفوق الطاولة ينام مسترخيا قط أسود يدفس رأسه بين يديه، تتحرك عيناه الصفراوان المليئتان بالأسرار ببطء وكسل.

مشت (منال) حتى واجهتنى ونظرت إلىَّ مبتسمة، ثم حولت رأسها ناحية (نبيلة) متسائلة.. قالت لها (نبيلة).. (عبد المولى، اكتشافى الأخير).. خطت ناحيتها وقالت بصوت عذب: (حبيب قلبى عبد المولى).

سخن وجهى وطأطأت رأسى.. اقتربت منى صاحبتها وقالت لى: (أنت بقى عبد المولى، حبيب القلب) وقلت لها: (آه) فانفجرتا فى ضحك صاخب، وقبلتنى (نبيلة) فى خدى.

لم أكن حزينا، وكنت أدرك برغبة حميمة وصاعدة تلك المشاعر الجياشة التى تموج بقلبى الصغير.

شربت كوب العصير، ورأيت أمى تجلس على عتبة الدار وحدها كأنها تغنى ذلك الغناء الذى كان يفرحنى.. أفقت على صوت (نبيلة) وهى تقول: (لو أعرف أخرتها معاه.. كل ما أقول له يتقدم لبابا يتحجج بالظروف)، ردت عليها (منال): (أنت بتشوفيه؟ (فقالت لها) (كل يوم تقريبا)، ورأيتها تضغط منديلها ويكتسى وجهها بحزن مفاجئ، فيما كان القط تستفزه فراشة محلقة.. كانت تمسح وجهها..

هل كانت تبكى؟ . . . وكنت أراها وقد اكتأبت وأحاطت كتفها ذراع (منال) وهى تقول لها: (لازم تحسموا الأمر، علاقتكم طالت والناس مبترحمش).

عرفت أنهما يتكلمان عن الأستاذ (محمد) مدرس الحساب الذى يسكن أمامنا. . لا أعرف لماذا خفت وأنا أتطلع إلى اللوحة المعلقة على الجدار.

كانت لعشب يحترق، وكأننى أشم رائحة النار، وفى آخر اللوحة وقفت امرأة لا تبتسم.

هل كانت أمى؟ . . أم أنها (نبيلة) التى أعرف؟!

(٦)

عندما سأراها فى الصباح سأنظر فى عينيها وسوف أبتسم. . سوف أحتفظ بيدها ولن ترى الخوف فى عينى. . تقلبت على جنبى ورأيت كراسى حجرة الصالون تغرق فى الصمت والوحدة. . أضأت النور وفتحت كتاب الحكايا. . أحبك أيتها البنت الكبيرة بعينيك الزرقاوين. . رأيتنى أصعد ربوة عالية تسوخ منى قدماى فى رملها الأبيض. . على يمينى منازل قروية مفتوحة الأبواب يجلس أصحابها أمامها، ينظرون ناحيتى مبتسمين. . على يسارى سهل من عشب، رأيتها وكانت تجلس بين السهل والناس المبتسمين.

(٧)

رتبت حقيبتى وتناولت فطورى، وساعدت امرأة عمى فى ترتيب

الشقة . . هبطت الدرجات ووجدتها واقفة أمام الباب تنتظرنى، صبحت على وقالت لى : (عبد المولى . . تعرف الأستاذ محمد مدرس الحساب؟) قلت : (آه) قالت لى : (سلمه الجواب ده)، أخذته وتحركت فأمسكت بذراعى وقالت لى : (أوعى حد يشوفك) . . أخذت الخطاب الملون ودق قلبى، خرجت من الباب وتعثرت فى حجر . . فى المساء أعطانى الأستاذ (محمد) رسالة لها . . لاحظت بعد أن أخذتها منى أنها كانت سعيدة ولأول مرة تقبلنى فى فمى .

نمت وحلمت أنى أخلع أسنانى وأرى وجهى فى المرآة كريها، خفت وفزعت فسمعت الناس الشريرين يضحكون .

(٨)

استأذنت من عمى أن أبيت معها، قالت له : (إن أمها مسافرة عند خالتها وأن والدها يشتغل وردية الليل وأنها تخاف وحدها) ابتسمت لعمى فوافق وأمرنى أن أبيت معها . . لما لم يجدنى متحمسا قال لها (ماله . . أنت مزعلاه يا نبيلة؟!) ردت عليه بحماس : (هو أنا أقدر يا عمى)، ضحكت وخرجت من باب السكة .

وأنا أهبط السلم كانت المدينة تندس فى الليل وتتجرد من وقارها وكنت أسمع أصوات الناس تأتى من المقاهى المفتوحة . . السلم بعد منتصف الليل حفرة فى الظلام . . أقف على حافته وكأننى سأهوى إلى بئره . . شقة الأستاذ (عدلى) مطفأة بعد أن سافر للصعيد . . أخطو نازلا السلم أتحسس خطاى .

قبل أن أضغط جرس الباب؛ انفتح . . وجاءنى عطرها غامضا وعندما رأيتها؛ كانت تقف بالباب ترتدى بشكيرا وتلف رأسها بفوطة على شكل عمامة . . قالت : (ادخل يا عبد المولى) ودخلت وكنت أرغب فى الدخول . . أشم أشياء الشقة التى آلفها وأعرفها . . ورغم خوفى إلا أننى أشعر بأن ما أنا فيه طيب وجميل .

تجلس جلستها المعتادة أمام المرآة، تجفف شعرها الأثيث، المبلول بينما تبدو ركبتها فى ضوء الصالة لامعة . . أراها قريبة من روحى، أمد رجلى وأضع يدى على طاولة عليها تليفزيون مقفل وزهرية صناعية .

غابت لحظة، وعادت وقد غيرت البشكير بمئزر أخف، وتركت شعرها حرا كعرف مهرة . . قالت لى : (تشرب حاجة) قلت لها أشرب .

عادت تحمل كوب العصير وعادت بعطر مخالف، قالت لى : (إنها تعتبرنى مثل أخيها وإنها تحبنى،) ووضعت يدها على كتفى . . قامت ودخلت غرفة النوم . . كان الباب مواربا، فى اللحظة التى رأتنى فتحت مئزرها فرأيت ما لا يرى . . هى ابتسمت وأنا ارتبكت . . قالت : (ادخل يا عبد المولى) .

أخطو الآن عابرا سبيل النور . . هى فى منتصف الحجرة وأنا أواجهها . . أدرك بحس الطفل ما أنا مقدم عليه . . جذبتنى ناحيتها فانغرزت فى دفء اللحم الحى . . تنغرز أظافرها الملونة فى جسدى الصغير المراوغ . . تركت نفسى لصدرها الثرى .

نمنا معًا فى السرير، أنا فى حضنها تتقلب فوقى وجسدها يتحلحل عن مجون مدرب . . أغلقت عينى فقبلتنى، بينما أشعر بجسدها

العارى يلتهب . . ماتت عندى إرادة الدفاع واستسلمت . . شعرت بأننى أذوب مع شهقاتها وتطاول جسدها . . لا يستطيع أحد أن يفلتنى منها الآن .

صفرت أذناى بدق أجراس كنيسة (الآباء القديسين) وأنا أعدو على النهر الذى لم يجف بعد . . وعلى بطنها رأيت زهرات جبلية تزهر ، وعلى ثدييها براعم صغيرة كأنها تحبو ، وأنا أحدق فى وجهها مستسلما .

(٩)

انتهى أسبوع لم أرها فيه . . لا أمام الباب ولا حتى فى الشرفة ولا صدفة فى الشارع . . أجمع أعذارى وأهبط سائلا عنها فتخرج لى أمها وأعود صاعدا خائب الرجاء . . سألنى عمى : (مالك؟) فلم أجبه ، فسأل امرأته فقالت : (إنها لا تعرف) .

فى العصر رأيتها تقف تحتى ولا ترانى ، ترمى بجذعها على السور تشير بيدها ناحية الأستاذ (محمد) . . رأيته يجلس أمام مكتبه فاردا رجله . . وقميصه مفتوحا على صدر ملىء بالعشب ، تستقر عليه سلسلة من الذهب على شكل قلب . . فهمت معنى الإشارات واللغة المبهمة المرسلة عبر الدم والمسافات .

فى الليل . . آخر الليل ؛ حيث كنت أقف كل ليلة ، رأيتها هناك . . تمرق عبر ممشى من أمام النافذة المضاءة التى أطاحت بستارتها نسمة مفاجئة وكانت فى شقته .

(١٠)

جربت أن أكون عاقلا . . .

لجأت للصلاة أباشرها جماعة . . أذهب للمسجد القريب ؛ لأختفى فى ضوئه الشحيح . . ألبد فى أحد الأركان وأرى الصور الملونة لآيات الذكر الحكيم . . وأسمع ترتيل المنشدين .

لم تذهب الصلاة وجع قلبى فهجرت المسجد وضعت فى شوارع الحى ؛ أخرج من زقاق مسدود لأدخل فى آخر .

كأننى عندما رأيتها من النافذة فى حضن الأستاذ (محمد) تلبس ذلك القميص الملون بالنار ، كنت قد احترقت .

على يمينى تجارة عمى وأمامى منحدر يقود لصهريج المياه ، بلاطات قلقة معجونة بالطين . . بيت خرب مأوى للوطاويط . . أكوام زبالة يلعب عليها عيال الفقراء .

أرى (السرجة) بحجر الطاحون تنشع السيرج ذا القوام اللزج ، على بابها لافتة وسخة ، أسمع صوت طحن السمسم تحت حجر الرحى الدوار .

فى العصر كانت عنده . . رأيتها ؛ فعرفت أنها قيلت بشقته . . ضربنى دمى وهوى قلبى فدسته . . خرجت من باب الشقة ورأيت على الجدار ديكة تتعارك . . تتبادل ضربات المناقير بوحشية .

هبطت السلم باندفاع اليائسين . . جمعت من جنب جدار البيت أحجارا من الطوب والصخر والظلط . . ملأت حجرى وصعدت لاهث النفس .

رميت أول حجر على زجاج شباكها المطل على السلم فهوى شلال الزجاج على البسطة الكبيرة متكسرا فى شنشنة مروعة . . بعده هوت شراعة الباب الزجاجية . . تلاحقت الأحجار أرميها داخل الشقة وأسمع صوت التهشيم يتتابع .

خرجت أمها ، ونزلت زوجة عمى ، وصعد الناس الشريرون من المنور وكنت أرى الاندهاش فى عيونهم ولم يكونوا يضحكون ، قيدونى . . يدى خلف ظهرى . . مستحما فى عرقى . . صاحت أمها : (نادوا لعمه) . . حضر عمى لاهثا . . رأى السلم المغطى بالزجاج ، وسمع لغط الناس . . ضربنى بظهر يده ، ثم تتابعت ضرباته ، وصفرت أذناى . . سمعت صوت صفير القطار . . أركبه وأرحل . . أدخل فى ظلمة . . مسحت فمى بظهر يدى . فرأيت دمى يسيل ، وكان عمى يضربنى وأنا أرى النباتات الشوكية تنبت فى بطون الجسور ، تنطمس شموسها الصغيرة ؛ حيث أرى أمى قادمة بثوبها الأسود وطرحتها الحائلة . . أرى عودها الناحل عبر منحنى النهر تريد أن تأخذنى وأريد حضنها .

جمع لى عمى متاعى فى شنطة من ورق مكتوب عليها (محلات قاصد كريم) . . غسلت لى امرأة عمى دمى وبكت من أجلى . . سرت خلف عمى وأنا أسمع همهمته . . عندما حاذيت شقتها رأيتها تقف خلف الزجاج المكسور دامعة .

ودعت شارع (سعد) ونافورة المياه ومسجد (المتولى) وتجارة عمى وسرب الحمام وكنيسة (الآباء القديسين) ، قلت فى نفسى : (هذا محزن ويمكنك الآن أن تبكى) ، وبكيت .

سلمنى عمى لأهل بلدى عند موقف السيارات . . رأيتهم يجلسون

على الأرض فى غبشة أول الليل . . يتجمعون حول مقاطفهم وأمتعتهم الفقيرة . . عرفتهم وعرفونى واندسست بينهم ، وكنت لا أزال أبكى .

هل كانت المركب وسط النهر؟

هل تركت شط المدينة إلى الشط الآخر؟

هو الليل إذن . . أراه ولم أكن أحلم . . أسمع صوت صليل الجنزير وقعقعة بكرة الحديد .

(أراه الآن معلقا فوق الماء) .

هو القمر .

يخرج من خلف كثبان السحب الطافية ويقترب منى ، بوجه مخنوق ملىء بالندوب والجزازات ـ وأنا ـ أفارق المركب صاعداً إليه ـ حيث هو ـ أمد يدى أمسح عن وجهه ندوبه وجزازاته .

سدْرة المنتهى

ثلاثة مقاطع على مقام زمان

«سدرة المنتهى» : (يقولون إنها شجرة من نبق، ينتهى عندها علم الخلائق، ولا يعلم أحد من البشر ما وراءها).

المقطع الأول: شجرة وجنيَّة

وتجاوزتُ الساعة التى فى الميدان، وعندما تأملتُ عقاربها الحمراء ألفيتها قد فارقت منتصف الليل بزمان، وحينئذ دقت أجراسها النحاس فذكرتنى بأن ما انقضى كثير، وأن العودة بعد كل تلك السنوات تعنى، آخر المطاف: الرجوع للدار الأولى، وللآباء الأولين.

قطعتُ شارع «الحنفى»، ولاحظتُ فى الميدان شيخًا أعمى يجلس فى منتزه على مقعد من الخشب، يتلو فى الليل وحده بعض أوراده.

اتجهتُ ناحية كشك السجائر السهران. مصباح من «النيون» ينير واجهة الكشك، وبرطمانات الحلوى، والصناديق الصغيرة التى تحوى قطعًا مفضضة، وسورة من الذكر الحكيم معلقة تبرق حروفها المذهبة فى ضوء النور المخنوق بحيز الخشب الضيق؛ حيث يجلس بداخله صاحبه يقاوم نعاسه.

ـ «بكت» دخان .

ـ نعم؟!

ـ سجاير .

ألقى بالعلبة أمامى ففتحتها وأشعلتُ واحدة .

ـ هو موقف أتوبيس «كفر حجازى» انتقل؟

ـ من زمان .

وصمت لحظة، تأملتُ فيها عينيه الجاحظتين، وفمه الواسع، وملامحه السمراء. كان يرتدى معطفًا ناحلاً من الصوف القديم، له ياقة عريضة مرفوعة إلى رقبته التى يلف حولها كوفية قاتمة .

قال : الأتوبيس آخر مواعيده نصف الليل، خد لك تاكسى .

عندما أعطيته ظهرى توقفتُ لحظة على حافة الرصيف . هبتْ ريح باردة فأثارت دوامات من الغبار، وعندما قرأت لافتة باهتة، كنت كثيراً ما أقرؤها بعدُ وأنا صغير عن جماعة «الإخوة الروحانيين»؛ ضرب قلبى الحنين، وأدركتُ أننى أعود بعد تلك السنين، وأننى فى كل الأحوال لم أعد أنا ذلك الشخص الذى كنته، والذى غادر من زمان .

سمعتُ الرجل يهتف بى :

ـ الوقت تأخر . . والظاهر أنك غريب . . وطريق « الكفر» بالليل كله مخاطر . . ميّل هذه الليلة فى لوكاندة، والصباح رباح .

ابتسمتُ وتطلعتُ ناحيته، وسمعنى أقول : «ربنا يسهل . أصل أنا لازم أروّح»، ولمحته يضع رأسه على ذراعه وينام .

خطوتُ إلى نهر الشارع الخالى «كم سرت فيه مكروش النفس، تبحث عن ملاذ».

صحت مرفوع اليد: تاكسى.

توقف التاكسى أمامى، وبرز من فتحته رأس صغير، تأملنى لحظة، ثم قال: أفندم؟

ـ عاوز أروح «كفر حجازى».

ـ آه؟

ـ «كفر حجازى».

ـ الوقت؟!

ـ طبعا.

ـ حد قال لك إننى مستغن عن عمرى!

اندهشتُ من رده وسمعته وهو يضغط على دوّاسة السرعة، يصيح:

ـ «كفر حجازى» قال.. وفى أنصاص الليالى.. هذه سكة تربط القرد فيها يقطع.

وانفلت كاحتًا الأرض بإطارات سيارته، فأحدث فى الليل صرخة.

سرتُ فى الشارع المشجر بصفين من شجر الكافور. كان الطقس خريفيًا باردًا، والنور ينعكس على أرض الشارع القلقة دوائر من الضوء السيّال، وبدا «أفيش» سينما «نادر» المحمول على قوائم من الحديد مرسومًا بأشباح البحيرة، حيًا، ومرعبًا.

خلفتُ المدينة خلفى، ووجدتنى أنحدر عبر جسر النهر الذى يقود للمركب التى تربط البلد بالمدينة، ما إن ساخت قدمى فى الرمل حتى همستُ لنفسى: «لافكاك.. المصيدة».

ووجدتنى بغير إرادة منى، أعود عبر الليل الذى لم يعد محايداً، والذى فاجأنى بالظلام الذى حمل إلي اليمامة المضروبة الجناح، وحكايا جَدتى التى كانت تتلوها على سطح فرننا القديم عن الجان، وباسم الله، أهل تحت الأرض.

ودفع الليل بالطفل المبتهج فى كل أحواله، الذى يدخل على أمه التى كانت تجلس أمام «ماعون» العجين تعجن خبزة الدار، يسمع صوت اللت كقرع الطبل، يقترب منها فارداً كفه طالبًا مصروفه، تنظر ناحيته وتقول.. «للسيما طبعًا.. آه يا خائب يا خسران!».. ثم ترفع يدها اليمنى، فيدس يده فى «سيالتها» ويخطف «البريزة» ويفر، ما إن يصل حتى العتبة إلا ويسمعها تقول: «حاذر النبقة، فى الليل»، يسألها.. «ثانى يا أمى».. فترد عليه: «قلت لك ألف مرة: فى النهر، فى الغويط، تسكن ملكة الجان التى تصعد فى الليل حتى الربوة، وفى زهوة القمر تمشط شعرها وتغنى: «عروسة يا عريس»، تنتظر العائدين فتسحرهم وتأخذهم إلى القاع.. فى الغويط».

وكنتُ أخاف، وأتردد، لكننى من فرط عشقى للصور الملونة؛ لم يكن يمنعنى ألف عفريت، وألف جنيّة؛ لذا أندفع إلى حجرتى أغيّر ثوبى «الزفير»، وأنتعل حذائى، وأدس طعامى فى جيبى وأروح للسينما؛ حيث تسرقنى الصور فيفلت منى وقتى وأضيع، ولا أنهض إلا بعد أن تُضاء المصابيح، فأندفع من الباب فأرى المدينة وقد شح نورها، وطفت الظلال على الجدران وأتذكر «النبقة» وملكة الجان،

ويتكاثف خوفى عندما أسمعنى أقول: «مصيبة لو تكون المركب فى البر الثانى».

والمركب بجنزير، مشدودة إلى بكرة من الحديد، وصاحبها الريس «ونيس»، الذى كنت أحبه كأبى، والذى كنت أناديه من بر المركز: «ياريس ونيس، عاوز أروّح»، وأراه ينهض ببدنه النحيل، الطويل، يشد الجنزير فأسمع صلصلة الحديد، وأسمعه يغنى بصوته العميق، يرنّ على الماء، قادمًا ناحيتى: «هو أنت؟! طيب لما أشوف أخرتها معك».. ويسرى الصوت فى الليل فيختلط علىّ الأمر، وأظن من رعبى أنه استحال إلى أشخاص عديدين يباشرون الغناء، وكنت أقبض على قلبى عندما أرى خياله تطوحه الريح، التى تطوح نار «ركية» النار، فإذا ما قفزت إلى المركب؛ يدفس «كوز» الشاى ويجلس تحت المظلة المقامة على السطح، يزكى النار التى كنت أراها من بعيد على الماء فأقول مع رعبى: «يأتنس بالنار والماء»، وكان ينظر ناحيتى بوجهه البنى النحيل، ويدخن سيجارته بوقار ويتأملنى، وأنا مكوّم بجانب الدفة، داخل فى بعضى من خوف الطريق، فيما يبدو أنفه كمسمار، وعيناه براقتان بالوهج.

وأسمعه يمص شفتيه ويقول لى:

ـ أنت يا ولد، يا بخة العفاريت، لن تعقل أبدًا، وأخرتها معك؟! كل جمعة لك حكاية؟!

ـ آخر مرة يا ريس «ونيس»

ـ اسْمَع يا فسدان، أعرف أن برأسك عشًا للنحل والدبابير، وأنك

خلاف عيال البلد؛ دماغك ملآنة بأشياء لا أعرفها، لكنك سوف تندم . . التأخير حتى أنصاص الليالى خطر على عيّل فى عمرك .

ـ تقصد «النبقة» و«الجنية» يا ريس «ونيس»؟!

ـ طبعًا .

ـ والتى تغنى «عروسة يا عريس» .

ـ وتغوى الناس بالطبل والمزامير وتأخذهم حتى الغور .

ـ لكننى لم أرها أبدًا، يا ريس «ونيس» .

ـ محظوظ، مسيرك تراها وينقطع خلفك . . اعْرَف أنها الشهر الماضى لهفت «حمدان الغريب»، وسمرته فى «النبقة»، وجلست تمشط شعرها وتتأمل النهر، وساعة ما شاف «حمدان» أنها تتلفع بثدييها؛ اندفع يرضع من لبنها، ويطلب السماح، ساعتها قالت له : ما دام شربت من لبنى تحرم علىّ روحك، وأطلقته، ولولا هذا، لراح فى شربة ماء .

خفتُ لما سمعتُ حكاية «حمدان»، ودفعتُ بالدفة فى الناحية الخطأ، فيما نظر ناحيتى الريس «ونيس»، وقال :

ـ وأنت بإذن واحد أحد، سيكون مصيرك هكذا، سوف تعكمك الجنية وتدق عضوك فى «النبقة»، وتخصيك كالجدى .

لما رأى خوفى ضحك، وخرج القمر من كتمة السحاب، ورأيت بر البلد يقترب، فقفزت إليه وأنا أقول للريس «ونيس» :

ـ متشكرين يا ريس «ونيس»، مرة تفوت ولا حد يموت، وسلم لى على العفريتة!

ضحكتُ أنا نفسى، واندهشتُ من أفكارى التى تتشبث بالذكريات القديمة، واندهشتُ؛ لأنها لا تزال حية.

انحرفتُ ناحية اليسار ورأيتُ كثبان الرمل، وقمائن الطوب، وسبيل الماء تحت صفصافة قريبة من النهر.

قلت: فرق بين أن تحلم، وبين أن تستدعى ما فات. وقلتُ أيضًا: تعود بعد هذه الغيبة بما عرفت.. ما الذى عرفت؟!

وتجلّت «النبقة» القديمة على النهر، تمد فروعها على الطريق، مسكونة بالظل والظلام. وكنتُ إذا ما وصلتها وأنا صغير أرتعش وتصطك أسنانى، وأضرب بيدى الهواء، ولا أنظر ناحيتها، أضع ذيل ثوبى بين أسنانى وأقول «يا فكيك»، تلوشنى المخاوف كأفعى، غايتى أن أفر من هلع المكان.

وعندما اقتربتُ؛ هبتْ الريح على غير ما توقع، وعلى نحو فجائى، فقلت: «غريبة!»، وتنشقتُ رائحة عطر؛ فتنبهتْ حواسى وتساءلتُ: «من أين يهب العطر؟!»، ودفعنى شىء لا أعرفه للنظر إلى الرابية، لحظتها وقف شعرى، ومست بدنى الكهرباء.

كانتْ ملكة الجان - التى أخبرنى عنها الريس «ونيس»، والتى قصت على أمى حكايتها ألف مرة - تتجسد بكامل هيئتها من غير ما وهم، من غير أية أكذوبة من أكاذيب الخيال، تتلفع بثدييها الهائلين، وتمشط شعرها الطويل، كليل، يجلجل صوتها بالغناء: «عروسة يا عريس»، فيما أقفُ أنا، فاغرًا فمى من الدهشة كالمهابيل، عاجزًا عن فهم ما أرى.

المقطع الثانى: صيّاد الرمال

على النهر فى زاوية على الشاطئ رجل يترنح ؛ يقف بين المقهى الطين، وذكر التوت القديم، يسند قدمه إلى الصخرة الجاثمة ويتأمل الماء ولا يبتسم، يدخن سيجارته بغير لهفة منتظراً أن يعبر ؛ حيث مكان مولده.

قال لنفسه: كيف سرت على الجسر كل هذا الوقت؟ تتأمل حواليك غير مصدق، كأنك شبح يطل من ذاكرة قديمة، تعود برغبة أن تصل ما انقطع، دليلك فى الليل النار الموقدة.

صخرة جاثمة على الشط، بين الماء وبينه، وشق من الخراب يضرب جدار المقهى من أعلاه إلى أسفله.

نادى: يا ريس «ونيس»!

خرج صوته العميق عابراً بالصدى كل تلك السنين، وكأنها حدثت أمس: يا ريس «ونيس».

يود أن يعرف. أن يمسك بأول لمعة للنهار تأتى من ناحية الشرق. أن يجلس على القنطرة التى تفصل البلد عن الغيطان. يطل من فوق برج الدوّار؛ ليرى رواق أجداده؛ حيث كانوا يتحلقون حول صنيّة العشاء النحاس.

- يا ريس «ونيس»!

صدى الصوت على الماء كالجرس، والنار القديمة مطفأة، وفى البر الثانى لا حسّ ولا خبر.

- يا ريس «ونيس»، عاوز أروّح!

وعاد بظهره وجلس على الصخرة الجاثمة.

رأى من فرجة باب المقهى نوراً يعلو، وثمة حركة، وهمهمة تأتيان من الداخل.

انفتح باب الضلفة الواحدة، ورمى ضوء المصباح نمرة عشرة، خيال امرأة على الأرض.

راح يتأمل حوائط المقهى الذى يعرفه: رفان من خشب كالح، عليهما أغراض فقيرة، وثمة نصبة فوقها «باجور» جاز، وبراد كبير بلا غطاء أعلى الموقد، وأكواب كابية، مطموسة، فى صفين، وعلى الأرض ثمة فراش من خيش، ووسادة لامعة بالوسخ، وغطاء مكوم بعد أن فارقه البدن.

تساءلت المرأة: إنت بتنادى على مين يا خويا؟!

كأنه يعرف الصوت، تلك النبرة المطمئنة، الناعسة. وجعل النهر يجرى لمستقره، تتسع دوائره كلما صعدت أسماكه لترى النجوم، وهبتْ من البلد رائحة، فحاول أن يعرفها لكنه لم يفلح.

أجاب: بنادى على الريس «ونيس».

ـ «ونيس»؟! لهو أنت غريب؟ مش من البلد دى؟!

ـ لأ. أنا من هنا.

ـ من هنا؟! هو أنت ابن مين يا خويا؟

ـ أنا من عيلة «البدروة»، أنا «رمزى».

ـ «رمزى»! ابن «أمينة». ازيك يا «رمزى»؟ دا أنت يا حبة عينى

بقالك زمان مجتش البلد دى . أنت مش عرفنى ، أنا خالتك «أفراج» امرأة عمك «إبراهيم المنسى» .

ـ ازيك يا خالة «أفراج» ، وازى حالك؟!

خطتْ من عند العتبة .

(وجاء ظلها ناحية ظلى ، واقتسما بقعة النور ، ثم اختلطا ، وعندما تأملتُها ؛ قلتُ : «ياربى! كم شاخت» ، وأدركتُ أنها بوجهها المجعد ، وعينيها الكليلتين ، دلالة حية على أن ما انقضى كثير ، وأن الماضى لا يزال حاضراً بصورة مروعة من الصور) .

وشعر برعدة فى بدنه عندما قالت له :

ـ الريس «ونيس» تعيش أنت . . مات من زمان ، وشبع موت ، يجعل حسك بالدنيا .

اختلج ضوء المصباح عندما تسللت له الريح من شق الخراب ، وصرخ فى العلى طائر الليل الراحل ، معلقًا بين السماء والأرض بصوت التسابيح .

ـ مات . . ماتوا؟!

ـ من زمان ، إنت بتنادى على الميتين .

ـ والمركب؟!

ـ خلاص ، راحت عليها! تيجى البر ده ، مرة ولا مرتين فى اليوم البركة فى العجل ، فى الميكروباص .

تمتم : وكل ما شاهدته ، الليلة تكتشف ما ظننته ـ منذ كنت صغيراً ـ خرافة ، وها هو الريس «ونيس» يفارق من غير وداع ، حتى المركب . .

قالت له: أنت بتكلم نفسك يا «رمزى»؟!

ـ أبدًا.

قالت: طيب ما تيجى تميّل لك هنا حبة، والصباح رباح. يا ما نمت هنا يا «رمزى» وأنت صغير. ابتسم بمرارة: متشكرين يا خالة «أفراج»، أنا هرجع من سكة الكوبرى.

ـ ده مشوار عليك، والدنيا ليّلَت.

وعندما أغلقتْ بابها حل الظلام وارتعش، فخاف من تلك الليلة الطويلة.

كان يائسا، فمضى ناحية المصلية الصغيرة خلف المقهى، جلس على الحصير السمار؛ يتأمل سور الكافور، ويرى دغل الصفصاف على الشاطئ. نهض يهبط درج المصلية الحجر الذى يقود للماء، وظل يهبط حتى وصل إلى خاصرته، فجلس بهدمته على الحجر يضرب النهر بكفيه فيحدث صوتًا شبيهًا بجَلْد السياط، تترى من أمام عينيه مواكب الرجال، يمضون بلا ذاكرة، بينما تنتفض بداخله فصول كأنها تحمل خلاياه.

ودَّ لو يبكى؛ فبكى بلا عزاء.

ارتفع غناء صياد من على النهر محملاً بالشجن والرمال، يسمع مجاديفه الرتيبة تروح، خيل إليه كأنه يكتشف حقيقته الأولى.

كان يجلس على الحجر، يتأمل الماء الذى يخترق قلبه، ومن ثم ذاكرته.

المقطع الثالث: المصير

وجعلتُ أتجاوز السور فثبت قدمى فى التراب الندي وقبضت بمخالبى أعلاه، لكننى هويت بعجزى فى الناحية الأخرى للخراب وتلطخت بسنينى التى أمضيتها بلا بهجة كالمفارق، لا أنسى وجه الصبى الذى وسموه عبدًا، والذى كنت تعرفه وتتحسس حظوظه المتقاطعة كالمصير، وترى فى انطفاء العين لمعانها القديم فلا تعرف هل كنت هنا أو تم ذلك عندما اختفيت وحدك، ودخلت باحثًا عن مصيرك من السور على حديقة الخريف، باحثًا عن ثوب يستر عورتك، تجتاز كل تلك المنازل العتيقة وقنطرة الخشب والنهر، مخلفًا الهوام الطائرة التى تدور فى خلودها داخل دائرة من النور الأصفر طول حياتها إلى موتها؛ حيث نورته عين الشمس، تخاف أنت وأخاف أنا من ظلمة السدرة فى الليل والنهار، ومن نسل الملكة تحت فروعها الممدودة حتى الماء، وثمرها لأهل السكك الجوعى الفقراء، رعاة القطعان الفارين من تجلى الملكة التى تقطن بمباركة الرب سابع أرض والتى توسدت وأنا صغير لبنها محاولاً فى اليوم الثلاثين لآخر شهور الفيضان رضعه فى اليوم الذى دخل فيه الإله أفقه، وأنتظر عندما خطوت خائفًا حاملاً نفسى التى أحيا بها والتى أحاول أن أسرقها من طلوع الشمس ومجىء القمر، جاعلاً من إدراكى مطيتى وأن ما ضاع منى يمكن استعادته وأن بداية الأشياء الفصول لا يعنى انتهاؤها، بل إنها الأمنيات المستحيلة التى أراها عبر نور الفانوس على الماء، والذى أطل من خلاله على أحلامى المستحيلة مقاومًا أن أهيل عليها التراب وأترنم بالورد الحافظ وصفحة الكتاب الأصفر والمتن بخط اليد والأحبار الزرقاء المطموسة، حاملة الحكاية الخرافة وبيت الشعر المقتول، المدفون فى البهو المزين الجدران، والذى دخلته بإرادتك؛ فرأيت الجدران المزينة بالزخرف

والآية وحكمة الماضى والسقف الإنطاكى تتدلى منه تحف الهند والأندلس وعلى أرضه فرش الزرع من بلاد العجم مزخرفًا بالنجوم المثمنة وأوراق النبات الملونة والحراب المشرعة والشموس الحمراء والجدار صاحب الفتحات المفضية إلى السور المسور بالساسبان والداتورة وسنابل الحنطة فى وقت حصادها واللوزات الخضرات وشتلات الياسمين والثمرات زاحفة على الأرض مقطرة بالعسل تقاوم فناءها، حيث الحراب مشرعة ناحية الماء، ناحية الفتوح الأولى التى من سماتها الموت والشهادة؛ حيث ألقيت صديريتى على العتبة ودخلت إلى البهو العظيم فانتظمت دقات قلبى من الرعب، وفزعت عندما سمعت دق الأجراس، أقاوم أن يمحونى المكان ويحولنى تمثالاً بين الأعمدة التليدة وأروقة الماضى الحى، أحاول أن أقتنص لحظة الزمن الهاربة والمقضى عليها بالزوال فتنسحب من أمامى؛ ليتعرى منى جسدى فى رحلة بحثى عن أسطورتى - حياتى - التى واكبت منذ القديم خطوى يتسابق مع سنواتى المانعة للبقاء والمحاطة بالموتى الذين طرقت أبوابهم فلم يردوا، يحملون عبر نهر الموت داخل توابيت مكللة بالفجيعة التى تستغرقنى وتدفعنى لتأمل دار جدى القديمة؛ حيث بنى حولها أشجاره وزرع فى باحتها ضريحه وبئر مائه، التى ألقيت بداخله عملة الفضة وسمعت رنينها فى أعماقه وطرحت أول أسئلتى عن الوقت وعن زمان العيش وعن الفوات وعن الرحيل، فشق الغجرى صدرى وأخرج قلبى وغسله بماء الورد وطهره بالبخور، فتقاسمت معه رغيف الشمس المعجون دهشة، وتركته ومشيت فى أروقة العشاء الأخير لأصعد مدارج الزمن إلى الشمس التى بلا عمر، على يمينى قمرى وعلى يسارى أرض الرماد يخفق بها قلبى الذى ضربه القمر

بالذكرى والألم وشبعة العين، فلما جست تحت سباطات البلح وعناقيد العنب ورأيت الساقية التى دار على مدارها الثور تنتح الماء والطين من المعين الغائر، يلعب على مدارها لمة العيال والبنات البكارة يندفعون إلى الساحة المعشبة بالقش وحطب النار حول سدرة المنتهى، حول العرش القديم المعلق عند آخر سموات ما لقّننا شيخ الجامع والراعى الصالح يوم أوقدوا فى ضمائرنا المصابيح الصغيرة الملونة وكلمونا عن السيوف اليمانية وأيقونات الخشب ذات الوجوه الطيبة التى تعتصر الزيت والطيب وخيط الحرير وورق البردى والتى تعود للهجاتها الأولى التى فتحت أمامى نفق الظلام الذى تجاوزته فرأيت المقام الذى تبعه الرحيل وانتهيت بفيض ما بنفسى من استحالة القبض على الوقت الذى يضيع معها، فى البراح تركب الريح التى لا مستقر لها فى الأرض أو فى السماء التى تبدو لفرط بعدها كاذبة، يندفع شعرها فى البرارى ويشخب من ثديها اللبن فيكسو الدنيا بغاشية البياض وقبل أن أصرخ لأسمع ارتداد الصوت من المدى المطلق لوحدتى التى كرست لها عمرى حين رأيت عين الماء يرودها الطير.

وصل لبئر الماء ورأى على حافته حجرًا، منقوشًا بكتابة غامضة؛ سأل عن المعنى وحاول بفطرته أن يفك الخط، لكنه عجز؛ فارتد طفلاً يتهجى الأبجدية من غير فهم. أدرك فى اللحظة معنى ما كان يؤلمه، وتساءل: لماذا نرتد إلى طفولتنا آخر المطاف؟!

نظر إلى البئر؛ فراعه ما رأى:

رأى شيخا وخط رأسه المشيب، وتدلى ذقنه الأشيب، وشعر رأسه حتى خاصرته، وكأنه مشى ألف عام يطرق أبواب المستحيل الموصدة.

كانت أسنانه مقتلعة، وخطوط متقاطعة تشم وجهه. عجوز عار العورة، فى برية عارية إلا من الرماد، يزحف على ركبتيه كالعجزة الشائخين، ويدفس رأسه ومخالبه ـ مخالب الوحش ـ فى التراب.

ودَّ لو يصرخ، لكن صوته اختنق؛ فاستند لجدار البئر يتأمل صورة العجوز، وينشج بالبكاء الذى تردد آخر الأمر فى الزمن المخيف.

صيد الغزلان

وجعلت تهبط السلم مستندة على درابزينه، حتى إذا ما وصلت باب الدار فتحته وبقيت ساكنة بجانب السياج، تتطلع حيث جارنا العجوز الذى يستقر بموضعه كل مساء فى انتظار الغزلان، متأملا الفضاء الذى ينتهى بالجبل، واضعا يده على كتف حفيدته التى تقوده ساعة الصعود.

قالت لى:

«يصعد كل مساء ليرى الغزلان»

فى الليل ماتت بربو مزمن.

وكنت سمعتها تهمس لى:

«جنازة طيبة، وكمل جميلك وازرع صبارة بأربعة فروع، وأقم شاهدا بوجه حسن، وحاذر أن ترانى ساعة غُسلى إحدى الجارات، وأن يقرأ على قبرى شيخ من العميان».

سويت فتحة المقبرة ودعكتها بالتبن والطين وقلت:

«من التراب للتراب»

ورششت الماء، وزرعت فى المكان صبارة بفروع أربعة.

«صرت وحيدا الآن، ويتيما على كبر».

عدت أتذكر ما قالته لى وابتسامة شاحبة على وجهها».

«كنت أود أن أراك زوجا، وصاحب عيال قبل أن أموت».

إلا أنها ماتت وكل ما تركته لى بيتنا القديم، وقلة حيلتى والعزوف عن الناس، ومعرفتى المذهلة بطوالع النجوم ومواعيد سفر القطارات، وعادة التفرج على القباب القديمة والحلم بتماثيل العاج، وعشق المبانى العتيقة التى سكنها الأفضلون.

«وعندما فتحت باب حجرتها هبت رائحة الذين هرموا، وطلبت منها أن تدعو لى، لكنها طلبت منى أعمل لها «كاسات الهواء» لأنها تريها على البعد الضفاف البعيدة للجنة، وأحضرت «كاسات الهواء» التي لها شكل قناديل المساجد، والتى من طول الركنة ما عادت تحتفظ بنفس الشفافية القديمة، وجعلت أضع فى كل كأس قطعة من الورق المشتعل وألصقه بظهرها، حتى إذا ما انتهيت بدا لى ظهرها منورا بذبالات غير خافقة، وكنت أسمعها تقول: إنها ترى الجنة».

وكنت أقف بجانب السياج الذى يحوط مثوانا منتظرا أبى الغائب الذى سوف يعود حتما وقد اصطاد إحدى طرائده، وقد حملها على ظهره، والذى سوف يسألنى عنها إن كانت ما تزال هى تشاهد الضفاف البعيدة للجنة؟

«وكنت أنتزع «كاسات الهواء» من فوق ظهرها، وأسمعها تشهق بالهواء المحبوس، وأرى ذبالاتها وقد خبت، وتحولت إلى رماد أسود هش فى الحجرة ويحط فى الأركان، وأراها هى وقد غفت فى النور الشحيح للمصباح الذى ينفذ زيته».

تأملت الصور المعلقة على الجدار، وأدركت بعد هذا العمر أننى آخر فروع أسرتى، وأننى آخر من بكى الراحلين منهم، والذى تلا الصلوات القليلة على أرواحهم، وآخر من أطفأ مصابيحهم التى تضىء حجرات الولائم.

وخفتُ أننى لن أجد عند موتى من يسبل جفنى.

مصمصت شفتى ومكثت أنظر عبر النافذة إلى الصحراء، وأسمع صوت الريح وأتذكر رعب اللحاد الذى سمع نفس الصوت يزوم داخل المقبرة وهو يواريها التراب، والذى أطل برأسه هلعا، وصاح بى «فى القبر صوت يزوم» ولما أخبرته «إنها الريح» عاد وأكمل مراسيمه.

لم يكن جارنا العجوز الذى يجلس كل يوم عند السياج قد ظهر بعد.

«غير أنها خرجت مع نور الشفق وبيدها حجابى المكسو بجلد شاة الراعى الطيب، والمخيط بخيط أمعاء فطيسة حيوان الجبل الذى يترصده أبى من قديم، والتى كنت أطاردها وأنا صغير حتى جحور الثعابين، وجعلت تنظر ناحيتى رافعة حجابى للشمس وقالت لى «كنت تلبسه حتى أدركت البلوغ».

وتذكرت أننى عندما سألتها عن لغة الحجاب أجابتنى بأنها كلمات تحفظ العمر، ثم مشت قليلا ونظرت ناحيتى وقالت «على أى حال إن أحدا يعيش أفضل من الموتى جميعا».

وكلما استبدت بى وحدتى نظرت لجدران البيت وهالنى أننى أمضيت بين جدرانه أربعين سنة، وثمة أسى يلازمنى طوال هذا العمر المديد، يسبب لى فى أحيان كثيرة أحساسا بخيبة الرجاء يجعلنى أشك

فى كل الأحوال فى تلك الأمانى القديمة، والتى كنت أعزوها فى ماضى الأيام إلى أهمية خاصة وذهب بها العدم بلا أسف، وتساءلت «ما الذى سوف يكون عليه حالى»؟

يجلس العجوز عند السياج، تحت تعريشة اللبلاب يستند بظهره للجزورينا التى تصدر صوتا كلما فاضت بها الريح، والتى تحمل الآن رائحة الرمال، كان ينظر بعينين صغيرتين عبر السهل الممتد، الذى يفصل الدار عن الجبل.

«وعندما توسط الظل عارضة الشباك سمعت الغناء من الأسطوانة القديمة، التى تلتمع على سطحها بقعة اللون الزرقاء، ورأيتها ترتدى فستانا من الحرير الأخضر المشجر بالزهور البرية، وينسدل على هيكلها الضامر والذى كنت أظن أنه لن يقهر، وعندما دخلت حجرتها سمعت سعلاتها الخشنة فأدركت دنو أجلها، وجمعت أطراف عباءتى على صور أجدادى الذين مكثوا هنا زمنا ثم رحلوا.

قلت للرجل العجوز «تأخرت» فابتسم كليل البصر، وأخذ يأكل خديه الأدردين بفكه الخالى من الأسنان وقال لى «لم العجلة؟ إن تكرار العيش، والإحساس بقصر العمر يصونان من الموت المفاجئ». . قلت له «البعد عن العمار رفقة للوحدة، ومضيعة لزمن نحتاجه، المكان هنا مقطوع بدرجة مروعة». . قال لى «الوحدة خير من رفقة أهل السوء، خاصة وأنت تعرف أننى على موعد مع الغزلان». . ونظر عبر الجبل وعاد يقول لى «إن كان على إنسان أن يموت فأنا الأولى بذلك. . أنت لا تعرف حقيقة بأس الحياة. . أنت صغير وخالى الوفاض بدرجة مؤسية. . أعلم أننى لم أعشق فى حياتى مثل الغزلان، ذلك الهادئ العطوف، هل نظرت فى عين غزالة؟. . أظنك لم تفعل. . قلت له

«عين غزالة؟» قال «نعم . . » ثم قال «لقد عشقت الغزلان بعد أن شربت من دمائها الكثير» .

وعاد ينظر إلى الجبل ويسعل فينتفض جسمه الصغير فيما يدق الأرض بعصاه الذى يسند وجهه على عقفتها . . قال لى «إن العجوز الذى أمامك كان يحترف صيد الغزلان زمان اشتغلت فى السودان، وأمضيت به نصف عمرى، وكنا نأخذ «اللاندروفر» ونذهب للصيد، وكنت أسمع السودانية وهم يصيحون فى فرح «نسعى للصيد وشفاء الروح» وكانت البرارى أمامنا مفتوحة، وكنا نخاف من الوحش المفترس الذى نتوقع ظهوره فى كل لحظة، والذى يسكن الغابة» .

تنحنح وسعل ودق فى الأرض عصاه، ولمحت معلقا على بأبه صقرا محنطا فاردا جناحيه يدور كلما دارت به الريح، عاد يقول «كانت السيارة تطارد الغزلان كالقدر، ولم نكن نطلق عليها النار، وكنا نقول: لسوف تسقط من الإعياء، وكانت تظل ترمح حتى آخر الشوط عند ذلك أنظر فى عيونها . . كانت تطلق استغاثة الفرار، وعندما تسقط نفتح بطونها وهى حية، وننتزع أكبادها حية كانت تغلى من تعب المطاردة ثم نقطعه شرائح ونضيف له التوابل ونلتهمه» .

تساءلت «حيا»؟ قال لى: «نعم حيا، لكم التهمت من أكباد حية» وعاد يقول «إن لله يوما يصيح فيه:

انهضوا فتتجمع العظام فوق التراب وتنهض» . تنهدت واكتسحتنى ذكرى الغائبين وقلت له «إن أحدا لن ينهض، وإن الله لن يقول للتراب انهضوا» .

خرجت حفيدته الصغيرة من البيت ولعبت تحت التعريشة ثم

طاردت فراشة وصاحت به «جدى الشمس تعود» وأشارت بيدها ناحية الشمس التى اخترقت فى المغارب مثواها.

نهض العجوز وأدخل قدميه فى حذاء قديم عند ذلك لمحت أظافره محشوة بالتراب.

وطئ ظل الرجل ظلى فأفسحت له الطريق، وابتسمت لى الحفيدة بعينيها اللوزيتين، ومسحت على شعرها الطويل، الأسود.

قال لى العجوز: «بالإذن» قلت له «لم نستكمل الحديث بعد».. أجاب «غدا - إذا جاء - سوف نكمل».. وعاد ينظر للشمس قرب بيت الرب، قريبة من عرشه، وقال لى «ألا ترى الشمس فى أى مكان؟».

سحبته البنت من أمامى وسارا يثيران التراب متوجهين ناحية الجبل، وأخذا يصعدان قمته التى لم تكن عالية، والتى تشتعل بشفق كدم الغزلان.

بعد قليل - خرجت من إبط الجبل الغزلان الصغيرة تتواثب وتركض ناحية العجوز والحفيدة، كانت تخرج لا أعرف من أين؟.. إلا أننى رأيت الجبل وقد امتلأ بالثغاء الجميل.. كانت الغزلان تلحس كف الرجل فى حنية الأطفال البررة، وكنت أسمع صوت الرجل وكأنه ينتحب فيما تربت البنت بكفها الصغيرة على ظهرها.

حملت روحى المنهكة وعدت لدارى عند التخوم - بين أن تترك روحك على الجبل، أو أن تعود بدونها - سرت على الممر بين الزهرات الصفر، والعابرين إلى الماضى حيث نار الله وجنته.

فوجئت بصالة البيت مضاءة، نور يشع فى الأركان، صوت الأسطوانة يعلو بتراتيل أندلسية، وضعت يدى على قلبى وقلت «طوبى

للراحلين»، وتنشقت الغناء القديم، ورائحة من ذهبوا، وتردد بداخلى صوت العجوز «نسعى للصيد وشفاء الروح».

من الطابق الأعلى جاءنى صوتها. . نفس الصوت الذى ينادينى منذ أربعين سنة:

ـ «أبو السعد» هل عدت؟

أجبت بطاعة الأبناء البررة.

ـ نعم يا أمى. . عدت. لسوف أغلق باب المجاز.

الجواد للصبى.. الجواد للموت

عن الميلاد:

لكز أخته الغافية فاستقامت تهرش جنبها المكشوف . . حدثها عن ثمرات التوت، وبيض العشب وقوارب الورق . . حاذر أن يوقظ الجدة المنكمشة تروح فى نوم كالموت تحت اللحاف القديم .

هم وسار حتى نافذة المقعد العلوى . . رأى ـ ولم يكن يحلم ـ خلال ضباب الصباح المغلل بألق كالحليب، رأى مهرة الدار الشهباء تصهل وكأنها تسبح فى الضباب المغلل، مسجونة بسور من حجر، تدور دورات عصبية، تنخر دخانا كالغبار .

هبط السلمات مسرعا، فى ذيله أخته التى قال لها (حاذرى الحجر) . . فردت عليه (إنها سوف تحاذر) . . قال لها (إنه سوف يصعد التوتة ويهزها) . . فقالت له (لأ التوت على الأرض غامر) .

جمعا بيضات العشب، وامتلأت بها طرحة البنت، فيما كانت كفه تمتلئ بثمر التوت . . أنَّت المهرة أنينا متقطعا . . لحظتها لمح فرجها المفتوح يطل منه ظلفان أخضران، وخطم أسود صغير بينما كان ينساب من الفرج مخاط لزج له قوام كثيف، يمتد فى خيوط ممطوطة حتى أسفل الكفل .

أخذ الصبى وارتعش. . كور قبضتة وتحرك من جانب الجدار وأسقط من راحة يده الأخرى ثمرات التوت. . صاح مذعورا (المهرة تلد) هوت بيضاء العشب من طرف طرحة البنت وتكسرت فيما كانت تجرى نحوه. . أخذها من يدها وأشار ناحية فرج المهرة المفتوح. . قال لها (انظرى) ولما رأت خطم الوليد، ورأت الحلمات المتوردة بالحليب فزعت وصاحت مستغيثة (الحقونا المهرة تلد).

حدق فى عين الشهباء وراعه مدى اتساعهما، رأى اختلاط السواد بالبياض فى حور العين الدامعة. . هتف صارخا (يا ربى المهرة تلد) ودار حولها وكانت تهب رياح صباحية اهتزت لها الفروع.

صاح بأخته (نادى أبوك) ولما كان وحده بلا حول ولا قوة صَرخ (الحقينى يا أمه المهرة ستموت).

وكان صوته ينسل عبر الفجوات الطينية يطرق أبواب الدار حيث الأم والجدة ذات النظر الشحيح والبنت تندفع ناحية شرق البلد حيث الأب فى حوض النجار. . على البنت الآن أن تعبر القنطرة، وتقطع حارة البحر وترى طيورا بيضاء راحلة لها أجنحة منشورة وترى الرجال يسرحون وترى حجر الطاحون مركونا على باب الطاحونة المقفل.

هرولت الأم نازلة السلم بيدين ممدوتين ورأس مكشوف. . . رأته الآم وقد شمر أكمامه وأخذ يشد ظلف المهر الوليد الذى ينزلق منه منفلتا، بينما المهرة الأم تدق الأرض بقدميها، مادة عنقها الطويل، تجأر باختناق تستغيث بالغلام وبالأم التى تشارك فى شد المهر عبر بوابة الحياة.

أطلت الرأس بعينين مغلقتين ونفرة مبلولة بمخاض الميلاد. . صاح

بأمه (شدى يا أمه ها هو يبدأ الصعب) . . عفر يده بالتراب وأخذ رأس المهر فى حضنه وصاح بالمهرة الشهباء مستغيثا (ساعدينى) فهمهمت وضربت الأرض بقوادم من حديد.

انزلفت قطعة اللحم الطرية إلى الأرض مستحمة فى مائها معلقة فى مشيمة رخوة لها لون الدم . . حاول المهر الوليد النهوض بقوائم خضراء ضعيفة لم تسعفة، فهوى على جنبه تهتز رأسه . .

حدجه بنظرة الاكتشاف الأولى وقال لأمه (مهر يا أمه . . ذكر . . انظرى).

تلحس المهرة الأم وليدها الضئيل المرتجف، والوليد ينفر بمنخرين مسدودين ماء الولادة، والصبى يدور حول المشهد مفتونا يستحم جسده تحت قشرة العرق، مستقبلا نضارة هواء الصباح من الامتداد المفتوح لأفق صحو على أول النهار وآخر الليل، صائحا بأمه (هو جوادى وسوف أسميه «عنتر»).

عن الجواد والصبى:

انفلق الصباح واستيقظت البيوت فوق الأرض . . هى الزروع عبر مرمى النظر وبعد النهر تتجعد أوراقها وتطلق لهاثها للأرض المحروثة.

الصبى ذو الجدائل السوداء، والوجه المدور الباسم، والنظر الحديد ينهض من نومه يحمل دلو الماء، يتجه ناحية الطلمبه المدقوقة فى الساحة البرانية أمام الحظيرة العجوز، يملأ الدلو ويخطو ناحية المهر ابن الحولين . . يراه أزغب حليبيا، مستديرا وقد استطالت قوائمه وانفرطت عفرته فى كثافة شعر العذارى . . وكأنما فوجئ به يقف مربوطا على

طاولة من طين النهر بعينين تحددت سعتهما، وبخطم ململوم مستطيل ينتهى بشفتين مضمومتين على أسنان قوية.

مسد الصبى ظهر المهر بيد حانية، فنفر ووسع عينيه ثم شب يصهل.. عاد ومسد ظهره فدار حول نفسه.. خرجت البنت (هانم) وحكت ظهرها بالجدار وقالت له (ماذا تنوى اليوم؟.. اصطبح وقل يا صبح).

عين الصبى فى عين الجواد.. خيوط من الحنين، ومحبة النشأة ورفقة الحولين.. **حظيرة فى الظلام تفوح منها رائحة الوحل والروث الأخضر وزمتة الحبسه.. هى الجدة تلبد تحت بطن الحيوان، فوقها شعلة لمصباح مدخن، تشد الأثداء الناعمة المدرة بالحليب.. يزحف هو إليها ويفتح فمه ومن الثدى لحلقة يشخب اللبن.. والمهر تحت بطن أمه يمص أثداءها ويدق الأرض بحوافره.. هى الأيام.. الأيام.**

ألبسه الأنشوطة فشب المهر ناحية الشمس التى تحدق فى عينيه وصرخت البنت وفارقت الجدار، انحنى يرخى الحبل المشدود ويقترب من المهر هامسا (هس.. هس.. مالك عنتر؟.. مالك.. خائف؟).

شخر فأعطاه يده، لحسها المهر وشد أذنيه.. طبطب على زندة فشب المهر على قائمتيه الخلفيتين.

ومن فرط ما ارتعب الصبى انقذف مصطدما بالجدار ويده تستميت على الأنشوطة.. على صوت هبدة الولد خرجت الأم عارية الرأس مرتاعة.. رأته قرب الجدار متكوما.. قالت له (إن ما جبت لنفسك مصيبة، وانكسر لك ضلع،.. ما أكون «أمينة»).

لن يترك الأنشوطة ولن تفارق عينه عين الجواد (أركبك كل يوم..

مالك حرنان النهارده) نهض ونظف ثوبه وعاد يمسح ظهر الجواد ويرتب عليه . . المهر يتشمم رائحة الصبى الذى يخاطبه فى همس .

فى اللحظة التى استكن فيها الجواد كان قد فك رباطه ، وصعد السور الموازى لظهر المهر وجعل يقول له (هس . . هس) شعر الجواد بحريته حين انطلق للأمام راسما على نحو من ضجيج وصخب ستارة من الغبار تتقمصه رغبة فى الرمح نحو الشمس التى تصهل هى أيضا ، يندفع دون تعب راكضا فى الحقول وفى الحارات وعلى شاطئ النهر .

وحينما كان الأب والعم يقلبان (رمية) القمح . . كان الصبى والجواد يخلفان جسر المصرف وينحرفان إلى طريق القناة الضيق ، كان الأب يقول فى نفسه (كأنه آخر الجياد ، وكأنه آخر الصبيان) ثم يصيح فى ابنه (خف عن المهر لتجيب أجله . . واحذر أن تسقيه وهو متعب فربما مشى الماء إلى قدمه ، بعدها ستخسره وتبيعه فطيس لعربجى على باب الكريم بالمركز) .

وكان الصبى منشغلا بمهره وكان المهر يحدق فى الفضاء وعبر الغيطان .

عن الجواد والبلد:

حيث إن الشمس تشرق من المشارق ، وتغيب فى المغارب . . وإن بحر النيل لم يعد يطمى وفى شهر (برمهات) قبطى يزرع القطن . . وفى (بشنس) يضم القمح والشعير . . وتكون أيام للحصاد ، وتستكمل دورة تلد سر الخير وسر الموت . . وإن الحكايات انقطعت من فوق المصاطب وإن للبلدة مقبرة للأسلاف وولى له مقام ومزار . . وإن لها قنطرة من صخر جبلى لم يعرف أحد من بانيها تربط الغيط بالدار ،

وتكون مثوى لسكان تحت الأرض . . فإن للبلد مهراً رامحًا فى الفضاء الساري، يتواترون أخباره ويحلمون به فى عز، عز المنام.

وليد (نجية) الجمَّاعة ينام فى ظل شجرة تيل، على رأس غيط قطن . . أمه تمسك خطا، محنية الظهر تطارد اللوزات المتفتحة . . الجواد يرعى على جرف قريب . . يخرج الأسود اللعين زاحفا، متلويا أملس ناعما . . يسمم اللبن فى الطاجن والطنجة فى الحلة . . هدفه الوليد الملفوف برقع قدميه . . يندفع المهر ناحية الزاحف اللعين وبحافره يقطعة.

تجرى (نجية) وتخطف ابنها وتجلس على شط المصرف . . وتبكى . . هل كانت تبكى رعبها، أم كانت تبكى فرحة نجاة ابنها الغافى؟

من عند قنطرة (السكرى) حتى دكان (عبد الجليل) فرح ممتد . . أسبتة مغطأة بفساتين ملونة . . «طشاتى» نحاس أحمر بلون شمس العصارى، مليانه بأرز مبيض وأقماع سكر وزجاجات شربات فى لون خدود البنات . . البنات البكر بأثداء جامدة مدورة، وضفائر طويلة كالسلب تنام تحت طرح الحرير والشيلان المزهرة. أنغام للفرح و«مغانى» للبكارة فى هواء عصارى السنين . . الجواد أول الموكب وآخر الموكب . . ألبسوه كسوة من قطيفة مطرزة بخرز ملون وترتر أبيض يبرق . . الكسوة مشغولة بخيوط بهيجة، رسم للأهلة ونجمات آخر ليالى الصيف ونخيل بسعف أخضر، وطيور تطير فى براح الكسوة القطيفة . . دقات صاجات وأنغام مزامير (المزيكة) النحاسية المؤجرة من المركز تجعل المهر يرقص فى السترة القطيفة، على ظهره الصبى ذى الجدائل، وأمامه خلق صاخبة وخلق ترفع الشوم وترقص مع الجواد الفارس.

الشيخ (راغب الصفطاوى) السامر القديم . . فاتح المندل، وقارئ الكف . . رابط العريس فى دخلته . . ومكره العروس فى عريسها . . يلبس ثوبه (التوتل) الناسل ويكبس فى رأسه عمامة وسخة تغطى شعرا أشيب . . يقف تحت ظل سنطة عجفاء وينظر المهر الرامح ويصيح (أقطع ذراعى إن ما كان هذا المهر وهذا الولد من نسل الشياطين).

العم (سيد مرسى) الطيب الصالح . . الأمين على الناس وعلى أسرارهم . . المصلى الفروض جماعة مؤذن الفجر فى عز ليل طوبه . . يسند رأسه على منبر الجامع ويتطلع بعين ساجية يشع منها الصلاح والتقوى، ويشير بيده ويقص حلما يأتيه بعد أن يتوضأ ويصلى وينام . . (هو المهر يأتى مع القمر، فى هداة الليل حينما يكون السكون . . حيث تخلو الحارات والأزقة من ناسها . . أراه أنا العارف بما أرى، عبر هالة من نور على ظهره خرج بعينين . . عين فيها رزق معلوم، وعين مليئة بحبة البركة . . يقف أمام أبواب الدور، فتفتح . . تخرج نسوة متشحات بالسواد . . يغرفن من الخرج ويملأن مخالى معمولة من قماش الخيام . . تكتفى النسوة ولا تنقص عينى الخرج الملآنة بالرزق المعلوم وحبة البركة).

وفى ليال كثيرة متتالية كان الصبى يمتطى ظهر المهر بعد أن ينام الناس ويهجعون . . وكانت الشوارع والحارات خالية فيما تتبدى البلد تحت السماء كامراة متوحدة، مهجورة . . كان وقع حوافر المهر كقرع طبلة، وكانوا يتسمعونها، تأتيهم عبر منافذ الحلم. حيث لا تكون الصحوة مؤكدة وتتهيأ النفس لاستقبال هبوط الروح من عوالم أخرى غير موازية لعالمهم ساعتها يظل التساؤل مستقرا بالضمير الغافى . . عن سر هذا الرباط المقدس الذى يربطهم بالجواد ومن ثم الصبى.

عن الموت:

(١)

غادرت العمة (ألفية) فرنها الواطئ، محدقة فى نار المحمة التى لم تهمد بعد. . ألقمت المحمة الحطب الصائف وتمخضت بشاشها من أنف مدبب كمسمار. . نفضت ما علق بثوبها من دقيق الخبيز. . ضربت جدارها بيدين عجوزتين وصرخت وحدتها (متى تأتى شياطين الجن؟) زام الهواء فى قش السطوح. . عبق الدخان واندفع من (المحمة) ملتفا، يدور صاعدا السطوح من المنور الضيق متوزعا على الدور المجاورة.

وجهها الكالح العجوز به فم خال من الأسنان ولها عينا هرة هائجة تنظر بهما بعيدا.

(وفى الليل تلتف بسوادها وتخرج مكفنة بالظلام، لا تنظر خلفها ولا تلقى السلام.. تكنس العتب وتتلو الطلسم، وتدفن الأعمال فى فتحات المقابر، وعلى جسر النهر تحادث القمر).

«ملعون الأب، والأم، والبنات البكارة».

قالتها وفتحت (قاعة) معاشها، وبرقت عين الهرة فى الظلام.

«جارى ملعون «سلامة» وأولاده. . وجارتى ملعونة «أمينة» زوجته».

صعدت سلم الطين تكحت كآبة سلمها بأظافرها.

«(عبد المولى) تدهسه حوافر فرسه الذى سيدفنونه جيفة».

ألقمت «الوقيد» لفرنها فتوهج بالنار. . سمعت على البعد ركض الجواد الجامح فسارعت تصعد سلمها.

فى الزمن الذى كانت تقف فيه العمة (ألفية) على سطح دارها شامخة الرأس، مفكوكة الشعر الذى تعصف به ريح مفاجئة، تهب من ناحية المغارب، تحدق بعين القط ـ عينها ـ كان الجواد ـ وسط الساحة، وفى اللحظة التى التقت العينان ـ عين الجواد وعين العمة ـ صهل المهر مستغيثا، وشب على خلفيتيه ثم هوى على جنبه فى ارتطام مروع ولم يقدر على النهوض.

انفجر ضحك كأنه السحر، وكانت العمة هى التى تقف فى وجه الريح على سطح دارها قبل المغارب.

(٢)

فى البدء ضرب الجواد جدار الحظيرة برأسه.. بعدها تتابعت نطحات الجدار حتى تورمت رأسه.. تنهَّد أهل الدار حسرة، وبكى الصبى تحت الغطاء، وحبست البنات بالغرف وأقفلت، هزل الجواد وصام عن الزاد، وفكوا قيوده فاستقر بركن الحظيرة ينطح الجدران.

ينهض الصبى ويجلس تحت بطن الجواد وبقلبه شعلة تضطرم.. يسوى له (عرَّاقة) من خيش يلتف بها جسده المحموم، والصبى ما برح يستعيد أيام العدو نحو الشمس وفى الغيطان.

خرج من الحظيرة واستقر على عتبتها، نصفه فى النور، ونصفه فى الظلمة.. بكى جواده الذى يشيخ فجأة، والواقف فى ظل الموت.

أذن العصر وبعد أن أم المصلين الشيخ (حسن النواوى) فقيه البلد العارف بالله؛ سحبه نفر من الناس.. مشوا بحارة (الساقية) إلى زقاق (البداروة) وعبروا قنطرة الجامع حتى وصلوا الدار.. أخذ الصبى

يد الشيخ الكفيف فمسح بها رأس الجواد وظهره. . تلا المعوذتين وآية الكرسى والصمدية وطلب للمهر الشفاء. . أمن الناس وراءه ثم سحبوه ومضوا من حيث أتوا.

حضر (محمد فرج) جساس المواشى. . فتح فم المهر وعاين لسانه، وشد جلده، ورأى فى العين حمرة، ومسح بحر العرق عن جسد الجواد ثم وجه الكلام للأب (الحصان نار). . وأمر نساء الدار أن تغلى فولاً ورجلة خضراء، وتخلطه بشيح، وبذر كتان وأن يسقوه للجواد على ريق النوم. . خرج من الزريبة ونظر للجميع وقال (ربنا المنجى) ثم رفض أن يتعاطى أجرا.

من أول الزمان لآخره، يأتى الليل، فتدور الوطاويط وينعق البوم، ويفر فأر من كوم سباخ لجسر مصرف، وينبح كلب بلا صاحب أو مأوى، ويمضى الليل، وتلم البلد شمل النجوم، ويشتد حصار الوقت.

(أمينة) الأم. . سيدة الدار. . الربة المقيمة على رأس العالم الصغير. . ترتب فرش العيال، ثم تحلب الجاموسة، وتقطع الجبن خرط صغيرة بحجم راحة اليد، وتشعل مصباح الوسط، ومصباح الباحة، بعدها تنام الدار وتهمد.

تسحب الليلة (شالية) من فخار قديم، تملأها بتراب (الفرن). . ترص القوالح وتغذيها بورق (غلاف) الكيزان. . تعلو النيران ثم تهمد الألسنة ولا يبقى سوى الجمر. . تحمل (شالية) النار وتخطو ناحية الزريبة.

تبسمل وتحدق فى الظلام الذى يغيب الجواد الرهوان. . تخرج

قطعة (الشبة) التى تلمع فى وهج جمر النار . . هى والحظيرة والجواد، فى قلب الليل . . تخطى العتبة وتواجه المهر المريض بداء الحسد والكراهية . . يقف الجواد فى ضوء لمبة الجاز مطرقا، عرقان ينطح الجدار (مالك يا عنتر ما الذى جرى لك؟) . . تضع قطعة (الشبة) وبخور الصندل فى الجمرات . . تسمع نشيش حريق المادة فى صوت منفحم ضرير . . يعلو دخان الحريق ويعبق فى تعريشه سقف الزريبة . . تدور بالإناء حول الجواد الذى استنشق رائحة البخور .

«رقيتك واسترقيتك من عين حسود شافك ولا سمى»

استوت (الشبة) امرأة عجوز، متفحمة تلتف بالسواد ولها عيون هرة . . هتفت الأم :

«هى . . ساكنة الدار الواطية . . جارة الشؤم»

بكت الأم عجزها عندما نظرت الجواد غارقا فى الصمت والعرق . . أطلقت صوتا كالعديد :

«قلت لك ع الجسر ما تمشى . . . عين الحسود تضرب ولا ترخى»

رجعت بظهرها عندما رأت الجواد يرقد ملقيا بجسده إلى الأرض، مادا عنقه كالذبيحة وقد غرغر، واتسعت عيناه وبدتا فى الضوء الشحيح منطفأتين .

حاذرت الأم أن تصطدم بالحجر، وجزع التوتة، والسور المهدم وطلمبة الماء، وخافت أفعى الجحور التى تعرف أنها الآن تدحرج جوهرتها أمامها زاحفة من سطح لسطح .

دخلت على الأب الراقد فى أرض (المندرة) . . قالت له «المهر

يموتُ». . قام ومسح وجهه واستعاذ من الشيطان بالله على الموت المفاجئ. . قال لها (إنه سوف يذهب غدا للمركز ويحضر طبيب الصحة البيطرى) قالت له (أن لا يتعب نفسه فقضاء الله نافذ) رد عليها «سأسعى وعلى الله العوض).

فى النهار حضر الطبيب المداوى. . كشف على المهر وأخبرهم المهر مريض بمرض معد ولا بد من إعدامه).

(٣)

ما الذى يجرى اليوم فى البلد؟

كأنه يوم القيامة.

كل تلك الصفوف من الرجال والنساء والعيال، تتسحب من الأزقة والحارات إلى طريق المدار.

من سرب خبر فرقة الإعدام إلى كل البيوت؟

زوج من العسكر وصول، وثلاث بنادق لكل بندقية روحين موكلون بخطف روح المهر. . يخطون بالقرب من قنطرة المشروع، ويبدون فى ملابسهم الكاكية الصفراء كسماوى الكلاب.

يطول من خلفهم صف الرجال والنساء والأطفال، يثيرون التراب، يفزعون الطير المهاجر ويسدون عين الشمس.

من يحاول أسر روح الجواد الرامح أبدا فى الغيطان؟

بكت بنت قرب النهر، وألقمته حجرا فاتسعت دوائر الماء.

المدار فى أرض (نعمان) على شاطئ النهر، تحت بطن ساقية قديمة خربة. . تمتد الأرض البور سبخة ومهجورة، تنبت فى جنباتها نباتات الشيطان، وتعمرها ديدان حمراء شرهة.

الجواد يتنظر الرحيل حيث القطعان الحرة فى السماء.

قال العم (لنبدأ. .). . تململ الأب ومضى يشد حبل التيل ويلفه حول أرجل الجواد المستسلم. . دار الأب بالحبل على الجسد، فارتجف الجلد بعد أن شعر بخناق الأعنة تجز عليه.

رمى الأب بطرف الأنشوطة إلى العم فأحكم وثاقها على كاحلى الجواد ومتنها.

حث الصول ذو الوجه اللحيم القاسى، والشارب المفتول والأزرار النحاسية وصاح (أسرعوا. .) رد الأب الذى يشد الوهق حول رقبة الجواد (حاضر. .) ودار حول الجواد يساعده العم والأيدى العفية. . وفى اللحظة التى قال فيها الصول (شدوا. . ارموه. .) كان مهر الأيام الماضية يتهاوى، حيث انقلبت الوجوه، وتطلعت إليه العيون من فوقه. . اهتز وحاول النهوض لكنه لم يقدر.

وجوه لنساء غامضات العمر تحدق فى الدائرة. . أطفال لا تلعب فى الزحمة حيث شدها المشهد فوقفت متراصة، مشدودة بحبل الخوف. . رجال هجروا البيوت والغيطان فى مشهد وداع المهر الأخير.

وحده الصبى (عبد المولى) ينظر مهره الراقد على جنبه بعين مفتحة، وذاكرة مطفأة. . مشى حتى أبيه وشده من ثوبه وقال له مسترحما (بلاش يا أبة. .). . نظر إليه الأب ولم ينبس فاستغاث بعمه وارتمى فى حضنة باكيا. . صرخ الصول (أبعدوا الولد. .) أبعدوه خارج الدائرة وبقلبه تنتفض أيام الركض ونهارات البركة.

صرخ . . (بلاش يابه . .)

صاح الصول (استعد . .) فارتفعت أشداق البنادق بظلام يغشى العيون . . تحدد الهدف وسط الرأس وعند حبة القلب . . قال صوت الصول . . (اضرب . .) فانفجر صوت الطلقات مدويا . . حفرت فى الرأس وفى القلب حفرات غائرة، يتدفق منها دم يشق له مسارا فى خطوط على الأرض حيث بلل الأقدام وخضب الثياب .

تصاعدت من فم الجواد آهة آدمية مغللة ببخار حار . . صرخ (عبد المولى وتشبث بصدر أبيه . . فيما كانت بالفضاء العالى تحوم غربان وحدآت ناشرة أجنحة تدور، مدفوعة بحدس فطرى نحو رمم الجسور ومهاوى المرابط، نعيقها المبتهج فى قلب الصبى الحزين إعلان ببدء الوليمة المؤجلة .

شفق ورجل عجوز أيضا

(١)

مصباح شرق البلد، بضوء ربانى يرسم على المكان . . الظلال . . انحراف النهر . . المقابر الثاوية .

غفوة ثقيلة قبل هبوط الشعاع الأول، وخفقة باردة لهواء البدارى . . وسعلات مختلطة بسراسيب مياه الصنابير بميضأة سيدك «أبو المكارم» غرب البلد .

رائحة تسرى بها الريح من الكهوف البعيدة عن العمار، ومن الحجرات الرثة المفتوحة على الليل، تشيع منها الفضيحة، ونهنهة الحزانى، ورائحة غرف الحليب، وفوح خبز الصباح الأول من الأفران الموقدة، بالنار، ووحل الزرائب، وشيح طرد الأفاعى، وبخور التعاويذ، ومنى الشهوات الحرام فى السراويل المهترئة، ودمع عين الأرامل المتوحدات، المهجورات بالموت، والسفر الطويل .

بهائم عشار، وأخرى فى المخاض، وثالثة عقيم تنتظر سكاكين الذبح والجزارة، وامرأة كفها على شباك ضريح الولى تشكو بدمع العين عقم رحمها، وشوقها للضنى والخلفة، وصرخة الوليد الأولى، ورنين أوانى النحاس فى السبوع .

ـ صبحنا وصبح الملك للمالك.

نهار كألف نهار. ستر انكشف، وبانت الدنيا فى الصباح الرجيم.

البنت المليحة ـ بنت الأصول، الناس الأوادم ـ ببشرتها البيضاء بلون القشدة، وعينيها الخضراوين بلون البرسيم، وضفيرتيها الشقراوين تحت شال أزرق. تقف محمية بجسم الكوبرى الحديد، ترتدى ثوبا من حرير مطرز، وبعنقها سلسلتان واحدة من فضة على شكل قلب بلون أرجوان، وأخرى من ذهب تنتهى بأية من الذكر الحكيم.

الكوبرى يربط البلد بالمركز، يدق قلبه فى الصباح مرة، وفى المساء مرة فينفتح مفسحا المدى للمراكب المسافرة، محملة بالرمال، وأحمال القصب، والجرار البيضاء، تغادر المكان مشيعة بالموال ورائحة البلاد البعيدة، يدق قلب الكوبرى فيستوى على الماء لدبة الآدمى، وحافر الحيوان.

تقف البنت من أول الليل، تخاف طريقها، ودق باب العائلة ـ هى غير الطهور ـ التى أسلمت نفسها للعشق الحرام، وتركت بلدها هاربة وراء من اختاره قلبها، ذلك الأفندى الذى هجرها بعد حين، وتركها وحيدة تتأمل الوجوه فى المدينة علها تعثر على وجهه الغائب.

«أراهم كأنهم يخرجون من ضلوعى، جدى العمدة، وجدتى الهانم وأمى بهيئتها المنكسرة، والتى كان عليها طوال فراقى أن تقف أمام نافذتها، تنظر ناحية المغارب، منتظرة مقدم الليل بقلب تعب».

«شفق».

ما الذى عاد بك إلى البلد؟

النهر رواق للخطايا، وماؤه دموع التائبين.

خطت «شفق» مفارقة جسم الكوبرى فى اتجاه النهر، حتى إذا ما وصلت الشط تكاثف شعورها بالازدراء، وأحست بأنها تطفو على فضيحة وتذكرت فعلتها غير الطهور.

عاودها الحنين قبل الموت لرؤية جدتها وأمها وجدها العمدة فنهنهت بغير دموع. ألقت بنفسها فى نور النهار العكر إلى النهر.

صياد وحيد (ليس من هذا البلد)، كان قد فرد ثوبة على تراب الجسر، وصلى لله ركعتين عند الخليج، بجانبه مقطف الخوص، يفرد فى اللحظة شبكته فيسمع صليل رصاصها، ويرمى بها للنهر، غير واثق أن كانت ستخرج بالرزق الحلال، أم ستخرج بالحصى والطين.

ارتطام جسد البنت بالماء نبهه، وصرختها المستغيثة:

ـ الحقونى.

جعلته يزعق بعزم الرجال:

ـ غريق يا بوى.

ثم يلقى بنفسه للنهر سابحا حتى البدن الذى يطفو مرة ويغطس مرة.

(٢)

الجد...

عمدة بن عمدة.

طرح شجرة تضرب جذرها فى الزمان والمكان. أصل عريق من نسل أغراب، جاءوا من البلاد البعيدة ممتطين الجياد التى تصهل فى البرارى وراء الفتوح، حتى استقر بهم المقام فى مصر المحروسة.

سلالة من ظهر سلالة، لها الجاه والسلطة، وللعباد الطاعة والخدمة، يخرج مهيبا من «السراية» يقبض على عصاه العاج، تفيض عليه عباءته الجوخ الزرقاء.

كان قد أمضى ليلتين مسهدا منذ التقط الصياد حفيدته من النهر.

وقف أمام باب «الدوار» يتأمل الأيام، ويحصى السنين، ويفكر بضنى القلب فى حفيدته التى ضربته آخر العمر فى حشاه، ولوثت شال عمامته بالنجس.

كانت عيناه المتعبتين تشى بحالته القلقة، وتعبه الذى لا يستره هندامه النظيف.

تأمل داخل «الدوار» المكتب القديم ذا العرائس الخشبية، فوقه تستقر «عدة» التليفون الميرى السوداء بذراعها المعوج، وحجرة حجز المجرمين على بابها القفل الكبير، والسلاحليك ببنادقه السبعة المصفدة بالجنزير، كابية، وخفير وحيد يغالبه النعاس فى انتظار أوامره.

حدقه العمدة عندما شعر أنه ينظر لعينيه بخبث.

نهار ريحه ثقيل، وشيخ ضرير بالقرب من «الدوار» أوقد ناره وجلس يستدفئ.

تنفس بعمق، وهمس لنفسه:

ـ آخرتها تختم بالعار، والبنت خرجت من النهر بالفضيحة.

دارت الريح بتراب «أمشير» فأثارت سخام الأرض الذى عفر وجهه، وشال عمامته، والعباءة الجوخ.

ليت من غابوا لا يأتون. . لا يضربون قلبه بالوجع . . طرابيش على هامات من كبرياء، وقفاطين الشاهى، ومرابط الجياد، وقناديل من فضة تنير صالات «السراية» الواسعة، والمضايف ذات الأرائك.

فرد عباءته فامتلأت بالريح.

رأى أول الشارع جمعا من الناس يتجه ناحية «الدوار» فى صخب. نساء ورجال وعيال صغار يصيحون، وهو واقف فى حيرته كالمطارد.

وخزات من شمس الشتاء بدأت فى اختراق «النبقة» على الجسر، عبق الجو برائحة دم النفاس، واقترب الجمع من «الدوار» فى صخب.

ـ الحق يا حضرة العمدة. الولد «حسن بن شريفة».

ضبطوه على سطح دار «العلاونة». الولد مقيد الرسغين بحبل التيل. كان الدم يقطر من أنفه، وصرخة مكتومة كاستغاثة تنطق من ملامحه.

أشار العمدة بيده فأسكت الجميع، صرفهم واحتجز الولد فى «الدوار» حيث جلس ينزف بجوار الجدار.

يتأملة الآن بغير ارتياح، بضمير مثقل، وروح سجينة، تدفع يده العباءة التى تنحل عن بدنه كل حين، ثم يعود يتأمل الطريق المنحدر إلى النهر، لا يفارق خاطره فعلة البنت، يفكر فى القصاص، ورد الكبرياء المهدرة.

كان ينظر فى عين الولد، ثمة سخرية طافحة تطل من حمرة الدم النازف، وابتسامة خبيثة ترتسم على الشفتين المشروختين.

«حتى اللصوص، وكلاب السكك تضحك عليك، بأى حيل تصلب طولك، بعد أن تاه الكرباج فى قاعة الخزين، وها أنت الآن فى آخر عمرك تسف التراب».

تقدم من الولد فى خطوات متعثرة، وبيد مرتعشة فك قيده، ومسح له دمه، وبشفقة غير مسبوقة أشار له ناحية الطريق.

كان هو الذى لم ينخ يوما يقاوم فى وقفته دموع الشيوخ.

(٣)

كان «عبد الدار» أمام «السراية» يجهز الحنطور.

غطاء من جلد لامع بحواف من فضة، وعجلتان كبيرتان تدوران بالمشوار، ملونتان بالأزرق، والأحمر، وكنبة خلفية مكسوة بقطيفة أيام زمان، خضراء، يقابلها كنبة صغيرة، وعلى أرضه فرشت فروة خروف نظيفة كنسيج الحرير، على الجنبين فانوسان من نحاس أصفر كالذهب الإبريز، وزجاج أبيض، ينوسان بضوء زينة كشموع السبوع، أو مصابيح التائهين.

«وكنت، أنا الصغير، ابن الناس الفقراء، أسمع الحنطور يأتى من المركز فى الليل، يركض جواده، وقد نبهنى الركض من عز المنام فأنهض وأطل عليه من شباك المقعد فألمح ضوء الفانوسين يخترقان ظلمة الليل كأنما تدفعهما يد فى الظلام، أو تحملهما الريح، ولم أكن

أرى الفرس، ولا العبد «عويس»، ولا حتى الهوانم، ولكن فقط أرى الفانوسين كأنهما فى الحلم».

يضوى الجواد فى الشمس، ويلمع الخنطور بطعنة شعاع الضحى فى انتظار أن تهل الهانم الجدة نازلة من «السراية» ذاهبة للبندر يتبعها البنات فى كساوى القطيفة والحرير الطبيعى.

جدة من زمان، إذا شخطت جاب صوتها من أول البلد لآخره:

ـ البلد بلدى، ومن لا يعجبة يشوف له بلد ثانى.

غنى يخترق قلوب الفقراء كالنصل، دافعا بهم للسير فى ظل الحوائط، والطاعة واجبة، وأبدية كالوشم على الصدور.

صوانى طلوع المآتم، ونقوط الفرح فى الطهور، وسرادق المولد طالع بالصحبة، ووفاء لنذر قديم.

كرم يفيض بالغنى، واحتفالية الظهور.

لكن اليوم..

غيم على السماء، وأبواب «السراية» موصدة.

تجلس الجدة فى حجرتها وقد أسدلت ستائر بيتها، تتأمل صورا على الحائط لأغوات بشوارب مرفوعة، وسيوف معلقة، وبنادق من أزمان منقضية.

نهضت عابسة الوجه، وبرأس مكشوف، محلولة الجدائل، كانت ريح الشتاء تطوح بشعرها.

وقفت فى شرفة البيت تطل على البلد. لم يرها الخلق محلولة الشعر أبدا، وبدت لهم فى اللحظة كأنها جنية خرجت من الماء.

قالت لنفسها «كأننى أبحث عن دمعة لعينى».

خافت أن تحنى جبهتها فشدت قامتها واستقامت ثم صرخت من غير عقل.

- أجز رقبتها بيدى، ولا تقول بلد طرمخت على شرفها.

وصفرت الريح أعالى مئذنة الولى.

(٤)

كان الأب ينظر إلى الليل بذهول.

تتواتر فى عقلة مصيبة بنته. ويعود يتذكر طفولتها عندما كان يأخذها خلفه على الجواد ويرمح بها على الجسر، وكانت هى تصر على أن ينزل هو من فوق ظهر الجواد لتقوده هى. كان يتأمل جو «السراية» ويحس بانقباض فى صدره، وهو مستقر فى الطابق العلوى تلتقى حجراته فى دائرة حيث تطل نوافذها على الحقول ومجرى النهر، وضريح الولى.

كيف سيواجهها من غير أن يتهور ويجز رقبتها؟

نهض يبحث عن زوجتة فى الحجرات الكثيرة، فتح حجرة أبيه البحرية فوجدها خالية، وعرف أن والده الآن فى «الدوار» يشغل نفسه هاربا إلى مالا يجدى.

انحرف يمينا وفتح حجرة الجدة، كانت تجلس على الكنبة فى صمت المصيبة، محلولة الشعر، لم تشعر به عندما فتح بابها، كان المكان أقل بهجة، تشيع به المخاوف الطارئة، وإحساس عام بالفضيحة.

لا يود مواجهة البنت وحده، يريد من زوجتة أن تكون معه. يخاف من ضعفه، ومحبته للبنت التى جاءت على سبعة أولاد، وبدا له العالم مليئا بالرذائل.

يسير فى ممرات السراية، كأنها سراديب فى مغارة، وكأنما فصلت عن بعضها.

حجرات معزولة، باكية، وكالحة وقديمة ـ كلما فتح حجرة أغلقها، حوائط ملساء، وفوانيس معلقة من غير ضوء.

لا أحد.

هدة كالموت. ومصيبة تذوى بعمره وعمر أجداده. لاذت الخالتان بحجراتهن، فيما اختبأت الخادمات عن العين، حتى «عويس» العبد كأنما اشتم ريح السموم فانقطع دابره، أخذ يحث الخطا فى البيت، كمن يخوض فى ليل حالك.

وصل حجرة زوجتة وقبض على أكرة الباب وأدارها. غشى الضوء بصره فأغمض عينيه. تمالك نفسه ونظر أمامه.

كانت بنته غير الطهور تجلس وسط طست الحموم متربعة، يملأ لحمها الطست، وتظهر أعضاؤها تحت الضوء، تعوم على رغوة من صابون معطر، عارية تحت نور الفانوس كانت الأم تحمل بيدها اليسرى إبريق النحاس الأصفر، وتصب على الجسد ماء فاترا، وكأنما تطهره من دنسه.

كأنه سمع نهنهة زوجتة، بينما كانت تدعك بيدها جسد البنت فى دورات رتيبة، والماء يطفو فى الطست حتى حافته.

بدا له الأمر غير حقيقى، وخيل إليه أنه يسمع حمحة جواد تأتيه من الإسطبل، سرعان ما ارتفعت وأصبحت صهيلا.

(٥)

ـ العبد عبد، والسيد سيد، حلقة مربوطة فى حلقة، اسكتى يا خالة «أم السعد» الدنيا علمتنى الكثير.

ـ يا خويا كلنا أولاد تسعة.

ـ هذا كلام يا خالتى، والحقيقة تخزق العين.

كان على يمينه مربط البهيم، وذكر التوت، وعلى شماله مصرف المياة الذى تنبت على ضفتيه شجرات شيطانية، وتنفلت فى عمقه أسماك فى حجم كف اليد.

ـ هذا كلام أبى، عن جدى الذى باعوه فى سوق العبيد فى إمبابة.

ـ هذا كان زمان، والوقت تغير.

ـ لم يتغير شىء. الأسود أسود. والأبيض أبيض.

فى غضبه دفع بـ «الأنتوت» فى عقدة «المرد» وراح يحرك سلاح المحراث حتى إذا ما نفذ فى الأرض «الباء» المروية فرقع «بالرخو» فتحركت البهيمتان اللتان يشدهما «ناف» من الخشب.

اندس سن المحراث فى الأرض فانشقت عن جذور قديمة، ودود حى، وأصداف مكسرة، وبقايا عظام شائهة، وفخار عليه كتابة مجهولة، وبقايا ثمار من فصول منقضية.

الخالة والشاب اللذان يخدمان بلقمتهما فى الدار الكبيرة يسيران، هو يدفع المحراث وهى محنية الظهر برأس ساقط تجاه الأرض، تعلق فى كتفها مقطف الخوص به حبات الأذرة المبلولة تنسال من بين أصابعها إلى الخطوط المنتظمة، تمضغ صدغيها، وليس لها ثديان.

دفع برجله المحراث، ولمع وجهة بالعرق، وشد «المرد» لتستقيم البهيمة.

تنهد الفتى الأسود بحزن، وفكر.

«سراية» على كتفية.

حظائر تقطع، ومزاود تملأ، وبهائم تحلب فى ورشة النهار والليل، ومحاصيل تجمع.

تساءل:

ما الذى يجرى الآن؟

الست الصغيرة عملتها وانتهى الأمر.

أيام «والسراية» مغلقة، وستى «شفق» مسجونة، والرجل خفت، وانقطع الزوار.

وكان يراها فيما مضى تقف تحت شجرة الرمان فى حديقة البيت، تهب عليه رائحتها، ورائحة ورد الجنينة، فينتفض قلبه، ويحاذر من الغلط، وعندما تصرخ فى وجهة كان يسرع بالفرار.

- حتى ستى الكبيرة انقطع دابرها.

فى الليل ترك نفسه يحوم حول السراية لعله يفهم.

خطت حتى تجاوزتهم، ونظرت فى عيونهم جميعا، عند النافذة نظرت على الليل تبحث بين الركام، ضوء يكشف عن سور الحديقة، وسلالم الرخام، وصرخة لكروان على النهر.

كانت تمسح المكان بعينيها حتى اصطدمت به جالسا تحت ضوء الفانوس، أمام الإصطبل، بيده عود الحطب ما يزال، لا يظهر لونه فى الليل، ولا يسمع سوى تنهداته.

«عويس» ابن العبيد يجلس فى الليل تحت النور الشحيح ويتنظر متأملا نافذة المضيفة حيث تجتمع العائلة».

تأملته الجدة كأنها تراه للمرة الأولى، وأخذت تنقل نظراتها بينه وبين الحفيدة، ثم تنهدت مستريحة وكأنها شفيت، بعد ذلك أغلقت النافذة.

القصص المختارة

ـ «الجمعة اليتيمة» و «لابورصا نوفا» و «قمر معلق فوق الماء» و«الجواد للصبى . . الجواد للموت» من المجموعة القصصية «مدينة الموت الجميل» ـ ١٩٨٥ .

ـ «زبيدة والوحش» و «صيد الغزلان» من المجموعة القصصية «ستر العورة» ـ ١٩٨٨ .

ـ «تلة الغجر» و«قصاص الأثر» و «ضربة قمر» و«الأمهرى» و«كل تلك الفصول» و«الأرض البعيدة» و«عشب مُبتل» و«سدرة المنتهى» من المجموعة القصصية «سدرة المنتهى» ـ ١٩٨٩ .

ـ «سيدة على الدرج» و«بيت للعابرين» و«صورة ملونة للجدار» و«رائحة الليل» و«وردة الليل» من المجموعة القصصية «بيت للعابرين» ـ ١٩٩٣ .

ـ «عريس وعروس» و«الشرير والجبل» و«الرحى» و«مجرى العيون» و«شفق ورجل عجوز أيضًا» من المجموعة القصصية «مجرى العيون» ـ ١٩٩٤ .

ـ «رفة جفن» و«العُراة» و«لون الماء» و«جديلة لمريم» و«شرف الدم»

و«الملكوت» و«البنت التى واربت الباب للحلم» من المجموعة القصصية «دوائر من حنين» ـ ١٩٩٧ .

ـ «القط والعصفور» و«ساعة فرجينيا الأخيرة» و«يوم بسبعين سنة» من المجموعة القصصية «البغدادية» ـ ٢٠٠٤ .

عن المؤلف

ولد سعيد الكفراوى بقرية كفر حجازى ـ مركز المحلة الكبرى ـ غربية ويعيش بين القرية والمدينة.

بدأ يكتب القصة منتصف الستينيات مع مجموعة أدباء المحلة الكبرى: جابر عصفور، نصر أبو زيد، محمد صالح، محمد المنسى قنديل، محمد فريد أبو سعده، جار النبى الحلو.

رحل إلى القاهرة وانضم إلى الجماعة التى كانت حول نجيب محفوظ آخر الستينيات والذين عرفوا بجيل الستينيات.

تشكل عوالم القرية بطقوسها وسحريتها وأساطيرها وناسها من المغمورين والمهمشين أهم تجليات أعماله القصصية التى لم يكتب سواها حتى الآن.

أصدر المجموعات التالية: مدينة الموت الجميل.. ستر العورة.. سدرة المنتهى.. مجرى العيون.. بيت للعابرين.. دوائر من حنين.. البغدادية.. حكايات عن ناس طيبين.. كشك الموسيقى.. يا قلب مين يشتريك.

ترجمت أعماله إلى الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية، الدينماركية، التركية.

وقد حصل سعيد الكفراوى على جائزة السلطان قابوس للقصة القصيرة عام ٢٠٠٧.

ولد سعيد الكفراوي عام ١٩٣٩ بقرية كفر حجازي بمحافظة الغربية. وبدأ كتابة القصة القصيرة منذ الستينيات ليصبح أحد أعلامها. صدر له حتى الآن اثنتا عشرة مجموعة قصصية تعد إضافة مهمة لهذا الفن. وقد اختار المؤلف لهذا الكتاب أربعة وثلاثين قصة تمثل العلامات الأساسية في مشواره.

تصميم الغلاف
عمرو الكفرواي

دار الشروق
www.shorouk.com
6 221102 022576